

القرآن الكريم

وتوثيقه واثره

في الناس

والحياة

القرآن الكريم

وتوثيقه وأثره فى الناس والحياة

بقلم

أحمد على الكردى

شكر وتقدير

أشكر كل من عاوننى فى إخراج هذا الكتاب.

وأخص بالذكر الإخوة الأساتذة:

الأستاذ/ حسن عابدين

اللواء / أسامة يوسف حسين

الحاج / صلاح عبد الفتاح

الأستاذ / محمد عبد العظيم على [الذى قام بإعداد الكتاب]

الأستاذة / سمية أحمد الكردى

الأستاذ / أحمد أحمد جاد [الذى خرّج الأحاديث النبوية]

وجزاهم الله خيراً،

ووفقهم لما فيه خيرهم وخير عباده أجمعين،

المؤلف

إهداء

إلى المسلمين الذين وثق الله لهم كتابهم وسنة نبيهم،

وإلى أهل الكتاب الذين وثق الله لهم بالقرآن كتبهم،

وإلى الملحدين الذين وثق الله بالقرآن جداهم وعنادهم وجهلهم،

وإلى روح أمى الغالية التى استفتحت قلبى القرآن بقولها:

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

وإلى كل من أشرفت نفسه بطلب الحق، وآمن أن إصلاح الدنيا لا يتم إلا

بكلمة الله.

راجياً

أن يكون هذا الكتاب شفيعاً لى ولكل من قرأه وتأثر به

آمين..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[سورة آل عمران آية ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً. وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[أول سورة النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

[سورة الأحزاب آية ٧٠-٧١].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد،

فقد قدمت للطبعة الأولى بما يمكن أن يكون شفيحاً لي عند ربي بعد موتي^(١) بدعاء الصالحين والأحباب. ولم أشر إلى الدافع الحقيقي لكتابة هذا الكتاب، إذ لم يكن الموقف بيننا وبين الغرب قد اتضح بالصورة التي هي عليها اليوم. وكان قصارى همّ هؤلاء الغربيين فيما مضى أن يخفوا ما في نفوسهم، ولا يستعلنون بها على ضرب من ضروب المكر والدهاء - بادعاء الرغبة في الإصلاح، والاهتمام بالبحث العلمي الهادف، ودعوتهم إلى التنمية العلمية..

ولم يصل الأمر إلى أن القادة والرؤساء يعلنون صراحة بغضهم للمسلمين، وكراهيتهم للإسلام.. بل ويعلن "بوش" صراحة عند عزمه غزو العراق.. أنها حرب صليبية. ثم يغلف ذلك بدعوته إلى الديمقراطية والإصلاح في العالم الإسلامي، ويجعل مشروعه باسم الشرق

(١) توفي المؤلف الكريم رحمه الله يوم السبت ١٥ جماد أول ١٤٢٥ هـ الموافق ٢٠٠٤/٧/٣ م بعد أن تم نشر الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وبعد كتابة هذه المقدمة وتنقيح الطبعة الأولى، وقبل وضع لمسات المؤلف الأخيرة على الطبعة الثانية، قبل نشرها.

الأوسط الكبير. ثم يعدد الدول التي يعينها بهذا المشروع فنجدها كلها دولاً إسلامية - كثير منها لا يقع في الشرق الأوسط، وكثير من الدول التي تشملها هذه الخريطة ليست إسلامية ولكنه لا يعينها، وإنما يعنى فقط الدول الإسلامية. ويصفها بالإرهاب.. فقد أدخل في الشرق الأوسط أندونيسيا وماليزيا - وهما في الشرق الأقصى - واستبعد كلاً من الهند وبورما وتايلاند من خريطته لأنها دول غير مسلمة.

ومن أجل ذلك تجرأ كثير من القادة الصليبيين على أن يجروا في نفس الطريق. فهذا رئيس وزراء إيطاليا (برجنسكى) يتحدث في مجلس الشيوخ الإيطالى ويقول "إن الحضارة الإسلامية لم تأت بشيء يفيدنا أو ينتفع به". ومع أنه كلام قديم قد أورده كثير من كتابهم وفلاسفتهم، وقد قام بالرد على هذا الكلام كثير من كتابهم ومفكريهم ومؤرخيهم.. إلا أن ذكره اليوم يدل على أن الذين كانوا يضمرون العداوة للإسلام والمسلمين في خفاء - نتيجة وضعهم السياسى - قد وجدوا من استعلان كبار القادة، ومن ضعف المسلمين، ما يشجعهم أيضاً على إعلان صليبيتهم صراحة.

ومثل ما حدث من (برجنسكى) حدث من كثير من قادتهم الدينيين وغير الدينيين. فهذا رئيس الكنيسة الإنجيلية في لندن، ومثله قادة البروتستانت - في تجمعهم وتصريحاتهم وتحالفهم مع أمريكا ضد المسلمين في فلسطين والعراق.. يرددون ما قاله (برجنسكى)، بل يزيدون عليه افتراءات على نبي هذه الأمة ﷺ ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [سورة آل عمران آية ١١٨].

وكان مثل ذلك يقال من قبل، وسجله الكتاب المسلمون في مطالع مؤلفاتهم مثل الدكتور غلاب - مؤلف كتاب الفلسفة الإغريقية، يذكر عن الفيلسوفين الفرنسيين (شاتوبريان) و(رنان) قولهما: "إن حضارتنا (أى حضارة الغرب) نبتت في أرضنا (أوروبا)، وأى حضارة غيرها، يحيط بها الظلام، ولا نكاد نعرف منها شيئاً".^(١)

كل هذا والإسلام دون غيره من الأديان بعيداً عن إكراه المخالفين له من الأديان الأخرى. فلا يفرض عقيدته على غيره وإنما يقول الله تبارك وتعالى في هذا المجال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [سورة البقرة آية ٢٥٦] ويقول جل علاه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة يونس آية ٩٩-١٠٠]. وقد روى المحدثون أن عمر بن الخطاب ﷺ كان له خادم نصرانى يقال له

(١) المقدمة - الجزء الأول

(أسق) فعرض عليه الإسلام فلم يجبه الفتى. فقال عمر "اللهم لا إكراه في الدين". ويقول: "يا (أسق) لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين". وقد روى عن ابن عباس قوله: "نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له (الحصين) كان له إبنان نصرانيان وكان هو مسلماً. فقال للنبي ﷺ: "ألا أستكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك" (١).

بل إن الإسلام لم يكتف في معاملة غير المسلمين بمنع الإكراه فقط بل شرع معاملتهم بالبر والقسط حتى ولو كانوا من غير أهل الكتاب بل من المشركين ما داموا مسلمين ولا يواجهون المسلمين بالعداوة والظلم، يقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة آية ٨]. أى أن الله تبارك وتعالى لا يطالبنا فقط بترك إكراههم على الدخول في ديننا بل إذا سلموا ولم يقاتلوا ولم يعتدوا فإن الله يأمرنا أن نعاملهم معاملة لا برفع الظلم فقط وإنما بالإقساط والبر. فالإقساط منع الجور والأذى والظلم، والبر أوسع كلمات الخير في اللغة لأن الله يحب المقسطين العادلين. وفي هذا يروى المحدثون أن أسماء بنت أبي بكر جاءت أمها من مكة وهي مشركة - بعد أن تصالح أهل مكة مع المسلمين بعد صلح الحديبية - راغبة في برها وصلتها، فردتها. ولكن أسماء ذهبت إلى رسول الله قائلة له: "يا رسول الله إن أمي جاءتني وهي راغبة أفأصلها؟ فقال رسول الله ﷺ: "صلى أمك" (٢). وفي هذا نزلت الآية السابقة: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ...﴾. ويقول ﷺ: "من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة" (٣).

وقد سار المسلمون بعد رسول الله ﷺ في هذا الطريق الذى يعامل فيه غير المسلم معاملة المسلم ما دام لا يقاتل ولا يعتدى ولا يظلم حتى أننا نجد بعض فقهاء المسلمين إذا شرحوا قول رسول الله ﷺ "المسلم أخو المسلم" يقولون إن قيد الإسلام في هذا، قيد اتفاقي لا للإدخال ولا للإخراج، وإنما المراد أن المسلم في تعامله مع الناس يتعامل بشريعة الله التي يستوى فيها العدل مع المسلم وغير المسلم. فكأن المعنى: "الإنسان أخو الإنسان".

وعلى ذلك انتشر الإسلام يحمل إلى الدنيا هذه العدالة المطلقة - ليس لليهود ولا النصراني فقط - بل حتى المجوس والبوذيين وغيرهم.

(١) تفسير ابن كثير: ٤٥٩/١ ط الشعب.

(٢) البخارى: الهبة: ٢٦٢٠ ومسلم: زكاة: ١٠٠٣ وغيرهما.

(٣) أبو داود: إمارة: ٣٠٥٢ وروى بألفاظ أخرى.

فعندما فتح المسلمون بلاد الفرس تحاوروا كيف يعاملونهم. فروى عبد الله بن مسعود الحديث "سناو بهم سنة أهل الكتاب غير آكلى ذبائهم ولا ناكحى نسايمهم"^(١) ومنهج الإسلام فى أهل الكتاب هو احترامهم واحترام أملاكهم واحترام عاداتهم. فلما فتحت العراق واختلف الصحابة فى أهل السواد قال بعض الصحابة: نحكم فىهم بأية الغنائم فى سورة الأنفال ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [سورة الأنفال آية ٤١]. ولكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يرى أن ذلك لا يتفق مع الإسلام فى حاجاته ومستقبله. وقال كلمته المشهورة "فكأنى بكم وقد ملكتم الأرض وأمسكتكم بأذنان البقر. فمن للثغور يحميها؟" وأشار بترك الأرض فى أيدي أصحابها سواء فى العراق أو غيرها. وعليهم أن يدفعوا الخراج ولو كانوا غير مسلمين. وصار ذلك منهج الإسلام فى كل البلاد التى انتشر فيها.

وتعايش المسلمون مع غيرهم حتى فى المدن التى قامت فيها الخلافة الإسلامية كالمدينة والكوفة، ثم دمشق وبغداد ومصر، ثم اسطنبول.

فلم تخلُ مدينة من هذه المدن، ولا دولة من دول الإسلام - سواء فى دول الخلافة أو فى غيرها - من مخالطة المسلمين للأديان الأخرى تعايش سلام وإخاء. وإن كان قد حدثت بعض أخطاء فإنها فردية لم تمنع من هذه المعاشة. فمصر مثلاً التى استقبل فيها الأقباط الأرثوذكس الفتح الإسلامى بحفاوة وترحيب، وكان البطريك المصرى محتفياً من سوء حكم الرومان الشرقيين، فأنقذ المسلمون إخوانهم المسيحيين وأعادوا للكنيسة المرقسية سلطتها. ولا يزال أقباط مصر ومسلموها فى سلام ومحبة. ولئن بدرت بوادر شقاق فى أزمان متباعدة فإنما ذلك من طبائع الحياة التى تحدث من الحين إلى الحين.

ومثل ما نقوله عن غير المسلمين فى مصر نقوله أيضاً عن دولة الخلافة فى دمشق وبغداد واسطنبول. فما زالت سوريا منذ أن فتحها المسلمون يوجد فيها - ليس المسيحيين فقط - وإنما هم واليهود وأصحاب المذاهب المختلفة حتى عهد غير المسلمين بأكثر من ١٨% من السكان. ومثل ذلك فى العراق حتى اعتبرت العراق بلداً مزركشاً بالمذاهب والديانات والقوميات المختلفة. وهكذا كان يعيش المسلمون مع غيرهم فى كل البلاد التى وصلوا إليها دون اضطهاد دينى أو عقائدى. بل ما فجر النزاعات إلا قدوم المستعمرين وسياستهم تحت مبدأ "فرق تسد".

والاستعمار والاستشراق هما وراء كل الصراعات التى ظهرت فى هذه الأيام فى البلاد

(٤) مالك فى الموطأ: الزكاة: ٤٢ ص ٢٣٣.

الإسلامية بعد أن كان المسلمون يتعايشون مع غيرهم من الأديان الأخرى في سلام ووثام.

فالإسلام دين السلام. والجذر اللغوي للفظ الإسلام هو مادة السلم. ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [سورة البقرة - آية ٢٠٨]. أى ادخلوا في الإسلام الذى هو السلام. فالسلام هدف أساسى للمسلمين. فربهم المعبود الذى يسعون لرضائه والإيمان به، اسمه السلام ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [سورة الحشر آية ٢٣]. والجنة التى يسعى المسلمون إليها، ويرجون العيش فيها هى "دار السلام"، ودعاء المسلمين فى حياتهم أن يعيشوا فى سلام. وهم يدعون الله كما جاء فى الحديث النبوى "اللهم أنت السلام، ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام"^(١).

وقد عاش المسلمون طوال ١٤ قرناً لم يعرفوا الخصومة مع غيرهم حتى جاءت الحركات التبشيرية والاستعمارية فأحدثت الخصومات فى بعض بلاد المسلمين، بينما عاشت أوروبا فى القرون الوسطى فى صراعات دائمة ودامية لم يُعرف لها مثيل فى التاريخ. كالصراعات التى بين المسيحيين وغير المسيحيين فى أوروبا والتى كانت قائمة على منهج القديس أوغستين الذى نقل لهم من الإنجيل - كما يزعم - من قول المسيح "ما جئت لألقى على الأرض سلاماً بل سيفاً". فقامت المسيحية بعد أن تولى أمرها الرومان على المذابح والقتل وإراقة الدماء بينهم وبين مخالقيهم فى الدين أو المذهب. ولا يزال المسيحيون يذكرون نيرون وإحراقه روما واتخاذ المسيحيين مشاعل تضىء لهم نواديبهم ولا يزال أهل مصر يؤرخون بعام الشهداء الذى كان أيام دقلديانوس - امبراطور الروم الشرقيين - واتخذ بداية للتاريخ المصرى القبطى. وما زال أهل أوروبا يذكرون الصراع بين المسيحيين ومخالقيهم من أهل الشمال حيث أباحوا القتال لنصرة المسيحية على مبدأ (قتل الإنسان فى الدنيا أيسر من إحراقه فى الآخرة). وما يزالون كذلك يذكرون صراعاتهم بين الكاثوليك والبروتستانت وأتباع (كلفن) وغيره مما سودت به آلاف الصفحات والتى على آثارها هرب (البيورتان) [أى المتطهرون الصالحون] إلى أمريكا التى تأسست على أكتافهم. كل هذا فى الوقت الذى كان فيه الشرق الإسلامى يعيش فى سلام ووثام بين المسلمين والأديان الأخرى. ولعل أهل أوروبا وأسبانيا يذكرون محاكم التفتيش فى أسبانيا وما أحدثته من إهلاك وتعذيب واضطهاد لغير المسيحيين من مسلمين ويهود. ولعل اليهود أيضاً يذكرون كيف دافع عنهم المسلمون. وكيف طُردوا مع المسلمين من أسبانيا، وكثير منهم يعيشون فى بلاد المغرب حتى اليوم.

(١) مسلم: مساجد: ٥٩١ وأبو داود: ١٥١٢

* * *

من أجل ذلك أعددت هذه المقدمة للطبعة الثانية للكتاب وجعلتها بياناً وتوضيحاً
لما أسررت به في نفسى في الطبعة الأولى وقمت بتعديل العنوان حتى يكون متفقاً مع ما أريد
توضيحه علانية من سمو الإسلام وبعده عما أسرّت نفوسهم وأعلنته ألسنتهم على لسان
القادة منهم.

واللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

احمد على الكردى

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله: نحمده ونستعينه ونستعديه ونعوذ به من علم لا ينفع وقلب لا يمشع ونفس لا تقنع ونصلى ونسلم على نبي الهدى والرشاد، الداعي إلى وحدة الأمة وصلاتها وهداها صلى الله عليه وعلي آله وصحبه ومن اهتدى بهداه وسلم.

وبعد،

فقد صحبت القرآن الكريم طفلاً في أوائل عهدي بالحياة. إذ نشأت في بيئة متدينة تعرف حق الله وحق عباده. وكان أول ما طرق سمعي مع شيء من قدرة الذاكرة آية كريمة سمعت والدي (رحمها الله) ترددها في صلاتها الليلية وهي قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران آية ٥٣].

رددت الآية حفظاً دون فهم وظلت بذاكرتي حتى اليوم، وحييت مع القرآن من يومها حتى الآن، فصحبت القرآن الكريم كتابةً وحفظاً في كُتَاب القرية، ثم تلاوةً وتجويداً ودراسة في المعاهد العلمية، ثم تدريساً وشرحاً وتفسيراً ودعوة به إلى الله حتى اليوم. ولكني وقد تقدمت بي السن ودنوت من الآخرة، ذكرت في نفسي أنني لم أسجل عملاً مكتوباً ومنشوراً يشفع لي عند الله ثم عند الناس بعد موتي. وأدركت أن هذا الذي قمت به في حياتي لم يسجل ليقي بعد موتي. وهو عُرضة لأن يُنسى بعد قليل. ثم إنني وقد ذكرت ما ورد عن أبي بكر رضي الله عنه: " لو كانت إحدى قدمي في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله." فمن لي بهذا الجهد المبعثر أن انتفع به بعد موتي. وإن كنت أرجو ذلك وألح على الله ربي راجياً بره وإثابته.

ذكرت ذلك، وذكرت أنني قمت مع القرآن الكريم بعمل يقربني عند الله بعد موتي. وبخاصة أنني سجلته في مذكراتي، وطبقته عملاً أرتجى به رضا الله، واستقبله الناس قبولاً حسناً. فلم لا أقدمه للناس لأذكر به بعد موتي وبخاصة أنني وغيري روينا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" ^(١) وتأملت هذه الثلاث. فأما الصدقة الجارية فقد حاولتها ولكني أيقنت أن ظروف حياتنا لا تعطى الثقة بأن الصدقة يمكن أن تبقى جارية بعد الموت. وأما الولد الصالح فقد يوجد ولكن من يضمن أن يظل داعياً لوالده ولغيره مع تقلب الحياة ومشاغلتها واختلاف الأمزجة والأفكار. مما قد يجعل الابن ينشغل عن أبيه وعن الدعاء له.

^(١) رواه أبو هريرة - صحيح مسلم كتاب الوصية باب ما يلقي العبد عند وفاته - ج ١١ - طبعة مصطفى الحلبي - شرح النووي.

والأمثلة كثيرة. ولم يبق أمامي إلا العلم الذي يبقى عند الله والناس، إذا يسرت سبله، واستقامت مناهجه. وأي علم أجدى وأنفع للنفس والناس من كتاب الله؟ ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت آية ٤١-٤٢]

فهذا الكتاب الكريم تحدثت عنه الأرض والسماوات. وتحدثت عنه الأجيال المتعاقبة منذ نزوله إلى اليوم. بين مصدق له أو مكذب.

ولهذا آثرت أن يكون عملي هذا- الذي أبتغى به وجه الله ، وثوابه في الدنيا والآخرة- أن يعتمد على دراسة واعية وعميقة للقرآن الكريم، ضمنت إليها دراسات مفيدة كنت قد أعددتها في الماضي، وأضفت إليها هنا فصلاً استحدثتها فضلاً عن عدة مباحث عن السنة النبوية المباركة.

وسوف يجد القارئ الكريم في جملة ما يقرأ ما يقربه إلى كتاب الله، ويوسع من نظرتة إلى الإسلام، ويوضح له أهمية الدور الذي قام به القرآن الكريم في الماضي، وما قدره الله له في المستقبل القريب والبعيد.

"وخيركم من تعلم القرآن وعلمه" ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
أحمد على الكردي

سوهاج شعبان ١٤٢٤
أكتوبر ٢٠٠٣

ما بين الطبعتين

ما أن تم إعداد نسخة الليزر النهائية للطبعة الأولى حتى اطلع عليها استاذي الفاضل الشيخ احمد الكردى - رحمه الله، فقرأها واطمأن أن ما أدرجه بها كان كل ما كان يريد نشره، وبالنظام وبالترتيب الذى صدرت به، وتحقق من ذلك باطلاعه ومراجعته بنفسه وأجرى عليها تعديلات طفيفة قبل الطباعة.

وفي يناير ٢٠٠٤ صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وارتاحت نفسية المؤلف رحمه الله عندما أمسك بيده الكتاب الذى طالما بذل فيه من جهد، وسهر عليه من ليل، وتعب فى إعداداته بمشاركة ابنته الفاضلة الأستاذة سمية الكردى، وإسهام بعض من أحباب وإخوان الشيخ.

* * *

ثم راجع فضيلته الكتاب المطبوع فى طبعته الأولى فور صدورها، وأبدى عليها عدة ملاحظات جديدة، وطلب إجراء عدة تعديلات عليها سجلها كلها بيده على نسخة من الكتاب، وأضاف فصلاً جديداً من السنة النبوية وتوثيقها. وطلب منى الأخذ بها عندما يحين وقت الطبعة الثانية إن شاء الله.

* * *

طلبتُ منه - رحمه الله - أن يكتب مقدمة الطبعة الثانية للكتاب ليضع فيها من أفكاره ما لم يكن قد سجله، ولكى تكون أفكاره وملاحظاته كلها مكتوبة وتحت أيدينا، وجاهزة للتنفيذ عندما يحين وقت طباعتها.

وكان شيخنا الجليل - رحمه الله - على درجة عالية من الهمة والنشاط والقدرة على إنجاز العمل المطلوب فى أسرع وقت ممكن، برغم ظروفه الصحية التى قد تعوق غيره عن العمل، لكن حرصه على أن يكتمل كل ما يتعلق بالكتاب، كان يجعله لا يضيع الوقت، ولا يؤخر عملاً، ولا يجعل أحداً ينتظره، بل كان - رحمه الله - هو الأسبق دائماً فى إنجاز ما يلزم. ولهذا عندما فاجأنا قضاء الله بوفاته - مفاجأة شديدة وأليمة وفى وقت غير متوقع على الإطلاق - لم يكن ينقصنا شىء من رأيه وأفكاره ورؤيته وتوجيهاته - فيما يخص الطبعة الثانية - سوى وجوده المبارك بيننا وقت المراجعة النهائية للتعديلات التى طلب بنفسه إدخالها على الكتاب. وبناءً على ما جاءه من ملاحظات واقتراحات من أعز أحبائه..

* * *

وأول تعليق ورد إلى المؤلف رحمه الله - كان من السيد الفاضل الأستاذ / سيد

عبد الفتاح هاشم مؤرخاً في أول ذى الحجة ١٤٢٤ هـ الموافق ٢٣ يناير ٢٠٠٤، جاء فيه:

"الكتاب ثمرة طيبة ناضجة، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، جمع المؤلف فأوعى، وأثبت إنارته للعقول، وأعطى خبرته في حياته العلمية والعملية، ودون الكثير من أمثلة تاريخية وعادات وتقاليد للشعوب ... وكان يريد أن يقول لمن يقرأ الكتاب: اسمعوا وافهموا وأطيعوا ربكم وسيروا على نهج محمد ﷺ ... إنها كلمة صادقة خرجت من فم صادق، ومن قلب طاهر. أيها الحافظ لقرآن الله، العامل بما فيه، استمر في تأليفك، لينتفع الناس بعلمك. كتب الله لك الخير، ومتعك بالصحة والعافية مع عمر مديد".

* * *

ثم بعث السيد الأستاذ الفاضل / حسن عابدين بمذكرة مؤرخة ليلة النصف من صفر ١٤٢٥ هـ ضمنها آراءه السديدة، واقتراحاته في إدخال بعض التعديلات على نظام هيكل الكتاب وترتيب أبحاثه وفصوله، فأشر فضيلة الشيخ على المذكرة بما رأى، وطلب مني تنفيذ ما كتبه بيده على المذكرة.

وقد صدر السيد الأستاذ / حسن عابدين مذكرته بكلمة رقيقة، جاء فيها:

"لقد كلفني فضيلة الشيخ احمد الكردي - بارك الله له ولنا في عمره وعلمه - بالنظر في كتابه الهام "القرآن الكريم ودوره بين الناس والحياة" .. وقد رفع فضيلته من شأنى بما كلفني به، ليس لعظم ما سأقوم به، وإنما لعظم ما سأنظر فيه .."

* * *

ووردت إلى كلمة السيد الفاضل اللواء / أسامه يوسف حسين يوم السبت ٩ رمضان ١٤٢٥ هـ الموافق ٢٣/١٠/٢٠٠٤ م جاء فيها:

"أهدى كلمتي إلى روح أستاذي ومعلمي الشيخ الجليل الأستاذ احمد على الكردي، الذى طالما كان لنا نبراساً في كل وقت ننهل من علمه في شتى الأمور، يوضح ويشرح لنا بالأسانيد والحجج والبراهين الساطعة .. إن علمه باق في عقولنا وقلوبنا، نقله إلى الناس امتداداً له، وسيراً على درب .. ونعلمه لأبنائنا لكي يسيروا على نور وهدى.

وإن هذا الكتاب هو قبس من علمه العظيم، ومن حبه للناس، وحرصه على الدعوة إلى هدى الإسلام. أعاننا الله أن نوفي جزءاً من واجبنا نحو علمه بنقله إلى الناس آمين".

* * *

عندما اطلع الأخ الفاضل المحقق الأستاذ / احمد احمد جاد على الطبعة الأولى

لهذا الكتاب، وقرأ تحقيقات الأحاديث النبوية التي ذكرت به رأى أنها فرصة لإعادة كتابة تحقيقات الأحاديث، وإخراجها في الطبعة الثانية، أكثر وضوحاً، وأدق بحثاً.

ووضع منهج عمله كما يلي فجاء تخريج الحديث في الطبعة الثانية أوفى وأكمل: قال: "حاولت كتابة ألفاظ الحديث حسب مصدره. فإذا روى الحديث أكثر من واحد، قدمت صاحب لفظ الحديث على غيره. مثلاً إذا ورد الحديث في الكتاب برواية البخارى ومسلم، ولكن اللفظ لمسلم، ذكرت في الهامش مسلماً أولاً ثم البخارى. هكذا (-) رواه مسلم ... والبخارى ... وإذا كان اللفظ للبخارى قلت (-) رواه البخارى ... ومسلم.

مع ملاحظة أن الحديث في الطبعة الأولى قد يحتوى على ألفاظ غير موجودة في كتب الحديث. وقد تكون توليفة من عدة أحاديث، فأجريت التصحيح.

"والله ولى التوفيق".

* * *

وكتب الحاج / صلاح عبد الفتاح كلمة بعد قراءته الطبعة الأولى جاءت كالآتي: "إن الأستاذ احمد على الكردى - أستاذى وحبيبي، تتلمذت على يديه منذ عرفته بالإسكندرية عام ١٩٥١م عند تعيينه بمدرسة رأس التين، وكذلك في مدرسة الدعاة بالإسكندرية حيث كان يدرس لى وإخوانى الدعوة إلى الله، وكنت أصاحبه في جولاته في أنحاء الإسكندرية يعتلى منابرها ويجلجل بصوته تالياً آيات الله الكريمة، وناشراً للعلم بين الناس.

ولقد استمتعت به - أنا وإخوانى - مريباً فاضلاً، يأخذ بأيدينا إلى هدى الله، ويعدنا إعداداً حكيماً لتكون رجالاً لدعوة الله.

لقد عرفته مجسداً للإخلاص، متجرداً لخدمة دينه ودعوته وأتمته الإسلامية، يعينه على ذلك أنه كان صاحب خلق متين، وتواضع جميل، وحب للناس عظيم.

كان الوفاء كله، والتسامح كله، وكان قلبه الكبير يسع الناس أجمعين ... رحم الله أستاذنا وشيخنا وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

* * *

أرجو أن أكون قد وفقت في إنجاز ما طلب منى.

ولله الحمد أولاً وآخراً.

محمد عبد العظيم على

معد الكتاب

الإسكندرية في رمضان ١٤٢٥

نوفمبر ٢٠٠٤

تهديد

من المسلمات البديهية و الثابتة علمياً أن الأرض التي نعيش عليها وجدت وهيئت للحياة قبل وجود آدم ﷺ عليها.

و الذين يؤمنون بالغيب يعتقدون في وجود إله خالق للكون مدير له، لحكمة بالغة تتمثل في عمارة الكون بعبادة الله و الخضوع لأمره. كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [سورة الذاريات آية ٥٦-٥٨]

فالله خالق الكون كله و مدبره هياً الأرض لآدم و ذريته و أعطاه أسباب عمارة الأرض و فضله على كثير من المخلوقات في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة آية ٣٠].

ومنذ اللحظة الأولى بدأ الصراع بين آدم و ذريته من جانب، وإبليس و ذريته من جانب آخر. وأعطى الله سبحانه و تعالى آدم و ذريته من أسباب الهداية و الرشاد ما يجعلهم يستطيعون أن يميزوا بين الحق - الذى من أجله خُلِقوا - و بين الباطل - وهو غواية الشيطان ووسوسة النفس - وكان من أهم تلك الوسائل الكتب المنزلة على أنبيائه.

وبهذا تفضل الله تبارك و تعالى بهداية عباده إلى الخير و إلى ما يسعدهم في الدنيا و الآخرة. فأرسل رسله مصلحين و مبشرين و منذرين. ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء آية ١٦٥].

وقطع حجة الناس على الله إذا لم يرسل لهم رسولاً حتى لا يقولوا كما جاء في كتابه الكريم. ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُحْزَى ﴾ [سورة طه آية ١٣٤]. وكما جاء أيضاً ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة القصص آية ٤٧].

فالله لطيف بعباده، خلقهم و تكفل بحفظ حياتهم و رزقهم، ولم يتركهم في الكون يعيشون بلا إرشاد ولا هداية، بل أرسل رسله وأنزل كتبه توضح لهم قواعد الخير، و تهديهم إلى سبل النجاة في الدنيا والآخرة. و تصحح عقائدهم في الله واليوم الآخر. كلما ضلوا في طريقهم أو انحرفوا في سلوكهم.

لما جاء محمد ﷺ وكانت الإنسانية قد بلغت رشدها، جاءت الرسالة العالمية للناس

جميعاً - عرباً كانوا أو غير عرب - كما جاء في قوله ﷺ "كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود" (١)

بل لقد كان كما وضع ذلك و أكده وحى الله الكريم في السور الأولى التي نزلت على محمد ﷺ، يقول الله تعالى في سورة القلم وهي ثانية سورة نزلت من القرآن في مكة، بعد سورة العلق: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [آية ٥٢]. و يقول في سورة التكوير وهي مكية أيضاً و من أوائل السور: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [آيات ٢٦-٢٩].

ومما يستحق الذكر أن عالمية الإسلام أكدها القرآن المكي في مواقع كثيرة، فتأكدت منذ لحظات الشدة عند المسلمين. و من خلال هذه الآيات و مثلها التي تنزلت في مكة في السنوات الأولى من عمر الدعوة الإسلامية، استيقن الناس أن هذا الدين ليس دين جماعة و لا قوم و لا جنس و لا منطقة، و إنما هو دين الإنسانية جميعاً. لا فرق فيه بين عرب وترك و لا بين فرس و ألمان و لا بين شرق و غرب. و من السنوات الأولى كان مجلس محمد ﷺ يضم العرب بطوائفهم المختلفة (قريش، أعراب، موال، عبيد)، و غير العرب فهذا سهيب الرومي وهذا بلال الحبشي و هذا سلمان الفارسي. بل إن رسول الله ﷺ ليذيب الفوارق التي فرقت الناس فيقول: "سلمان منا أهل البيت..." (٢)

حتى اللغة العربية جعلها لغة الإسلام ولغة العالم وأسقط عنها التعصب العرقي باسم اللغة وأنها ليست لغة الأجناس والأقوام. ويروي أبو سلمة بن عبد الرحمن ﷺ: "جاء قيس بن مطاطيا إلي حلقة فيها سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا؟ (أي أن الأوس والخزرج عرب ينصرون رسول الله وهو عربي، فما بال سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي، ما بالهم ينصرون رسول الله العربي وهم ليسوا عرباً؟)" فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلايبه، ثم أتى به إلى النبي ﷺ فأخبره بمقالته، فقام رسول الله ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد. ثم نودي: "الصلاة جامعة" وقال رسول الله ﷺ: "يأيها الناس: إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، وإن الدين دين واحد. ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم، وإنما هي لسان. فمن تكلم بالعربية فهو عربي" (٣)

ولكى يبدو هذا العمل في تمام إتقانه. كانت معجزة هذا الدين - وهي القرآن الكريم - تخاطب البشرية جميعاً، فتخاطب فيهم عقولهم الذي هو أشرف خلقتهم. وهو الذي

(١) جزء من حديث مسلم: مساجد: ٥٢١ والبخاري: ٣٣٥ وغيرها.

(٢) الطبراني في الكبير، انظر الجامع الصغير - حديث صحيح.

(٣) رواه الحافظ ابن عساکر عن مالك عن الزهري عن أبي سلمة وانظر: حياة الصحابة: ٢ / ٤٧٦.

به كرموا ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء آية ٧٠]. فالله هو ﴿الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه آية ٥٠]. وكان يحتم كثيراً من الآيات بقوله (يعقلون - يتفكرون - يهتدون - يعلمون). ولقد أثبت الاستقراء العلمى أن الناس قد يختلفون في ألوانهم وأجناسهم وثقافتهم، ولكنهم يلتقون جميعاً في قدرة التعقل والإدراك النظرى والتفكير والإرادة مع إمكان أن يتكلموا بلغات غير لغتهم.

وقد ثبت هذا في تاريخ الإسلام بعد انتشاره على مستوى عالمى. فقد أسلمت شعوب كثيرة غير عربية، فدعاها إسلامها أن تتعلم لغته، وأن تتفقه في علومه حتى أصبح منهم العلماء والفقهاء وعلماء اللغة والتفسير وعلوم الحديث بل والحكام والقادة. فلم يمنع اختلاف اللغة من ذلك.

وبينما كان قد جعل للنبي الذى كان يرسل إلى قومه خاصة معجزة تخاطب هؤلاء القوم بما عرفوا. وفيما تدركه حواسهم فيؤمن من يؤمن ويكفر من يكفر، وتصبح المعجزة بعد ذلك في سجلات التاريخ الماضى. حتى لقد يأتى بعد ذلك من ينكر أنها وجدت وحدثت. وكان ذلك أمراً مناسباً لخصوصية الرسالة زماناً و مكاناً. أما عندما تشمل الرسالة عموم الزمان و المكان، فلا يكفى فيها آية حسية، وإنما من إتقان التدبير الربانى أن الرسالة عامة، ومعجزتها عامة، فيرفع الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى و تبقى الرسالة والنبوة والمعجزة خالدة باقية بقاء الحياة بعده.

وهذا هو ما حدث لرسول الله ﷺ دون غيره من الرسل، وهذا الذى جعل الرسول ﷺ يقول "لا نبي بعدى" مع حاجة الناس للنبوة والرسالة. فسيجدون حلاً لمشاكلهم فيما خلف الرسول من كتاب وسنة، هما النبوة و الرسالة إلى يوم القيامة.

وهذا مضمون قول رسول الله "ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر. و إنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" (١)

* * *

بهذا جاء الأمر الإلهي مكرراً بعالمية الدعوة التي أرسل بها محمد ﷺ. فقد ذكرت عالمية الإسلام مكررة ومؤكدة في القرآن الكريم منذ نزوله. مما يناقض ادعاءات المستشرقين وأتباعهم وبخاصة زعيمهم اجناتس جولدسيهر في كتابه "العقيدة والشريعة في الإسلام" (١،٢)

(٢) رواه البخارى في فضائل القرآن: ٤٩٨١، ومسلم في الإيمان: ١٥٢.

(٢) ص ٥٠ طبعة أولى فبراير ١٩٤١.

الذى ترجمه من الفرنسية د. محمد يوسف موسى مع آخرين. وجولدسيهر اليهودى المجرى يعتبره المستشرقون زعيمهم ويعتبرون كتبه أشبه بأناجيل جديدة، جاءت للرد على الإسلام والمسلمين. وقد قدم جولدسيهر فى كتابه المذكور بحثاً بعنوانه: "محمد والإسلام" زعم فيه مزاعم كثيرة - رد عليها المترجمون فى مواضعها. وكان من مزاعمه أن محمداً ﷺ اختلفوا فى أهدافه. أكان وطنياً يدعو أهل مكة وما حولها؟ أم كان عالمياً يدعو العالم كله إلى دينه. ثم زعم جولدسيهر أنه فى أول الأمر كان وطنياً يدعو العرب وحدهم. وبخاصة أهل مكة. يشير إلى آيات من سورة الشعراء ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آية ٢١٤-٢١٥]، رغم اعترافه بأنه ورد فى القرآن المكي ما يشير إلى العالمية. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء آية ١٠٧]. وقال إن النبى ﷺ فى المدينة، وقد تتابعت انتصاراته. كان يلفت نظر أصحابه إلى الروم البيزنطيين، ويهتم بأخبارهم. كما جاء فى القرآن المكي ﴿أَلَمْ غَلَبَتْ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ [سورة الروم الآيات الأولى]. ولعله يشير بذلك إلى الحديث النبوي عندما سئل ﷺ: "أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أم روما؟ فأجاب رسول الله: مدينة هرقل تفتح أولاً يعنى القسطنطينية".^(٢) وهذا الزعم من جولدسيهر كذب واضح. فقد كان من صحابته فى العهد المكي الفارسي سلمان ﷺ والرومي صهيب ﷺ والحبشي بلال ﷺ. وفى أول محاولة للاتصال الخارجى كانت هجرة أصحابه إلى الحبشة، حيث دعوا أهل الحبشة وملكهم النجاشي إلى الإسلام. كما يتضح عند علماء السيرة من خطبة جعفر بن أبى طالب أمام النجاشي، وإعجاب النجاشي بها. كما يجزنا المحدثون أن رسول الله ﷺ عندما بلغه وفاة النجاشي صلى عليه صلاة الغائب. مما يؤكد وصول الدعوة إلى الحبشة وإسلام النجاشي وغيره. كما جاء ذلك فى تعليق الأرثوطينيين اللذين حققا أحاديث زاد الميعاد. إذ قالوا "صلاة النبى على النجاشي رواها جماعة من الصحابة ﷺ". فقد أخرجها البخاري ومسلم وأبو داود

(٢) أصدر الشيخ محمد الغزالي كتاباً بعنوان "دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين" دار الكتب الحديثة ط ٣ ١٩٦٤. خصصه للرد على كتاب جولدسيهر هذا والذى لم يستوف المترجمون الرد الكافي على أباطيله. وجاء فى مقدمة الطبعة الثانية قول الشيخ الغزالي ص ٨: "إننى أرفض المقدمة التى كتبها الدكتور محمد يوسف موسى لهذا الكتاب ومؤلفه...". وقال: "والحق أن الكتاب من شر ما ألف عن الإسلام.. وأن التعليقات القليلة التى جاءت فى ذيل بعض الصفحات فى الترجمة العربية كانت سدوداً محدودة أمام موجات طاغية من الإفك والعدوان". وقال الشيخ الغزالي فى مقدمة الطبعة الأولى ص ٢١: "إن هذه التراجم المجردة [من الردود الوافية] تشبه أن تكون عوناً للغزو الثقافى ومدلاً لغيومه فى آفاقنا". [مُعد الكتاب]

(٢) مسند أحمد: ١٧٦/٢: ٦٦٤٥. والدارمى: مقدمة: ٤٨٦ نحوه.

والطيالسى وابن ماجه وأحمد". (١)

* * *

ومن هذا نعلم أن عالمية الإسلام لم تكن في العهد المدنى فقط. وإنما كانت منذ نزل الوحي على رسول الله وتوالى في العهد المكى. فقد نزلت سورة الروم في العهد المكى، تبشر أن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين. وكان تحديد زمن النصر ببضع سنين أكبر دليل على صدق محمد في دعوته. إذ لم تكن عنده ﷺ أجهزه استطلاع ومخابرات تعرفه مدى تعبئة الروم لجيوشهم، ومدى قدرتهم على أن يستعيدوا قوتهم لينتصروا في بضع سنين (والبضع من ٣ - ٩ سنوات). وتحقق ذلك كما جاءت النبوءة. (٢)

* * *

(١) زاد المعاد - ج ١ ص ٥١٩ - الطبعة الثالثة.

(٢) وقد علق د. محمد عبد الله دراز على هذه النقطة في كتابه "تيسير النبأ العظيم" دار الإبداع - الإسكندرية ٢٠٠٤ هامش ص ٤٥ قائلاً: "رب قائل يقول: هلا حدد القرآن عدد السنين بلفظ أصرح من لفظ "البضع" المتراوح بين الثلاث والتسع؟ فنقول: ولكن الناس في اصطلاحهم الحسابى لا يجرون على طريقة واحدة، فمنهم من يحسب بالشمس ومنهم من يحسب بالقمر ومنهم من يكمل الكسور، ومنهم من يلغيها. فكان مقتضى الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ليكون أقطع لكل شبهة، وأبعد عن كل جدل. ثم إنه ربما تراخى الوقت بين بشائر النصر ووقائعه الفاصلة فيقع اختلاف الحاسبين في تعيين الوقت الذى يضاف إليه النصر. ولذا حسن التعبير بلفظ (في بضع) دون أن يقال (بعد بضع). [مُعَد الكتاب].

الباب الأول القرآن والسنة وتوثيقهما

الفصل الأول: التعريف بالقرآن.

الفصل الثاني: توثيق القرآن الكريم.

الفصل الثالث: السنة النبوية وتوثيقها.

الفصل الأول: التعريف بالقرآن

١- هو الكتاب الذي أنزله الله علي نبيه محمد ﷺ معجزة يتحدى بها. فهو الكتاب المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه، المصدق لما بين يديه من الكتب السابقة، الجامع لكل محاسنها، والمصحح لما حُرِفَ من آياتها، الخاتم لكتب الله وصحفه المنزلة. سأل أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رسول الله ﷺ: كم كتاباً أنزله الله؟ فقال ﷺ "مائة صحيفة، وأربعة كتب. أنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشرة، وعلى موسى قبل التوراة عشرة" (١).

والكتب الأربعة هي التوراة والزبور والإنجيل و القرآن، وقد ذكر القرآن الكريم أن من الصحف المنزلة صحف إبراهيم وموسى كما جاء في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [آخر سورة الأعلى].

٢- والقرآن الكريم يسمى بأسماء كثيرة أشهرها أربعة: القرآن - الكتاب - الفرقان - الذكر. وهذه الأسماء الأربعة تنبئ عن أهداف نزوله:

أ- فالقرآن يُقرأ ويُتَعَبَدُ بتلاوته. كما جاء في رواية عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة واحدة، والحسنة بعشر أمثالها." (٢)

ب- والقرآن فرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل، ويوضح ملامح الحق وتفصيل الهدى، قال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [أول سورة الفرقان].

ج- والقرآن هو الكتاب الذي فَضَّلَ على سائر الكتب. قال تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [أول سورة البقرة]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [سورة المائدة آية ٤٨].

د- والقرآن هو الذكر المبين، أنزله الله ليتذكر به عباده عظمة الله، وعظمة صنعه في خلقه. قال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص آية ٢٩]. وكما كان القرآن ذكراً وتذكيراً. كان كذلك هدايةً لأهله، ورفعاً لشأنهم، ونشراً لأمرهم. قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [سورة الزخرف آية ٤٤].

(١) تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" عند تفسير آية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الحديث أخرجه الحسين الاجرى وأبو حاتم البستي.

(٢) جزء من حديث الترمذى: فضائل القرآن: ٢٩١٠ وقال حديث حسن صحيح والدرامى: ٣٣٠٨

٣- وقد ثبت إعجازه بتحديه للعرب^(١). وهم في مرحلة من الزمن كانوا أبلغ الناس بياناً، وأقدرهم في تمكنهم من لغتهم وبلاغتها وفصاحتها وقدرتها على الأداء، فتحداهم أولاً أن يأتوا بمثله. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [سورة الطور آية ٣٤]، فعجزوا عن ذلك، فترفق بهم وطالبهم أن يأتوا بعشر سور مثله. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [سورة هود آية ١٣]. فعجزوا كذلك، فتحداهم أن يأتوا بسورة مثل سوره حتى ولو كانت أقصر سوره ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [سورة يونس آية ٣٨]. فعجزوا كذلك.

فلما ثبت عجزهم أعلن القرآن إعلاناً واضحاً تسمعه الدنيا أن الخلائق كلها من إنس وجن لاتستطيع أن تأتي بمثل شيء من هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء آية ٨٨].

* * *

(١) التحدى إنما وقع للإنس دون الجن. لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى الذى جاء القرآن على أساليبه. وإنما ذكروا فى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ [سورة الإسراء آية ٨٨] تعظيماً لإعجاز القرآن، لأنه إذا فرض اجتماع الإنس والجن، وظاهر بعضهم بعضاً وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز. (كتاب "مباحث فى علوم القرآن - مناع القطان - مكتبة وهبة - هامش ص ٢٥١). [معد الكتاب]

التعريف بالقرآن

من القرآن - من السنة - من الجن - من البشر

المبحث الأول: التعريف بالقرآن من القرآن

قال الله تبارك وتعالى:

١- ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[سورة الواقعة الآيات ٧٥ - ٨٠].

٢- ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

[سورة الحشر آية ٢١].

[سورة الإسراء آية ٩].

٣- ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

٤- ﴿وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الإسراء آية ٨٢].

[سورة يوسف آية ٢].

٥- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[سورة البقرة آية ٢].

٦- ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾

[سورة الحجر آية ٩].

٧- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

المبحث الثاني: التعريف بالقرآن من السنة

ماذا قال الرسول ﷺ عن القرآن الموحى به إليه؟

١- عن النواس بن سمعان ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران... تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا". [مسلم: مسافرين: ٨٠٥ وأحمد: ٤ / ١٨٤، ٥ / ٣٦١].

٢- عن عثمان بن عفان ؓ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه". [البخاري: فضائل القرآن: ٥٠٢٧ والترمذي: ٢٩٠٩ وغيرهما].

٣- عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة. والذي يقرأ القرآن ويتتبع فيه وهو عليه شاق له أجران". [مسلم: مسافرين: ٧٩٨، وابن ماجه: ٣٧٧٩ وغيرهما].

- ٤- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين". [رواه مسلم: مسافرين: ٨١٧، وابن ماجه: ٢٠٨].
- ٥- عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في الحق آناء الليل والنهار". [أحمد: ٩ / ٢ : ٤٥٥٠ صحيح].
- ٦- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب". [رواه الترمذی: فضائل القرآن: ٢٩١٣ وقال حديث حسن صحيح والدرامی: ٣٣٠٦ وغيرهما].
- ٧- عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تعاهدوا هذا القرآن. فوالذي نفس محمد بيده هو أشد تفلناً من الإبل في عقلها". [مسلم: مسافرين: ٧٩١ والدرامی: ٣٣٤٧ والبخاری: ٥٠٣٢ نحوه].
- ٨- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة". [أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن: ٤٩٨١، مسلم: إيمان: ١٥٢].
- ٩- عن علي رضي الله عنه فيما رواه الترمذی قال ^(١) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ستكون فتن كقطع الليل المظلم. قلت يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال كتاب الله تبارك وتعالى. فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره، أضله الله. هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق علي كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته إلا أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً .. ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم. خذها إليك يا أعور" (أعور لقب الحارث بن عبد الله هو الذي روى الحديث عن علي رضي الله عنه).

* * *

(١) الترمذی: فضائل القرآن: ٢٩٠٦ والدرامی: ٣٣٣١ نحوه.

المبحث الثالث: التعريف بالقرآن من الجن

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الأحقاف الآيات ٢٩ - ٣٢] وصدقت الجن فيما قالت.

* * *

المبحث الرابع: التعريف بالقرآن من البشر

أ- قال الشيخ محمد الغزالي في كتابه "رسالة القرآن" (ص ٣): "تنتشر بين الناس كتب كثيرة. والناس يقبلون عليها ببواعث شتى. ومن حق أى إنسان أن يدع هذا الكتاب جانباً، ويأخذ هذا بذلك. بيد أن هناك كتاباً قد استجمع من حقائق الأزل. واستوفى من هدايات الأرض والسماء. واستوقد من منازل الفكر والضمير. واستوفى من صميم الأنفس والجماعات ما لم يعرف ولن يعرف لكتاب آخر.. ذلكم هو القرآن الكريم. ذلك الكتاب. أما ماعده فلا يذكر بجانبه إلا تجوزاً".

ب - قال الإمام البوصيري:

الله أكبر إن دين محمد
ولا تذكروا الكتب السوالف عنده
وكتابه أقوى و أقوم قبلا
طلع الصباح فأطفاً القنديلا

ج - وقال شوقي:

بك يابن عبد الله قامت سمحة
الله فوق الخلق فيها وحده
بالحق من ملل الهدى غراء
و الناس تحت لوائها أكفاء

د - وقال الأستاذ عبد الرحمن الباني من علماء الشام: "أما بعد فأبى شيء أعظم من هذا القرآن.. تلك المعجزة الكبرى الخالدة الباقية علي مر الدهور والعصور.. يخاطب كل ذي عقل من بني آدم.. ويقدم الحجة الغالبة على كل مُعْرِض عنه. وهو معجز في لغته وبيانه، ومعجز في أحكامه وتشريعاته، ومعجز في مضمونه، ومعجز في أخباره الماضية، وفي أنبائه المقبلة، وحوى الفكر الذي يعجز أن يرتقي إلى مستواه كل إنسان، وأن يتربى عليه كل ناشئ في أي جيل وزمان".

هـ - شهادة عالم مسيحي منصف ثبتها من خلال كتابه القيم في طبعته الأولى بعنوان: "الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة"^(١) والذي نشره بعد ذلك تحت عنوان "القرآن والتوراة والعلم" بقلم موريس بوكاي. ونقتطف منه هذه الشهادة:

يقول المؤلف ص ٩: "ولكني لن أعالج هنا إلا جانباً واحداً من الموضوع. وهو دراسة الكتب المقدسة نفسها في ضوء المعارف العلمية الحديثة. غير أن القصد من هذه الدراسة يفرض سؤالاً أولياً لكنه أساسى: ما القيمة الصحية لهذه النصوص التي في حوزتنا اليوم؟ وذلك يعنى بالضرورة أن ندرس الظروف التي سادت تحرير تلك النصوص وانتقالها إلينا".

ويقول ص ١٠: "وهناك فرق آخر جوهري بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة. ونعنى بذلك فقدان نصوص الوحي الثابت لدى المسيحية، في حين أن الإسلام لديه القرآن الذي هو وحي منزل و ثابت معاً".

ويقول ص ١٢: "لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم. وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة (باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث). وكنت أعرف قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى، استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث".

ويقول المؤلف ص ١٣٩: "وإذن فإذا كان ممثلو كل من العالمين المسلم والمسيحي على أعلى المستويات يتفاهمون بهذه الكيفية في إخلاصهم لرب واحد، وفي احترامهم المتبادل لاختلافهم، ويتفقون على إقامة حوار دينى، أليس طبيعياً والحال هذه أن تقام المقابلات بين مختلف جوانب الكتب المقدسة؟"

"إن موضوع المقابلة هنا هو دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعطيات العلمية والمعلومات المتعلقة بصحة النصوص. ويجب أن تقام هذه الدراسة على القرآن مثلما تم ذلك بالنسبة للتوراة والإنجيل".

ويقول ص ١٤٤: "لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتى العميقة في البداية. فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع، ومطابقة تماماً للمعارف الحديثة، وذلك في نص

(١) الناشر: الفتح للإعلام العربى (بدون تاريخ).

كتاب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً.. في البداية لم يكن لي أى إيمان بالإسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة. وإذا كان هناك تأثير ما قد مورس فهو بالتأكيد تأثير التعاليم التي تلقيتها في شبابي، حيث لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أن المعنى به دين أسسه رجل وبالتالي فهو دين عديم القيمة".

"وإذا كنت قد توصلت إلى إدراك زيف الأحكام الصادرة عامة في الغرب عن الإسلام فإنني مدين بذلك إلى ظروف استثنائية."

"وعندما استطعت قياس المسافة التي تفصل واقع الإسلام عن الصورة التي اختلقناها عنه في بلاد الغرب، شعرت بالحاجة لتعلم اللغة العربية التي لم أكن أعرفها. وذلك حتى أكون قادراً على التقدم في دراسة هذا الدين الذي يجهله الكثيرون. كان هدفي الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة بجملة، مستعيناً بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية. وتناولت القرآن منتبهاً بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظواهر الطبيعية..."

"إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنساني. وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة، لانكتشف في القرآن أى خطأ. وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنساناً، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما تضح أنه يتفق مع المعارف العلمية الحديثة؟"

ويقول ص ١٤٧: "ولقد بحثت أيضاً عما إذا كان في القرآن إشارات إلى ظواهر يسهل على الإدراك البشري فهمها، وإن لم تكن البشرية قد تلقت بعد تأكيداً من العلم الحديث، ومن هذه الناحية أعتقد بأن القرآن يحتوي على إشارات بوجود كواكب في الكون تشبه الأرض. وينبغي ألا ننسى أن كثيراً من العلماء يرون هذا الأمر معقولاً تماماً دون وجود معطيات حديثة قادرة علي إعطاء أقل تأكيد بهذا".

"إن المقابلة بين الكتب المقدسة والعلم تستعين بمعلومات تتصل بالحقيقة العلمية، وذلك بالنسبة للتوراة والإنجيل والقرآن. وحتى تكون هذه المقابلة ذات قيمة يجب أن تكون الحجة العلمية المعتمد عليها ثابتة تماماً، وألا تكون محل جدال. إن الذين يتدمرون ويماطلون في قبول تدخل العلم في عملية تقويم الكتب المقدسة، ينكرون أن العلم يستطيع ان يشكل مقياساً في مقارنة ذات قيمة. (سواء كان المعنى التوراة والإنجيل اللذين لا يجتملان المقارنة بلا

- خسارة. وقد رأينا دواعى هذا، أو القرآن الذى لا يخشى عليه منها)."
- من هذه الشهادة وصل المؤلف إلى إثبات حقيقتين هما عند المسلمين مسلمتان لا نزاع فيهما ولكنهما عند غيرهم مرفوضتان، وهاتان الحقيقتان هما:
- ١- ليس هناك نص من النصوص المقدسة يمكن أن ننسبه إلى الله بيقين وصدق. إلا النص القرآنى.
 - ٢- إن نصوص القرآن التى تتحدث عن الظواهر الطبيعية تستقيم مع المعطيات العلمية المعاصرة دون أى اضطراب. والقرآن غنى بالنصوص التى تتحدث عن الخلق والكون والإنسان والحيوان، مع وضوح فى العبارة واستقامة فى المنهج والفكر.

* * *

المبحث الخامس: القرآن المكي والقرآن المدني

والقرآن المكي يختلف عن القرآن المدني في حجمه وأسلوبه وموضوعاته. فالقرآن المكي يقترب من ثلثي القرآن. والقرآن المدني يزيد عن ثلث القرآن قليلاً. وهما في نسبة بعضهما إلى بعض: المدني ١١ جزءاً من ثلاثين، والمكي ١٩ جزءاً من ثلاثين. وسور القرآن المدني طويلة أو متوسطة الطول. واختص القرآن المدني بالسور السبع الطوال التي تشتمل علي عشرة أجزاء، أي ثلث القرآن، من البقرة حتى نهاية سورة التوبة.^(١) وأما القرآن المكي فسوره كثيرة ولكن معظمها يميل إلى القصر أو التوسط، ومنها من الطوال شيء. ولكن فيها سورة مكية من تسعة أرباع، وهي سورة الأنعام. وعدد سور المدني عشرون سورة. متفق على أنها مدنية. وعدد سور المكي اثنتان وثمانون سورة.

وعدد السور المختلف عليها بين المكي والمدني ١٢ سورة وهي:

- ١- الفاتحة ٢- الرعد ٣- الرحمن ٤- الصف ٥- التغابن ٦- المطففين
٧- القدر ٨- البينة ٩- الزلزلة ١٠- الإخلاص ١١- الفلق ١٢- الناس.

وهذه السور المختلف عليها، يرى كثير من علماء التنزيل أنها مدنية، يغلب عليها أسلوب القرآن المدني وموضوعاته. فسورتا الصف والتغابن من سور الجزء الثامن والعشرين، وهو جزء كل سوره مدنية تتفق مع موضوعات القرآن المدني. فسورة الصف تبتدئ في مطلعها بالتسبيح وبه تبتدئ ثلاث سور مدنية. والآية الأولى تبتدئ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وهذا النداء لم يوجد في القرآن المكي وإنما هو من خصائص القرآن المدني. كذلك في الآية التالية يقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيَانٌ مَرْضُوصٌ﴾ [آية ٤]. وموضوع القتال مدني. فلم يشرع القتال في مكة وإنما شرع للمسلمين بعد الهجرة بسنتين في غزوة بدر.

وما قلته عن سورة الصف من أنها مدنية، أقوله عن سورة التغابن. فالآيات من أول قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ إلى آخر السورة آيات تتسم بسمات القرآن المدني. وبنفس الطريقة في عرض الموضوعات. وتري هنا في الأسلوب خاصة من خواص القرآن المدني.

و أما "الفاتحة" فقد ثبت نزولها في مكة. كما ذكر ذلك الشيخ محمد عبده في تفسيره، واستدل بأنها وهي فاتحة الكتاب لا يعقل أن يتأخر نزولها فتنزل في المدينة. وقد

(١) هذه عشرة أجزاء و لكن منها سورتي الأنعام و الأعراف و هما مكيتان.

سبق نزول أكثر من ثمانين سورة في مكة. ولذلك قيل "إن لها نزولاً في مكة ونزولاً في المدينة".

ومثل ذلك يقال في "سورة القدر". فقد نزلت بمناسبة ليلة القدر. وكان ذلك في المدينة.

وبقية السور المختلف عليها يغلب عليها أسلوب القرآن المكي وموضوعاته. مثل سورة الرحمن فأسلوبها يتفق مع أسلوب القرآن المكي في قصر الآيات وسهولة الأسلوب وتكرار الفواصل مع تعدد الموضوعات. مثل تكرار آية ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وفي سورة المرسلات تكرار ﴿وَيَلِّ يَوْمئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، وفي سورة القمر تكرار ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾، ومثل ما جاء في سورة الشعراء عند نهاية كل قصة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. فمن أول سورة الرحمن يغلب طابع الآيات المكية من حيث قصر الآيات وتنوع الموضوعات. فهي في ذلك لا تخرج عن موضوعات القرآن المكي إذ تبدأ بحديثها عن الخلق من إنسان وحن وبجر، ثم حديثها عن أنواع الخلائق من كافرين لهم عذاب ومؤمنين لهم ثواب، ولمن خاف مقام ربه جنتان، ومن دونهما جنتان مدهامتان للمؤمنين الذين أقل درجة من الذين خافوا مقام رهم. وليس هذا أسلوب الآيات المدنية، وليست موضوعاته موضوعات القرآن المدني التي تميز بها القرآن المدني. وبقية السور - التي يقال إنها مختلف علي مكيتها أو مدنيها - نستطيع أن نجعلها في القرآن المكي لوجود التوافق بينهما وبين خصائص القرآن المكي. وهذا ما يجعلنا نذكر شيئاً من خصائص كلٍّ من القرآن المكي والمدني كما ذكرها علماؤنا السابقون.

خصائص القرآن المكي في أسلوبه وموضوعاته:

١- قصر السور: فأنت تجد جزءاً واحداً هو الجزء الأخير الذي أوله سورة النبا رقم ٧٨، بينما آخر سورة في هذا الجزء وهي سورة الناس رقمها ١١٤. فيكون جملة سور هذا الجزء ٣٧ سورة معظمها مكية. وقد بينت أن بعض هذه السور المختلف عليها تحمل طابع القرآن المكي وبعضها - وهو قليل - يحمل طابع القرآن المدني مثل القدر والبينة.

٢- قصر الآيات: نجده في سورة من سطر واحد فيها أربع آيات مثل سورة الإخلاص. بينما آية واحدة من القرآن المدني تشتمل على اثني عشر سطرًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [سورة البقرة آية ٢٨٢].

٣- كذلك يهتم القرآن المكي بتوضيح العقائد الإسلامية في التوحيد واليوم الآخر وغير ذلك. فنجد سورة كاملة لا تذكر إلا اليوم الآخر مثل سورة الزلزلة. وسورة لا تتحدث إلا عن العقيدة في الله تعالى مثل سورة الإخلاص.

٤- لا تذكر كلمة "كلا" في القرآن المدني. وإنما تذكر بكثرة في القرآن المكي حتى إنها ذكرت في القرآن المكي ثلاث وثلاثون مرة.

٥- السور التي ينادى فيها الخلق "يا أيها الناس" مكية. إلا إذا كان معها في السورة "يا أيها الذين آمنوا". ويستثنى من ذلك سورة الحج فهي يختلط فيها المكي والمدني، وسورة العنكبوت.

٦- كل السور التي تذكر فيها قصة آدم مع إبليس مكية. ماعدا سورة البقرة.

٧- السور التي تبدأ بحروف التهجي "الم - الر - كهيعص - .. إلخ" مكية. ماعدا سورة البقرة وآل عمران.

٨- شدة تأثير الأسلوب في زجر الكفرة، وإبطال عبادة الأصنام فيقسو الأسلوب فيكون كالصواعق في آذان الكافرين.

خصائص القرآن المدني:

١- يكثر فيه النداء: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾.

٢- طول السور وطول الآيات. فسورة البقرة مكونة من جزأين ونصف الجزء، بينما جزء واحد في القرآن المكي يشتمل على ٣٧ سورة، وكذلك يتميز أسلوبها بطول الآيات أو توسطها. كما أن القرآن المدني يشتمل على ٢٠ سورة من عدد سور القرآن الكريم الـ ١١٤. والأربع عشرة هي التي اختلفوا على مكيته أو مدنيته كما ذكرنا. والعشرون سورة المدنية تشتمل على قرابة ثلث القرآن.

٣- تستخرج منه أحكام التشريع في الحياة الاجتماعية والسياسية والمعاملات المختلفة في التجارة والزراعة وأنواع البيع والشراء وغير ذلك.

٤- يفصل الأحكام الشخصية والأسرية والعلاقات بين الزوج والزوجة، وبين الآباء والأبناء والأقارب.

٥- يفصل الفرائض كالصلاة والحج والصيام والزكاة وغير ذلك.

٦- يفصل الحديث عن أهل الكتاب لاسيما عن اليهود. فيذكر أولاً أن القرآن الكريم مصدق لما بين يديه من الكتب السابقة، لأن الله هو الذي أنزله.

٧- يذكر النفاق والمنافقين، والنفاق لا يقوم إلا على الخوف أو الطمع. ولم يكن في مكة ما يستدعي ذلك. ولكن في العهد المدني أصبحت للمسلمين دولة لها قوة ترهب الأعداء، وفيها ما يرجوه الراغبون في الخير. لذلك وجد النفاق في المدينة، وكثر في القرآن المدني الحديث عنه حتى أن سورة في القرآن تسمى "المنافقون". وأصبح الحديث عنه في كثير

من السور حتى أنه في سورة التوبة يبلغ فوق نصف السورة ابتداء من قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾. [سورة التوبة ٤١ إلى قرب نهاية السورة].

ثم يذكر بعد ذلك أنه نزل ليبين لأهل الكتاب كثيراً مما يخفون من الكتاب ويعفون عن كثير. ويفضح ما كان منهم من تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحله الله. يقول الله تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا. وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. [سورة النساء آية ١٦٠-١٦١]. أو يفضح جدالهم بالباطل مثل ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ. لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾. [سورة المائدة آية ٧٧-٧٨].

* * *

استظهرنا ذلك من تلقى القرآن خلال العهد المكي والمدني فسارعنا ببيان الفروق بينهما، حتى يسهل على القارئ معرفة كل منهما أثناء التلاوة. ولا سيما بعد أن خلت المصاحف المطبوعة حديثاً من ذكر أن السورة مكية أو مدنية. وأحياناً لا يكتب رقمها العددي. ونحن الآن في حاجة إلى العودة إلى أصل القضية، وقد كان حديثنا عن تلقى الأمة للقرآن. وقد ذكرنا أن ذلك يعتمد على شيئين:

١- تلقى الرسول ﷺ للوحي وتبليغه للعالم.

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها- إن رسول الله ﷺ كان يتلقى الوحي بشغف ورغبة شديدة، مما كان يجعله يجهد نفسه في أن يردده أثناء نزوله ليلمسك به حتى لا ينسى منه شيئاً. فينزل الوحي يطمئننه أن ذلك ليس من شأنه، وإنما هو من شأن الله تبارك وتعالى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [سورة طه آية ١١٤] ولكن الوحي كان يشتد عليه حتى إنه كان يأتيه في اليوم الشديد البرد فينقسم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً [يتصبب]، فينقسم عنه وقد وعى مقال. وكان ذلك يتكرر كثيراً. فيبلغه لأصحابه ساعة نزوله. ويطلب منهم أن يكتبوه ويحدد لهم موضع الكتابة^(١).

* * *

(١) البخارى - باب بدء الوحي - الجزء الأول. ص ٣ مطابع الشعب.

المبحث السادس: دراسة القرآن الكريم من خلال أمور أربعة

وأنا لا أريد أن أعيد ما كتب، أو أكرر ما استحدثوا من دلائل عظمة القرآن وجمال بيانه و فصاحته و بلاغته، مما امتلأت به الصحف وأصبح ميسراً لمن شاء أن يستزيد.. وقد ألتجئ إلى شيء من ذلك بقدر ما تدعو إليه الضرورة، ولكنى سأوقف حديثي في أربعة أمور:

الأمر الأول: ما انفرد به القرآن الكريم في ثبوته واليقين به عقلاً وحساً، وتاريخياً بشرياً، يلتقي على ذلك الناس جميعاً. ولأخذ لذلك مثلاً، كل مسلم يوقن أن القرآن نزل من عند الله تبارك وتعالى عن طريق جبريل عليه السلام وتلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقته الأمة منه. كل ذلك ثبت بتيقن عقلاً. وصار إنكاره إنكاراً للعقل والمنطق. ولكن الذين لا يؤمنون بالقرآن رفضوا نسبته إلى الله ورفضوا الإسلام وسموا المسلمين المحمدين، وقالوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذى ابتدع هذا الدين.

ولكن هل عرف الناس أن نزول القرآن من السماء إلى الأرض، وتلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقى الأمة له كل ذلك ثبت بطريق المشاهدة الحسية التى انفرد بها القرآن الكريم دون سائر الكتب. فالنزول من السماء إلى الأرض ثبت في حادثة سجلتها المشاهدة ونقلها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أهله وأصحابه فلم يعارض أحد حتى أن السيدة خديجة (رضى الله عنها) بالغت في التصديق وقالت: " إن الله لن يخزيك أبداً"^(١). وأسرع ورقة بن نوفل (ابن عم السيدة خديجة) بعد أن قص عليه رسول الله قصة غار حراء وقال " هذا الناموس الذى انزل الله على موسى... وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً"^(٢).

الأمر الثاني: أن القرآن الكريم نزل مقترناً بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم. ومحمد صلى الله عليه وسلم هو النبي الوحيد من بين سائر الأنبياء الذى بعث في ضوء التاريخ. فلم يسجل التاريخ شيئاً من نزول الكتب السماوية على بقية الرسل والأنبياء السابقين.

الأمر الثالث: أن القرآن الكريم انفرد بين سائر الكتب بأنه الكتاب السماوي الوحيد الذى نزل وتلقاه النبي وتلقته الأمة وكتب وحفظ وجمع في خلال الدولة التى قامت بأمره وفي رعاية جبريل عليه السلام من أول يوم إلى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورعاية رسول الله الذى لم

(١) رواه النسائي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة. ورواه مسلم كذلك (الترغيب والترهيب - دار الأوقاف ص ٥٤).

(٢) رواه البخارى في باب "بدء الوحي" في أول الجزء الأول.

يعرف الكتابة بنفسه، وكان يقول لكتبة الوحي ضعوا هذه الآية في مكان كذا من سورة كذا. كما انفرد القرآن الكريم بأن الصحابة كانوا في أثناء نزوله يكتبون ويحفظون ويعملون بما كتب أو حفظ، وسجل الله ذلك في كتابه العزيز ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سورة العنكبوت آية ٤٩]. كل ذلك في رعاية الدولة التي قامت به وله. ولم يرتفع الرسول إلى الرفيق الأعلى حتى تمت كتابة القرآن آيات وسوراً، وحتى حفظ في صدور كثير من الصحابة، وأصبح المسلمون بعضهم يحفظ القرآن كله وبعضهم يحفظ بعضه.

الأمر الرابع: الذي انفرد به القرآن الكريم أنه كان الباعث والمخرج لأمته من البداوة إلى حياة العلم والتمدن والحضارة. فما أن تلقى المسلمون كتابهم حتى اتجهوا إليه كتابة وحفظاً وعملاً.. ورأوه كتاباً لا يهتم بأمر الآخرة وحدها، وإنما يجعل اهتمامه أيضاً إلى بعث حضارة ومناهج حياة تقوم على الموازنة بين حاجات الحياة وحاجات ما بعد الحياة. وقد بيّن القرآن الكريم أن السبيل إلى ذلك بعد معرفة الله وطاعته إنما هو العلم. وبيّن الكتاب الكريم أن العلم هو أجل ما يتصف به المسلم. ومن أجل ذلك تحولت المساجد إلى دور العلم. يتعلم فيها المسلمون شئون دينهم ودنياهم. وبهذا كان العلم قاعدة الحياة الإسلامية، وكان من القواعد الأصولية "لاجهل في دار الإسلام".

وبدأ المسلمون في تربية أنفسهم وأبنائهم في مدارس العلم التي كان أولها "مدرسة القرآن" التي انتشرت في شرق البلاد وغربها، فصارت للقرآن الكريم مدارس قرآنية كما يقول ابن حزم: "لم يمض أبو بكر وتولى بعده عمر وفتحت الشام ومصر، ولم يبق بلد إلا وقد بنيت فيه المساجد، وقرأ الأئمة القرآن، وتعلم الصبيان في المكاتب شرقاً وغرباً" (١).

كما انفرد القرآن بأنه أخرج أمة في خلال ١٠ سنوات من ضلال الوثنية وآثامها، إلى أمة موحدة تلتقى على الإيمان بإله واحد، وتؤمن بكل مبادئ الغيب التي جاء بها القرآن الكريم من إيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار، كأصفي ماتكون العقيدة. حتى قال علماء الأديان المقارنة إن أنقى صورة للتوحيد هي ما جاء به القرآن الكريم. (٢)

هذا وإني لأدعو الله مخلصاً أن يرجع المسلمون إلى كتاب ربهم دستوراً لحياتهم، ومنهاجاً لنظامهم التعليمي.. والله نعم المولي ونعم النصير.

* * *

(١) ابن حزم في "الفصل بين الملل والنحل". ص ٩٦.

(٢) نقله عن "الوحي المحمدي" - في الوحدات الثماني - وحدة اللغة - رشيد رضا.

الفصل الثاني توثيق القرآن الكريم

المبحث الأول: توثيق نزول القرآن من الله العزيز العليم

القرآن الكريم كلام الله الذي ثبت من خلال صفته الأزلية - كلام الله القديم - ومن خلال ما سجله اللوح المحفوظ أو الكتاب المكنون. ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الواقعة الآية ٧٧-٨٠].

ويقوله تعالى في آخر سورة البروج ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ وهو كذلك الكلام الرباني المنزل من قبل الله تبارك وتعالى بطريق الوحي الخاص به، وهو الوحي الذي يقوم به جبريل عليه السلام من بين الملائكة.

وقد ثبت القرآن ثبوتاً قطعياً لا يحتمل شكاً ولا ريباً، ولم يماثله كتاب من الكتب التي بين أيدي الناس أو الكتب السابقة. فقد كان ولا يزال ثبوتاً تواترياً، يعطى القطع والتصديق الكامل بصحته، وصحة كل ما فيه. لأنه الكتاب الوحيد في العالم بعد الاستقراء والبحث الذي صح نقله منذ اللحظة الأولى نقلاً تواترياً (أي ينقل جموع عن جموع يستحيل اتفاقها على الكذب). فقد ثبت تلقيه عن رسول الله ﷺ بتلق ظاهر لا خفاء فيه، فنقله جمهور الصحابة منذ نزوله. ثم تواتر الجموع تنقل عن الصحابة حتى يومنا هذا.

وقد ثبت نقله بالطريقين الوحيين لصحة النقل التواتري، (الكتابة والحفظ) فنقل في الصحف منذ لحظات نزوله. فقد كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه آية دعا بعض كتبة الوحي، فقال لهم اكتبوا هذه الآية في مكان كذا من سورة كذا.

وكتب القرآن الكريم كله في الصحف في عهد رسول الله ﷺ. وأثبت القرآن ذلك: ﴿ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً. فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ [سورة البينة آية ٢-٣]

وكما نقل بهذه الطريقة الكتابية حتى أصبح بعد ذلك مصحفاً، نقل أيضاً بطريقة الحفظ في الصدور. وقد ثبت ذلك بالوحي المنزل. ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [سورة العنكبوت آية ٤٩].

وقد صح أن أصحاب رسول الله ﷺ كانت لهم مصاحبة للقرآن واعتناء به حفظاً وتلاوةً وعملاً. روى عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا إذا حفظوا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يحفظوها ويعملوا بما فيها حتى قالوا: فقد تعلمنا العلم والعمل جميعاً.

ولم ينته عهد النبوة حتى كان كثير من الصحابة يحفظ القرآن كله ولا يوجد أحد منهم إلا ومعه قدر من القرآن الكريم يتعبد به. ومن هؤلاء الحفظة للقرآن الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وابن مسعود وغيرهم كثير.

لقد كان القرآن معجزة متميزة لرسول الله ﷺ. تميزت عن سائر معجزات الأنبياء قبله فقد كانت معجزاتهم كلها حسية. وهي المناسبة للإنسانية في طفولتها. فلما اقتربت الإنسانية من النضج جاءت هذه المعجزة عقلية لسببين:

الأول: لكي تخلد وتبقى علي مدي الأزمان والعصور إذ لو كانت حسية لانتهدت بانتهاء وقتها. لذلك هي معجزة خالدة، لدين خالد، يبقى مادامت الحياة.

والثاني: لتخاطب الإنسان في أشرف تكوينه وهو العقل. الذي لا يختلف من أمة إلى أمة، ولا من عهد إلى عهد. وبذلك تكون مناسبة لعموم الإسلام وخلوده، ومناسبة للعالمين مع تعدد أجناسهم وأعرافهم.

ولم يحظ كتاب إلهي أو غير إلهي بمثل ما حظي به القرآن الكريم من تلاوة مؤثرة، ولا بحفظ في الصدور. حتى أن هذا الحفظ سجله القرآن الكريم [سورة العنكبوت آية ٤٩]. وقد يسر الله حفظه وتقسيمه، وجعله كتاباً يقرأ من الصدور، قال ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى: "إني مبتليك ومبتل بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً" (١)

وهذا الحفظ وحسن الترتيل اهتم به السلف الصالح كصفتين تميز بهما القرآن عن غيره. فقد روت عائشة رضی الله عنها عن رسول الله ﷺ "الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة والذي يقرأ ويتتبع فيه وهو عليه شاق له أجران" (٢).

وحض رسول الله ﷺ المؤمنين على مداومة اهتمامهم بالقرآن وحفظه، فقد روى أبو موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: "تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفسي بيده هو أشد تفلاً من الإبل في عقلها". (٣)

وكما حرص رسول الله ﷺ على تعاهد القرآن ومتابعة حفظه حرص على حسن تلاوته. كما جاء في القرآن الكريم ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [سورة المزمل آية ٤]. ودعا

(١) جزء من حديث رواه مسلم: الجنة: ٢٨٦٥. وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) سبق تخريجه

(٣) سبق تخريجه.

المسلمين إلى تحسين أصواتهم في تلاوته. كما جاء في الحديث الذي رواه البراء بن عازب وأخرجه أبو داود والنسائي: "زينوا القرآن بأصواتكم".^(١) وكما قال رسول الله "ليس منا من لم يتغن بالقرآن"^(٢) (على خلاف في معنى يتغن عند علماء الترتيل). وقد روى أن رسول الله سمع أبا موسى الأشعري يقرأ بصوت جميل فقال رسول الله: "لقد أوتيت مزمراً من مزامير داود".^(٣)

والقرآن الكريم نزل في ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة في مكة وعشر سنوات في المدينة. وقد حدد العلماء أن ما نزل قبل الهجرة مكّي، وما نزل بعد الهجرة مدني حتى لو نزل في مكة أو قريباً منها.

وقد اهتم المسلمون بقرآنهم. فكما أحصوا عدد سوره وأجزائه وأحزابه أحصوا كذلك عدد آياته وعدد كلماته بل عدد أحرفه. وبجوار اهتمامهم هذا كان اهتمامهم الأكبر بوعيه وفهمه والعمل به والتدبر فيه استجابة لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص آية ٢٩].

١- وذلك أن رسول الله دعا المسلمين إلي تعلم القرآن والعمل به. روى البخاري في صحيحه: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"^(٤). وفي رواية ابن عمر في الصحيحين "لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق آناء الليل والنهار"^(٥). متفق عليه.

٢- وجعل الله تلاوته عبادة. كما سبق في حديث ابن مسعود "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة. والحسنة بعشر أمثالها... " الحديث^(٦).

٣- وقد قال رسول الله ﷺ فيما روى الترمذي عن ابن مسعود: "إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم".^(٧) وقد تسابق المسلمون في تلاوة القرآن حتى كانت المساجد تدوى بأصواتهم كدوي النحل. وكانت بيوتهم تتغن بالقرآن. كما تسابقوا في مجالس ذكره والاهتمام بالعمل به. وجعله أساساً للتعليم. وتحسين خطوطهم. فقد وصلت

(١) ذكره القرطبي في مقدمة تفسيره ص ١١ الجزء الأول طبعة دار الكتب.

(٢) البخاري: التوحيد: ٧٥٢٧ وأبو داود: ١٤٦٩ والدرامي: ١٤٩٠ وغيرهم.

(٣) البخاري: فضائل القرآن: ٥٠٤٨ ومسلم: مسافرين: ٧٩٣

(٤) سبق تخريجه

(٥) أحمد: ٩/٢: ٤٥٥٠ صحيح.

(٦) جزء من حديث الترمذي: فضائل القرآن: ٢٩١٠ وقال: حسن صحيح. والدرامي: ٣٣٠٨.

(٧) الجامع الصغير: ٢٥١٣ ضعيف ونحوه عند الدرامي برقم: ٣٣٢٢

خطوطهم في جمالها الفنى إلى ما تراه اليوم.

٤- والقرآن في حياة الناس - كما هو عقيدة - هو شريعة وأحكام. فلا يزالون بخير ما احتكموا إليه وعرضوا حياتهم على آيه وأحكامه. قال تعالى: ﴿ أَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ ﴾ [سورة المائدة آية ٤٩] وقال تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [سورة النساء آية ١٠٥].

٥- وجعل في الالتزام بأوامره ونواهيه سعادة الدنيا. قال تعالى: ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [سورة طه آية ١٢٣]. وجعل الضياع والفساد والضلال في الإعراض عنه. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [سورة طه الآيات ١٢٤-١٢٦].

ومن معطيات التاريخ أن المسلمين عندما تمسكوا به دانته لهم الأرض وأعطاهم الله مشارقتها ومغاريها. قال تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾. [سورة النور آية ٥٥].

* * *

مدى عناية المسلمين بكتاب ربهم:

عنى المسلمون بكتاب ربهم عناية فائقة لم يحظ بها كتاب قبله أو بعده. فبعد أن نزل القرآن الكريم وتلقاه النبي ﷺ وتلقته الأمة. وتم تلقيه وكتابته وجمعه بإرشاد جبريل عليه السلام، وبأمر نبيهم ﷺ الذى كان يحدد مكان السورة والآية.. لا على ما ألف الناس من ترتيب السور بترتيب نزولها وبحسب ما أوحى الله به. ومن أجل ذلك نجد ست سور من السبع الطوال في أول المصحف وهى سور مدنية "البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة) نزلت بالمدينة بعد ثلاث عشر سنة، بينما نزل قبلها أكثر من ثمانين سورة في مكة. وعندما سئل ربيعة الرأى عن ذلك، قال: "إنما قدمنا وألَّف القرآن على علم ممن ألَّفه. وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه.. ولا يُسأل عنه"^(١).

وبعد أن تلقى المسلمون كتاب ربهم اهتموا بكتابته ومدارسته وحفظه والعلم بما جاء به. وكانوا يتبارون ويتسابقون في مساجدهم وبيوتهم في كل ذلك. ثم اتجهوا إلى تعلم الكتابة

(١) راجع مقدمة تفسير القرطبي ص ٥٢ ط الشعب.

حتى يكتبوا كتاب ربهم بسلامة وإتقان. فحاول كثير منهم كتابة ما حفظ من القرآن لتستقيم عبادته وفهمه لدينه. فنشأ عن ذلك "علم الخط" الذي استمر في تركيبه وتطويره حتى أضحى الخط فناً من فنون الجمال والإتقان، وتنوع الخط إلى أنواع كثيرة بعد ذلك.. فمن خط "النسخ" الذي تكتب به الكتب، وتنسخ به المصاحف، إلى خط "الرقعة" الذي تكتب به الرقاع والرسائل.. إلى خطوط الجمال من ثلث وفارسي.. وغيرها.

ثم بدأ اللحن في الظهور منذ عصر الصحابة. فقد جاء أعرابي فتلى قول الله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [سورة التوبة آية ٣]. فقرأها الأعرابي بعطف كلمة (ورسوله) على كلمة (المشركين) فصار المعنى (أن الله برىء من المشركين ومن رسوله).. وبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فدعا أبا الأسود الدؤلي، وأمره أن يضع قواعد النحو. وما زال العلماء يتدارسون قواعد النحو - طوال القرنين الثاني والثالث - حتى أصبح علماً، وتفرع إلى مذاهب متعددة.

وكما اهتم المسلمون بكتابة كتاب ربهم وإعراجه، اهتموا بفهمه وإدراك أسرارهِ ومعانيهِ، فنشأ علم الفقه الذي بدأ فردياً في القرن الأول وأوائل القرن الثاني. وقبل أن يأتي القرن الثالث نشأت مذاهب متعددة، لكل منها اتجاه حول فهم النص بحسب اجتهادهم. فهذا يهتم بالحديث وذاك يهتم بالنص، وجعل الرأي حول النص تابعاً، وما زالت هذه المذاهب يلتفت حولها المسلمون ويعملون بما انتهت إليه، ولا يختصمون حولها إيماناً منهم بأن السلف الصالح في اجتهادهم إنما كانوا يعملون وهم يبتغون وجه الله والوصول إلى الحق. وتتابع المسلمون في عنايتهم بالقرآن، ورأوا أن علوم القرآن لكي تكتمل لا بد أن يضاف إليها علوم الحديث والسنة. فكما نشأت علوم القرآن منذ القرن الأول، نشأت علوم السنة كذلك منذ أوائل نفس القرن.

وتتابعت العلوم المتصلة بالقرآن والسنة. ولما كان القرآن يتعرض كثيراً لعلوم الكون في آياته.. فهو يتحدث عن طبيعة الإنسان وخلقهِ، وعن الكون من سماوات وأراضين، وعن السحب والماء والهواء، وعن الإنس والجن والملائكة، وعن الأنعام والكائنات الخادمة للإنسان.. نشأت علوم الحياة.. من فلك ورياضة وطب وهندسة وكيمياء. وبرع في ذلك علماء أضاءوا الدنيا بعلمهم.. وأشرقوا بنور ربهم على مشارق الأرض ومغاربها.

وكما اهتم المسلمون بالقرآن الكرم في علومهِ المختلفة كما سبق، اهتموا به في ذاته وحججه وشكله، حتى لم يبق في القرآن الكريم خاف عليهم.

حدثوا أن الحجاج بن يوسف الثقفي جمع القراء والحفاظ والكتاب. فقال أخبروني عن القرآن كله.. كم من حرف هو؟ وروى سلام أبو محمد الجماني - وكان فيهم - قال

فحسبنا فأجمعنا على القرآن الكريم في ٣٤٠٧٤٠ حرفاً (ثلاثمائة وأربعون ألفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً)^(١). وهذا يخالف قول عبد الله بن كثير في حسابه حروف القرآن.

وأما عدد آياته فيقول الكوفيون هي ٦٢٣٦ آية (ستة آلاف ومائتان وستة وثلاثون آية). والأقوال الأخرى قريبة من ذلك. متفقون على ٦٢٠٠ وكسر، ومختلفون على الكسر.

وأما عدد كلماته فهي ٧٧٩٣٤ كلمة (سبعة وسبعون ألفاً وتسعمائة أربعة وثلاثون كلمة).

* * *

(١) راجع ذلك في مقدمة تفسير القرطبي ص ٥٥.

جمع القرآن

لا يمكن إثبات كيفية نزول الكتب المقدسة:

عجيب أمر هذا القرآن الكريم!.. إذ كلما جئنا نتحدث عن شأن من شعونه، وجدناه ينفرد فيه عن سائر الكتب المقدسة وغير المقدسة. فإن تحدثنا عن نزوله، لم نجد كتاباً مثله في النزول. إذ لا يمكن إثبات كيفية نزول كتاب من هذه الكتب المقدسة.

● ففي التوراة ذكر أن موسى عليه السلام واعدته ربه أربعين ليلة. وفي هذه المواعدة قال تعالى ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأَرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة الأعراف آية ١٤٥].

وهذه الألواح.. أهى التوراة؟ إن كانت هي.. فأين المجهود المعجز في كتابتها؟. وأين الإثبات التاريخي البشري في نزولها؟ إنا لا نجد ذلك في التوراة. وقد قال الناس ما قالوا في صحة التوراة. ولولا أن الله أخبرنا عن هذه الألواح ما عرفنا عنها شيئاً.

ومع أننا نؤمن أن الألواح كتبت من عند الله، لكننا لا نعرف كيف تلقت بنو إسرائيل هذه الألواح، وكيف نقلت إلى الحياة. هذا ما لانجده إلا مع القرآن الكريم دون غيره من الكتب المنزلة.

● وهذا عيسى عليه السلام نبي الله ورسوله غادر الدنيا، وليس هناك إنجيل مكتوب يقرأ أو يحفظ، كما نزل على عيسى عليه السلام. بل لا توجد نسخة من الإنجيل الذى نطق به عيسى بلغته التى بشر بها. فهذه الأناجيل التى ظهرت بعده نقلاً منقطعاً عن المسيح إلى أن كتبت فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى. و اختيرت الأناجيل الأربعة من أكثر من سبعين إنجيلاً منقطعة الاتصال بالمسيح. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [سورة إبراهيم آية ٤]. وقد كان عيسى عليه السلام يتكلم بالعبرية وأحياناً بالآرامية.

فعيسى عليه السلام كان يبلغ قومه باللغة العبرية وإذا كان قد بلغ إنجيلاً، فلا بد أن يكون هذا الإنجيل باللغة العبرية. فأين هذا الإنجيل؟ والإنجيل الذى تستند إليه الأناجيل التى انتشرت بعده كلها تستند إلى أصول يونانية. فأين النص الأصيل وهل يتفق مع هذه التراجم؟ وأنا اهتم فى كل ما كتب عن القرآن الكريم بأمرين لا أجدهما في غيره وهما:

١- أن القرآن الكريم موثق توثيقاً علمياً وتاريخياً وبشرياً.

٢- أن القرآن - مع الاقتناع بوروده وروداً تواترياً منفرداً عن غيره من الكتب والصحائف - سواء في ذلك نزوله بطريقة تلقى الوحي من رسول الله، وتلقى الأمة للنص. مشافهة عن رسول الله واتجاه الأمة، بعد التلاوة إلى الحفظ والعمل به والأخذ عنه.

هذا ما أقصده وأجهد نفسي في إثباته والاهتمام به. فأنا إذا تحدثت عن جمع القرآن لا أقصد بذلك جمع الروايات والأسانيد التي تؤيد ذلك.

وإنما الذى يهمنا أن نثبت في كل شأن من شئون القرآن صدقه وثباته والانفراد الذى اختص القرآن به عن سائر الكتب.

فجمع القرآن الكريم الذى نعنيه يقتضى أن نثبت أنه منذ اللحظة الأولى كان الجمع بأمر الله ورعايته:

١- فالله بعلمه وحكمته هو الذى أنزله. ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. [سورة النحل آية ٤٤].

٢- والله الذى أقرأه لنبيه، وعلمه تلاوة منفردة ربانية ليست كسائر القراءات. ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [سورة القيامة آية ١٨] أي فاتبع قراءته الخاصة بالقرآن.

٣- ثم إن الله وحده هو الذى تكفل بجمعه كتاباً وتلاوة وحفظاً. ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [سورة القيامة آية ١٧] فالقرآن الكريم انفراد بين سائر الكتب بأن الله حافظه جمعاً وقراءة وكتابة. قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر آية ٩]، ولم يتعهد بذلك بالنسبة للكتب السابقة المنزلة من عنده. بل بيّن نزولها وترك أمر حفظها للمؤمنين بها. قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ أَنْزَلْنَا بِهَا الْقُرْآنَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَلْبَابًا ﴾ [سورة المائدة آية ٤٤].

٤- وتكفل الله أيضاً بتوضيحه وبيان معانيه. فقد جعله الله قرآناً وحيماً يقوم به جبريل عليه السلام وجعله لنبيه وحيماً لبيّنه ويوضحه للناس. ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل ٤١] ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [الآيات الأولى من سورة النجم]. وكما بينا سابقاً أن القرآن كما نزل من عند الله بُيّن وفُسر بوحي من الله إلى نبيه. فالانفراد الذى نتحدث عنه. والسبق فى النزول وفى التلقى وفى الكتابة وفى الحفظ نجد فيما يأتى ما يؤكد ذلك من واقع الجهد البشرى.

فالقرآن الكريم ينزل على رسول الله فيقرؤه، ويتعلم بيانه، ثم يتلوه على أصحابه،

ليسجلوه وليحفظوه.

وقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ يستطيعون الكتابة علي قدر الطاقة. منهم علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت وأبي بن كعب. وكان يلقي إليهم الرسول ﷺ الآية أو السورة التي نزلت، ويأمرهم بكتابتها في مكانها الذي يحدده رسول الله بإرشاد من جبريل ﷺ ومتابعة منه ﷺ. وقد يتكون التنزيل من سورة أو بعض آيات أو آية واحدة أو كلمة واحدة، توضع في مكانها بين كلمات الآية. كما رأينا في حادثة عدى بن حاتم الطائي عندما اختلط عليه ضوء النهار وضوء الليل فأخطأ في معرفة وقت السحور. وأخطأ في فهم الخيط الأبيض والخيط الأسود. والمراد بهما ضوء النهار وظلام الليل. فعرفه الرسول ذلك وكانت الآية ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾، فأنزل الله تبارك وتعالى: كلمة "من الفجر" لتكون الآية هكذا ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [سورة البقرة آية ١٨٧]. وكلمة "الفجر" للاحتراس كما يقول علماء البلاغة.

فكان هؤلاء الصحب الكرام يسجلون ما ينزل من القرآن كما يأمرهم رسول الله ﷺ بإشراف جبريل ﷺ. من هنا كان العجب وكان الإعجاز وكان الانفراد الذي يتميز به القرآن الكريم.

فلم نجد في دنيا الناس أن قوماً عهد لهم بالكتابة المنظمة - وليس لهم خبرة في التوبيخ والترتيب (سكرتارية) - أن يقوموا بعمل ضخم كهذا ثلاثاً و عشرين سنة. فلا يختل منهم العمل لا في النظم ولا في الترتيب للسورة والآيات، كل ذلك لم يخضع للهوى البشرى. وإنما كان توثيقاً لا اجتهاد فيه.

ومما يدل على أن الأمر هو إعجاز رباني وانفراد في طريقة الكتابة والجمع، انفراد به القرآن بوحى من الله. أن سورة مثل سورة البقرة استمر نزوها عشر سنوات هي أول ما نزل في العهد المدني، وآياتها الأخيرة آخر ما نزل من القرآن وهي آيات الأموال. أنت إذا قرأتها تجد سرداً محكماً لموضوعاتها وأحكامهما لا يختلط بعضها البعض، وتدرك أن كل آية من آياتها تحمل الطابع المدني لأسلوب القرآن.^(١)

فأى قدرة للكتابة كان كل حظهم من قواعد السكرتارية، مجرد معرفة قدر من (فك الخط). ولكنها قدرة الله هي التي يسرت وكتبت ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [سورة الأنفال آية ١٧].

(١) انظر تفسير سورة البقرة كاملة في كتاب "النبا العظيم" للدكتور محمد عبد الله دراز، وتوضيح ذلك. [معد الكتاب]

ثم مثل آخر نضريه من سورة الأنعام: وهى سورة مكية من أولها إلى آخرها، نزلت جملة واحدة من السماء إلى الأرض يشيعها سبعون ألف ملك. فكيف تلقاها هؤلاء الكتبة وهى ليست من سور القرآن الصغيرة. إنها تتكون من تسعة أرباع ونصف. وتحمل كل أرباعها نظام القرآن المكي موضوعاتٍ وأسلوباً. فلم يختل بنياؤها، ولم تخرج عن طريقة القرآن في أحكامها حتى نُقل أنها تختص بأحكام التوحيد في صفات الله وأفعاله وأحكامه. فأى إعجاز هذا الذى جعل هؤلاء الكتبة الكرام يكتبون هذه السورة التى نزلت فجأة في وقت واحد دون أن تختل قدراتهم أو تنحرف السورة في إعجازها الكلى عن طريقها. فتبقى كما هى قرآناً معجزاً في نظامها، وفي سردها لخصائص العمل الإلهي في الكون.

ولندرك ما بين المكي والمدني فيها، نرى أن سورة الأنعام المكية ذكرت الحلال والحرام في المأكولات وكذلك فعلت سورة المائدة.

أما سورة الأنعام، فذكرت أن الحلال فيما نأكل هو ما أحل الله أكله. فالهمم في سورة الأنعام أن توضح نسبة المأكول إلى حلال الله **﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾** [سورة الأنعام آية ١١٨]. فالذى لم تبين نسبته إلى الله بعدم ذكر الله عليه عناداً وكفراً لا يؤكل **﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾** [سورة الأنعام آية ١٢٠].

بينما سورة المائدة كطريقة القرآن المدني تذكر المحرمات بالتفصيل كما تبين ذلك من آية المحرمات **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحُنْزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾** [آية ٣]. فإذا جاءت إلى ما أحل ذكرت ما يقتضيه إصابة سؤال السائل **﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾** [آية ٤].

فانظر كيف كانت الدقة في كتابة سورة من تسعة أرباع ونصف بنفس أسلوب القرآن المكي محافظة على موضوعات السورة وخصائصها، بحيث لم تختلط موضوعاتها بمثلتها في القرآن المكي. مما يعطى كل الثقة بأن هذا خارج عن طاقة البشر إذا كتبت بغير إمكانات تساعد على الوضوح والنظام. فهم يكتبون على أشياء لا تساعد على الترتيب والانتظام. تارة على أجزاء من جريد النخل، وتارة على عظام من أكتاف البعير أو البقر، وتارة على صفائح الحجر، وتارة على كرانيف النخل. بربك قل كيف هذا وكيف يرقم وكيف ينظم؟ أليس هذا من أوضح الأدلة على صدق قوله تعالى **﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾** [سورة القيامة آية ١٧].

أليس هذا مثلاً آخر على ما أثبتناه من قبل من أن القرآن الكريم منفرد في طريقة نزوله وطريقة كتابته وطريقة جمعه وحفظه؟ فتبارك الله رب العالمين.

وقد كان الصحب الكرام من الكتبة وغيرهم يسمعون القرآن ويكتبون ما وسعتهم الكتابة، ويحفظون ما وسعهم الحفظ، ويعملون من وحى ما كتبوا وسمعوا. فكانوا يتعلمون العلم والعمل معاً. كما ذكرنا وقد استمروا على ذلك طول حياة النبي ﷺ. فلم يوجد مسلم إلا ولديه شيء من القرآن.. وقد عُذَّ من حفظة القرآن الكريم كله كثير من أصحاب رسول الله ﷺ. ذكر منهم أبو عبيد القاسم بن سلام الخزاعي: أبا بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة وسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وحذيفة وسالم وأبا هريرة والعبادلة الأربعة وهم: عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير. وعائشة وفاطمة وأم سلمة. ومن الأنصار عبادة بن الصامت ومعاذ ومجمع بن جارية وفضالة محمد بن مسلمة.

غير أن هذه الرواية لم تذكر من الأنصار ما ذكرهم أنس بن مالك عندما سئل عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ، فقال أربعة كلهم من الأنصار هم: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. (١)

والقرآن شاع أمره منذ السنوات الأولى فتناقلته الركبان في مساراتها، وتغنى به الناس بحلاوة أصواتهم قبل أن يسلموا. وظهرت حلاوته فكانت ألفاظه تدوى فأسمع الرجال والنساء والأطفال. وكان المسلمون يقرءون القرآن في بيوتهم فتسمع أصواتهم، ويأتى بعض سادات قريش مستخفين ليسمعوا أثناء العهد المكى، فيتلاومون و ينهى بعضهم بعضاً، ولكنهم يعاودون السماع والتلاوم. كما حدث بين أبي سفيان وأميه بن خلف والأخنس بن شريق، وغيرهم ممن تلاقوا عند بيت أبي بكر ﷺ مستخفين، فيستخفون فينكر بعضهم على بعض.

وفي المدينة كان رسول الله يمر على بيوت الأنصار فيسمع أصواتهم بالقرآن تدوى في الأفق. واستمع ذات مرة إلى أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن بصوته الرخيم. (٢)

وقد كثر القراء حتى إنه في معركة بئر معونة قيل إنه قتل سبعون قارئاً من قراء القرآن. وكانوا من الأنصار ممن كانوا قد حبسوا أنفسهم على حفظ القرآن. وكانوا إذا أمسوا أتوا ناحية من المدينة، فتدارسوا القرآن، وصلوا. فلما جاء أبو البراء عامر بن صعصعة أمره النبي ﷺ وأذن لهؤلاء السبعين أن يسيروا معه فساروا حتى التقوا بعامر بن الطفيل فقتلهم.

فإذا كان عدد القراء الذين اختارهم النبي ﷺ سبعين شاباً حافظاً للقرآن، وذلك في العام الثالث للهجرة، فكم يكون عدد القراء في الأعوام التالية؟

(١) هؤلاء الذين ذكروا ليس ذكرهم علي سبيل الحصر. بل هم من أشهر حفظة القرآن.
(٢) نقلاً عن "مباحث في علوم القرآن" للشيخ مناع القطان وقد أسنده البخارى وزاد في رواية مسلم زيادة قول أبي موسى "لو علمت يا رسول الله أنك تسمع قراءتى لحبته لك تحبيراً". سبق تخريجه.

* * *

الصحابة وتلقيهم القرآن الكريم:

كان القرآن ينزل والمسلمون يتلقونه بالكتابة والمشافهة والسماع في الصلاة والمدارسه له في المساجد وغيرها. فكان كل واحد من الصحابة يأخذ من القرآن على قدر طاقته. فمنهم من يحفظ ما تصح به صلاته وتستقيم به حياته. وما منهم من أحد إلا وعنده من القرآن ما يسعده ويسره، لكنهم ليسوا جميعاً على مستوى واحد. بل كانوا كما قال مسروق - تلميذ عبد الله بن مسعود - وجدنا أصحاب رسول الله ﷺ مثل الآخاذ^(١) يروى الواحد، و الإخاذ يروى الاثنین، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ.^(٢)

وقد ذكر أبو عبيد بن سلام في كتاب (القراءات) أسماء القراء من أصحاب النبي ﷺ. فعد من المهاجرين: الخلفاء الأربعة وطلحة وسعداً وابن مسعود وحذيفة وسالملاً وأبا هريرة وعبد الله السائب والعبادلة^(٣).

وقال ابن عباس ؓ ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب. وكان عليّ يقول عن ابن عباس ؓ "نعم ترجمان القرآن ابن عباس". وكان يقول عنه إن ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق. ويليه في ذلك عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت.

وهكذا طبيعة الناس. فيهم النابغ والعبقري والعالم والعامل النحرير والعالم العلامة. والكثير دون ذلك. لكن الصحابة جميعاً ما كان فيهم من أحد يجهل القرآن، ولا يحفظ منه شيئاً. فمن الصحابة من حفظ الكثير من القرآن في حياة رسول الله ﷺ. مثل عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وأبو بكر الصديق وعثمان وعمر بن الخطاب ؓ جميعاً. وقد رأينا أن عمر بن الخطاب لم يكمل حفظه علي عهد رسول الله بل مكث اثنتي عشر سنة يحفظ سورة البقرة، وعندما حفظها نحر جزوراً [جملاً]. وذكروا غير هؤلاء الصحابة الذين ذكرنا مثل عبد الله بن عمرو بن العاص. فقد قال سمعت رسول الله يقول خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود وسالم، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب. وقال أنس جمع القرآن في عهد رسول الله أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن

(١) الآخاذ جمع إخاذ. وهو جدول الماء.

(٢) عن مسروق تلميذ عبد الله بن مسعود. مقدمة تفسير ابن كثير.

(٣) ذكره أبو عبيد في "كتاب القراءات" نقلاً عن كتاب "مباحث في علوم القرآن". للشيخ مناع القطان.

ثابت وأبو زيد (١)

والحق أن كل من روى ذكر ما بلغه علمه. فقد رأينا اختلافهم. فمنهم من روى أربعة ومنهم من روى أكثر (٢).

ومن هنا نعلم أن الذين أخذوا القرآن عن رسول الله ليسوا أربعة ولا خمسة. بل إن هذه الأعداد لا تفيد الحصر بالتحديد. إذ النصوص الواردة في كتب السير والسنن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون في حفظ القرآن، ويحفظونه أولادهم وأزواجهم، ويقرءونه في بيوتهم حتى يكون كدوى النحل. كما وجدنا ذلك في حديث أبي موسى الأشعري. وفي رواية أبي موسى قال قال رسول الله "إني أعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار.. " (٣). ورسول الله ﷺ يشجعهم على قراءة القرآن ويبصرهم بفضل آياته وعظيم سوره.

ويقول عن سورة الملك عن أبي هريرة ﷺ إن رسول الله قال "سورة من القرآن ثلاثون آية تشفع لصاحبها حتى يغفر له، تبارك الذي بيده الملك" (٤).

وعن ابن مسعود البدرى ﷺ عن النبي ﷺ قال عن فضل سورة البقرة: "من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه" (٥).

وروى غير ذلك من الأحاديث النبوية التي تحث المسلمين على حفظ القرآن ومتابعة هذا الحفظ بالرعاية والتكريم والتعظيم للقرآن. فقد قال رسول الله ﷺ "اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه" (٦)

ورسول الله يريد لحافظ القرآن أن يكون معلماً في الخير، ومتفوقاً على غيره في مجالات العمل الصالح بين الناس.

ومما تقدم يتبين لنا أن الصحابة ﷺ حفظوا عن رسول الله ﷺ القرآن الكريم. وراجعوه عليه ﷺ. ومنهم من حفظ ولم يكمل الحفظ إلا بعد وفاة رسول الله. فلم تتم مراجعة

(١) تفسير القرطبي ص ٣٥ الجزء الأول طبعة دار الكتب.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه البخارى: المغازى: ٤٢٣٢، ومسلم: فضائل الصحابة: ٢٤٩٩.

(٤) رواه أبو داود: ١٤٠٠ والترمذى: فضائل القرآن: ٢٨٩١ حسن، ورواه غيرهما.

(٥) البخارى: فضائل القرآن: ٥٠٠٩، ومسلم: مسافرين: ٨٠٨.

(٦) جزء من حديث مسلم: مسافرين: ٨٠٤.

ما تأخر بعد وفاة رسول الله.

غير أن القرآن كله متواتر حروفاً وكلمات وجمالاً وآياتٍ وسوراً. والمقصود بالتواتر ليس تواتر الحفظ. وإنما تواتر الكلمات والجمل والسور. وذلك تم على عهد رسول الله و
مازال.

* * *

أنواع الجمع

يقصد بهذا الجمع توارد نزول القرآن الكريم خلال سنوات نزوله حتى يُعرف المتقدم والمتأخر من الآيات لتصدق الأحكام ويُعرف الناسخ والمنسوخ، وللتعرف علي الأيام والأشهر والسنين من بدء نزوله في غار حراء في السنة الأولى للبعثة النبوية. ويحدد ابن سعد - صاحب كتاب طبقات ابن سعد - تاريخ البعثة يوم ١٧ رمضان الموافق لشهر فبراير لسنة ٦١٠م. وعلي ذلك ينزل القرآن بالطريقة التي تحدثنا عنها من قبل ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر سنين في المدينة. ولم يكن للمسلمين تاريخ أثناء العهد المكي. ولكن اتفق علماء السير على أن الهجرة كانت في الثاني عشر من ربيع الأول، وكانت وفاته ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة هجرية، أي بعد عشر سنوات في المدينة. وذلك في ٨ يونيو ٦٣٢م. وتكون جملة حياته ﷺ ثلاثة وستين عاما (صلى الله عليه وسلم سلاماً كثيراً طيباً مباركاً فيه). وخلال هذه المدة (الثلاث والعشرين سنة) نزل القرآن الكريم مجزئاً مفرقاً كما سبق أن أوضحنا. وكان رسول الله يتلقاه من الوحي مجهداً كما قالت السيدة عائشة.

وكان رسول الله ﷺ و هو يتلقى الوحي يجتهد ألا يغيب عنه شيء حتى يبلغه كما أنزل إليه، فنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه آية ١١٤]. ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [سورة القيامة آيات ١٦-١٨].

فالله تبارك وتعالى لا يكلف نبيه إلا بتلقيه كما أنزل. فليس للسانه دخل إلا بعد أن ينقش علي قلب رسول الله، فالله سبحانه يجمعه في قلبه.

وعليه سبحانه أن يعلمه قراءته. وعلي الرسول ﷺ إذا تعلم القراءة أن يعلمها للمسلمين. ومن هذه الآيات تعلم أن القرآن - كما هو وحي من قبل الله، نزل علي قلب رسوله - نزل كذلك بلحن مخصوص، وصوت مخصوص، يعني بقراءة مخصوصة يتميز بها عن سائر أصوات القراءات، سميت بالتلاوة ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [سورة المزمل آية ٤].

ولقد أنزل الله عليه قوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [سورة الأعلى آية ٦]. أي أنه تعالي يقول لنبيه إن النسيان ليس من قدرته لأن الله حكم أن ينزل فلا ينسيه شيئاً. وأرجو القارئ أن يلاحظ الفعل (تنسى) تقدمت عليه "لا" النافية التي لاتفيد النهي ومايستتبعه من جزم، وإنما تفيد النفي فتقلب الفعل للمستقبل فقط. فيكون المعنى فلا يحدث منك النسيان إلا ما شاء الله.

هكذا كان حكم الله لرسوله ﷺ أن يتلقى الوحي بنظام إلهي ليس له من أمره إلا أن

يتبع ما أنزل من ربه دون أى تدخل منه في شيء، وعليه أن يبلغه للناس، فكان لا يعلمه في سر ولا خفاء بل علانية ليشهد الناس. فیدعو كتبه فيطلب منهم أن يكتبوا عنه ما تلقاه عن ربه بواسطة جبريل عليه السلام. فيقول لهم ضعوا هذه السورة في موضع كذا.

ويروى القرطبي في مقدمة تفسيره عن زكريا بن الأنباري: أن الله تعالى أنزل القرآن على رسوله مفرقاً في عشرين سنة. وكانت السورة تنزل في أمر يحدث، والآية تنزل جواباً لسائل يسأل. ويوقف جبريل رسول الله علي موضع السورة والآية من القرآن الكريم. (فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف. فكله عن محمد عليه السلام خاتم النبيين عن رب العالمين. فمن أحر سورة مقدمة من الله أو قدم أخرى كانت مؤخرة، كان كمن أفسد نظام الآيات، وغير الحروف والكلمات).^(١)

وذكر ابن وهب في جامعه سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزلتا بالمدينة؟ وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة في مكة. فقال ربيعة قد قدمت: وألف القرآن على علم من ألفه. وقد اجتمعوا على العلم بذلك. فهذا مما انتهى إليه ولا نسأل عنه^(٢).

وقد روى مثل ذلك عن عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد سأله عبد الله بن الزبير بن العوام: لماذا قدمت آية ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [سورة البقرة آية ٢٢٤] عن آية ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [سورة البقرة آية ٢٤٠].

فقال عثمان رضي الله عنه إنما ألف القرآن على من ألفه^(٣): "أى علينا أن نتبع ما رتب عليه الآيات والسور على علم من الله، ومراجعة من جبريل في كل ما نزل علي مشهد من رسول الله، ومتابعة لما سُجل في الرقاع والعظام وغيرها.

وأما كيف تلقته الأمة؟ فما يكاد الوحي ينزل بسوره أو آيه إلا ويتلقاه أولاً كتبه التسجيل تحت إشراف الرسول عليه السلام بأوامره في طريقة كتابته. ثم يكون بعد ذلك التبليغ للأمة عن طريقة العبادة به بالوسائل الآتية:

أولاً: بالتلاوة مثل قوله تعالى ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [سورة العنكبوت آية ٤٥] وجعل هذه التلاوة بها

(١) نقله القرطبي نقلاً عن ابن وهب في مقدمة تفسيره. ويراجع في ص ٦٠ وما بعدها.

(٢) (٣) ذكر ذلك القرطبي في مقدمة تفسيره عن زكريا بن الأنباري الجزء الأول ص ٦٠.

أجر عظيم عند الله.

ثانياً: وكانت قراءة المسلم في صلاته فرضاً لا تصح الصلاة إلا بالقراءة به. وكان الرسول ﷺ يطيل صلاته بالليل جهراً. فهو يصلي في الليلة الواحدة إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة لا تسئل عن حسنهن وطولهن. وكان الصحابة يتابعون رسول الله في ذلك فيصلون بالليل صلاة قد تمتد بغير الوتر إلى عشرات الركعات. وقد جاء في الحديث الذي ذكره القرطبي في مقدمته "من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين"^(١) وهكذا كانت الصلاة من أهم أسباب ذبوع القرآن و انتشاره.

ثالثاً: القراءة المطلقة غير المقيدة بصلاة تقرأ في كل مكان وبمناسبة وغير مناسبة.

وبهذا تم للقرآن قطعية النزول من الله، وقطعية التلقى عن رسول الله ﷺ، وقطعية التبليغ من أول العاملين.

* * *

(١) المقنطرون: المكثرون في العبادة. والحديث رواه أبو داود: الصلاة: ١٣٩٨.

جمع القرآن في عهد أبي بكر

عرفنا أننا نقصد بجمع القرآن تلقيه وحياً. و تلقيه كتابة و حفظاً و ترتيباً. وبقى أن يجمع القرآن ليكون مصحفاً. و أن يجمع القرآن ليكون كتاباً، لا مجال لاختلاف اللغات فيه إلا إذا التقت على رسم واحد. فنحن بذلك أمام جمعيتين:

الجمع الثاني جمع القرآن في عهد أبي بكر:

الأول: جمع القرآن ليكون مصحفاً واحداً بعد أن كان مجموعاً في صحائف متعددة من العُسب و الأكتاف و العظام وغيرها. و مجموعاً حفظاً في الصدور، وتسجيلاً في السطور، و بقي أن يُجمع هذا ليكون مصحفاً و كتاباً. وكان ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ وفي خلافة أبي بكر رضي الله عنه. فقد اشتد النزاع مع المرتدين فقتل الكثير من القراء في معركة اليمامة، حتى بلغ من قتل سبعون قارئاً. فهال ذلك عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر، فشرح له الأمر، وبين له أن القتل الذي حدث في اليمامة يمكن أن يحدث في مواطن أخرى. فنفق ذلك القرآن. فأبى أبو بكر أول الأمر. لأنه رأى نفسه يقدم على عمل لم يعمله رسول الله ﷺ. ولكن عمر ما زال به يوضح له قيمة هذا العمل الجليل، حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك. فأرسل إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه لأنه أولاً: من كتّاب الوحي، وثانياً: من حفظة القرآن، كما بيناً. وثالثاً: لأنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن التي حضرها جبريل في شهر رمضان مع رسول الله.

فقد عرفنا أن جبريل كان يقوم كل عام بعرض القرآن مع رسول الله. و في العام الأخير من حياة رسول الله ﷺ شهد جبريل العرضة مرتين^(١). و كان زيد بن ثابت حاضراً هذه العرضة الأخيرة. فليس في اختياره أي غرض، وإنما هي الكفاية و القدرة والاستعداد. فقال له أبو بكر: "إنك شاب عاقل لا تهمة فيك. وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ. فتتبع القرآن و اجمعه: قال زيد: "فو الله لو كلفني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل عليّ من جمع القرآن. فتتبع القرآن أجمعه من العسب واللخاف و صدور الرجال."

وقد راعى زيد بن ثابت دقة التثبيت في الجمع. و كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة. و لا بالكتابة دون الحفظ فلا بد أن يشهد لما يكتب الحفظ و الكتابة. و هكذا

(١) كما جاء في حديث ابن عباس قال "كان رسول الله أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن" (الحديث) جزء من حديث رواه البخاري في كتاب بدء الوحي. حديث رقم: ٦ فتح الباري ٤٠/١.

انتهى الأمر بالقرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ بالحفظ في الصدور والاهتمام بالكتابة. بل كان لا يكتفي بذلك فقط. فإن أبا بكر كان يزيد في الاحتياط فقال لعمر بن الخطاب وزيد بن ثابت: "اقعدا بباب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه." هذا من رواية هشام بن عروة عن أبيه (الحديث السابق). قال ابن حجر وكان المقصود بالشاهدين شاهد الحفظ و شاهد الكتابة.

وبذلك تم الجمع في مصحف واحد من أوله: سورة الفاتحة إلى آخره: سورة الناس. وبذلك كان أبو بكر ﷺ أول من جمع القرآن في مصحف واحد. وكان بهذا العمل قد سجل للقرآن توثيقاً بشرياً تم تحت عنايته ليزر الجمع سالماً من كل نقد، جامعاً لكل أدلة التوثيق. فلم يجمع زيد بن ثابت من فكرهم وحفظهم فقط. وإنما كانوا لا يثبتون شيئاً حتى تقوم الحجة بالشهادة والكتابة على صحة ما يسجلون. وذلك كله تحت سمع وبصر الدولة التي قامت على مبادئه. وتحت سمع وبصر الذين آمنوا به. ولا يعقل أن يحدث تحريف والدولة والمؤمنون هم الذين تلقوا هذا الكتاب. وكتبوه وحفظوه ولم يحدثنا التاريخ عن مخالفة لهذا الجمع عندما تم، ولا عن رفض له.

وقد سبق أن تحدثنا عن الجمع الأول الذي نريد به القطع و اليقين في مراحل الجمع نزولاً و تلقيناً وكتابةً وحفظاً. وهذا الجمع في مصحف واحد يأخذ نفس المسار في الصحة والثبوت والقطع بدوره. ويضاف هذا إلى ما سبق أن ذكرنا من أمور انفرد بها القرآن وانفردت بها نبوة محمد ﷺ ثبوتاً تاريخياً بشرياً وليس بتوثيق النبي وحده.

الجمع الثالث في عهد عثمان:

وبعد أن تم جمع القرآن الكريم في مصحف واحد، أصبحت نسخته عند أبي بكر ﷺ حتى توفي. وجاء بعده عمر، فنقلت النسخة إلى عمر. فظلت عنده حتى توفي ﷺ، وبقيت بعده عند حفصة أم المؤمنين، إلى أن طلبها منها عثمان بن عفان.

ولما تولى عثمان ﷺ أمر الخلافة، كانت الفتوحات قد اتسعت في جميع الأنحاء. فانتشرت غرباً، فشملت مصر وشمال السودان وبرقة والساحل الشمالي للمغرب. واتسعت شمالاً فشملت بلاد الشام والعراق. واتسعت شرقاً و شمالاً فشملت بلاد فارس ووسط بلاد القوقاز وما وراء النهر. وفي كل هذه الفتوحات انتشر المسلمون. وكلُّ يُقرأ بلهجته ولغته. وكان القرآن قد أنزل في عهد رسول الله على سبعة أحرف تيسيراً للمسلمين. فكان المسلمون يقرأ كلُّ بما أخذ، ويحتصمون في قراءتهم. وكانت قبائل الجند من أماكن شتى. و لها لغات قد تختلف عن لغة قريش التي نزل بها القرآن. و لذلك يسر الله عند انتشار الإسلام في الجزيرة فسمح لعباده أن يقرءوا القرآن على أحرف سبعة، كما جاء في الأحاديث التي رويت عن

أكثر من عشرين صحابياً، وبأسانيد بلغت خمسة عشر سنداً، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

روى مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب أن رسول الله كان عند أضاة^(١) بنى غفار، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: "إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف." فقال رسول الله: "أسأل الله معافاته و مغفرته. إن أمتي لا تطيق ذلك." ثم أتاه الثانية. فقال "إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين. فقال: "أسأل الله معافاته و مغفرته: إن أمتي لا تطيق ذلك." ثم جاءه الثالثة فقال: "إن الله يأمرك أن يقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف فقال: "أسأل الله معافاته و مغفرته إن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة فقال: "إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا"^(٢)

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة، إلى خمسة وثلاثين قولاً، ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستي. قال الإمام القرطبي يُكتفي منها بخمسة أقوال.

منها القول الذي عليه أهل العلم كالطبري وابن تيمية والطحاوي وغيرهم. أن المراد بالسبعة أوجه المعاني المتقاربة وبالألفاظ مختلفة مثل أقبل، وتعالى و هلم - و يدل ذلك على ما جاء في حديث أبي بكر في نهايته بعد ذكر الأحرف السبعة. قال: "اقرأ فكل شافٍ كافٍ، إلا أن تختلط آية رحمة بآية عذاب مثل هلم، تعالى و أقبل واذهب وأسرع وعجل". وقد قيل عن أبي بن كعب. أنه كان يقرأ آية ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [سورة الحديد آية ١٣] يقرأها (أمهلونا) أو (أخرونا). وبهذا الإسناد نقل عن أبي أنه كان يقرأ ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ [سورة البقرة آية ٢٠] يقرأها (كلما أضاء لهم مروا فيه - سعوا فيه).

وفي البخاري و مسلم قال الزهري: إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال أو حرام. و نكتفي بهذا الذي ذكره الإمام القرطبي نقلاً عن مصادرته المختلفة، والذي يمكن أن يكون شرحاً مقنعاً للذي يراد بالأحرف السبعة.

هذا وقد خرج الصحابة والتابعون في الفتح ومعهم القرآن الكريم بما فيه من الأحرف السبعة. فكان بعضهم يقول لبعض "قراءتي خير من قراءتك". و بعضهم يخطيء بعضاً. واشتد الأمر. وخشى بعض المسلمين أن يحدث ذلك خلافاً بين المسلمين في قراءتهم. فجاء حذيفة بن اليمان إلى عثمان بن عفان. وكان نفر من أهل الشام في أرمينية و أذربيجان مع

(١) أضاة: غدير صغير.

(٢) مسلم: مسافرين: ٨٢١ وغيره.

أهل العراق. فقال لعثمان "أدرك الأمة قبل أن يختلفوا في كتاب ربهم اختلاف اليهود والنصارى".

واهتم عثمان رضي الله عنه و أرسل إلى حفصة أن أرسلني إلينا المصحف ننسخه في المصاحف ثم نرده إليك. فأرسلته حفصة إليه وطلب عثمان من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. طلب أن ينسخوا صحائف مصحف أبي بكر في صحائف أخرى سميت بعد ذلك مصحف عثمان أو المصحف العثماني.

وكانت خطة الجمع التي جعلته مختلفاً عن مصحف أبي بكر أنه حذف منه القراءات التي يختلف رسمها عن رسم مصحف عثمان الذي كُتب بلغة قريش. ويبقى منها في المصحف العثماني كل الأحرف التي لا تختلف في رسمها عن رسم لغة قريش. فقد قال عثمان لزيد بن ثابت الأنصاري والثلاثة الآخرين وهم من المهاجرين: "إذا اختلفتم في شيء مع زيد بن ثابت من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش. فإنه إنما نزل القرآن بلسانهم".

وقامت هذه اللجنة الرباعية بعملها ملتزمة طريق التثبيت التي سارت عليها من قبل في التحقق من الشهادة و الكتابة و العرض على المسلمين في تجمعاتهم، و زادت اللجنة الجديدة باستبعاد اللغات أو اللهجات التي لا تتفق في رسم الخط القرآني مع لغة قريش. كما حدث عندما اختلفت لغة المدينة عن لغة مكة في رسم كلمة "التابوت". فبينما أهل المدينة ينطقونها "التابوه" بالهاء. فأهل مكة ينطقونها "التابوت"، ولا يتفق رسم كتابتها على أي من اللغتين. و هنا تستجيب اللجنة لرأي عثمان رضي الله عنه في كل ما يعرض من الأمثلة التي تشابه ذلك. فكان على اللجنة أن تكتب بلغة قريش. و لكن إذا كانت الاختلافات لا تؤدي إلى اختلاف في رسم الكلمات، فيكتب المصحف بلغة قريش مع احتمال الرسم للغات الأخرى.

وذلك مثل أن يكون الاختلاف حول وجوه الإعراب. مثل قوله تعالى ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾. [سورة يوسف آية ٣١] قرأ الجمهور بالنصب على أن (ما) عاملة عمل ليس على لغة الحجازيين. و قرأ ابن مسعود (ما هذا بشرٌ) بالرفع على لغة بني تميم. وكتب المصحف بلغة الحجازيين. ولكن عندما يكون الرسم يحمل القراءات المختلفة، لا مانع من أن يكون الرسم ممثلاً لهذه القراءات، مثل ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بِأَعْدُ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سورة سبأ آية ١٩] و قرء بنصب "ربنا" على أنه أسلوب نداء، وبتسكين (باعدٌ) على أنه فعل أمر. فيصبح الرسم هكذا (وقالوا ربنا باعدٌ بين أسفارنا) وتقرأ (ربنا) بالرفع و(باعدٌ) على أنه فعل ماضى مبني على الفتح. كما تُقرأ قراءة ثالثة (ربنا بَعْدُ بين أسفارنا) برفع (ربنا) وتضعيف العين في الفعل الماضي (بعُد بين أسفارنا).

ما ذكرناه في شأن المراد من الأحرف السبعة. ذكره الإمام القرطبي: فهذه القراءات المختلفة يَحْتَمِلُهَا الرِّسْمُ فَتَبْقَى. و هذا كثير. ما دام لا يخالف لغة قريش في رسم المصحف. (١) فالقراءة لا تخرج عن نطاق القرآن ما دامت متفقة مع الرسم العثماني للمصحف.

(٢) وكذلك لا تخرج عن القرآن الكريم ما دامت متفقة مع قواعد اللغة العربية ولو بوجه من الوجوه. لأن القرآن عندما نزل قال تعالى في وصفه ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [سورة الشعراء آية ١٩٣-١٩٥] و تكرر ذلك في القرآن الكريم كما وضحنا ذلك من قبل.

(٣) وأن تكون القراءة متواترة تواتراً يحقق اليقين والصحة.

وبذلك وصلنا إلى أن أصبح القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد في الكون الذي تواتر و استقر. و أصبح يقينا قطعي الثبوت في سوره وآياته وكلماته وحروفه من بدء نزوله إلى اليوم. وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه آية، فترك في قراءتها حرف (واو). فأبى عليه ذلك أبي بن كعب فأثبت (الواو). و الآية هي من سورة التوبة ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [آية ١٠٠] قرأها عمر "الذين اتبعوهم بإحسان". وأسقط (الواو)، فأصبحت الآية هكذا "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان". فأصبح السابقون هم المهاجرين بينما الأنصار هم الذين اتبعوا المهاجرين بإحسان. فراجع زيد بن ثابت عمر في ذلك. فسأل عمر أبي بن كعب فأيد كعب قول زيد وأن الآية لا تصح إلا بذكر (الواو) قبل كلمة (الذين). فتكون القراءة كما هي اليوم في المصحف. ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾^(١)

وأنت بذلك ترى الصحابة لا يرضون باختلاف في القرآن ولو على حرف واحد كهذه الواو. - وهو ما يهمننا اليوم - فإن الصحابة تشددوا في توثيق النص حتى ولو كان الخلاف حول حرف. فكيف لو كان حول آية أو حول سورة. وهذا التوثيق الذي قام به الصحابة هو الذي أسكت كل الآراء المعارضة.

وكتب هذا المصحف، ونسخ منه مصاحف متعددة، أرسلت إلى الأمصار المختلفة كالكوفة و البصرة و دمشق وغيرها. ماعدا المصحف الذي احتفظ به عثمان وسمى "المصحف الإمام". وقطع بذلك أدعياء الفتنة و النفاق. وأيده في ذلك جماهير المسلمين.

ويحق لنا بذلك أن نقول إن القرآن الكريم قد تحقق ثبوته في كل مراحلها وحيأ ونزولاً

(١) نقل ذلك القرطبي عند تفسير هذه الآية.

و إقراءً و كتابةً و حفظاً و جمعاً في الأوراق و الصحف. و جمعاً في مصحف واحد. جمعاً ينفى
تعدد اللغات إذا اختلفت رسماً. و ينفى سائر الأحرف السبعة التي لا تتفق مع رسم المصحف
العثماني. وذلك لأنه نزل ملتزماً بهذا المبدأ ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [سورة الزمر آية
٢٨].

* * *

المبحث الثاني: توثيق نزول القرآن بطريق الوحي

والقرآن الكريم لم ينزل من السماء بمطلق الوحي. وإنما نزل بوحي خاص دون طرق الوحي الأخرى.

مفهوم الوحي العام:

والوحي في مفهومه اللغوي العام إعلام وإلهام نفسى، قد يكون لأى مخلوق كان، إنساناً أو شجراً أو حشرة أو حيواناً. كما جاء في القرآن والسنة النبوية. فالله أوحى إلى ملائكته بما يريد منهن: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيَّ مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [سورة الأنفال آية ١٢]. وكما قال تعالى في إلهام أم موسى بما تفعل مع رضيعها موسى ﷺ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة القصص آية ٧].

وكما ألهم الله النحل أن تكون حياتها على منهج رباني تسير عليه طول حياتها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [سورة النحل آية ٦٨].

والله قد يلهم الحجر والجبل والطير والجن ليفعلوا ما يشاء دفعاً لمكروهه أو تأييداً لبعض عبادته. كما يقول سبحانه: ﴿وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ. وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [سورة الأنبياء الآية ٨١-٨٢]. هذا الإلهام أو الوحي العام يمكن أن يكون لكثير من المخلوقات.

مفهوم الوحي الخاص:

ولكن الوحي الذي قال عنه الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ في سورة النساء، هو وحي خاص بأنبياء الله دون غيرهم. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالتَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [سورة النساء آية ١٦٣]. وهذا الوحي الخاص هو الوحي الاصطلاحي الخاص بالأنبياء وله صور أربع:

الصورة الأولى: الرؤيا الصالحة:

تقول عائشة رضي الله عنها: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح." (١)

(١) جزء من حديث البخارى: فى كتاب "بدء الوحي" حديث رقم: ٣.

وجاء في سورة الشورى ثلاثة أحوال للوحي: قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [آية ٥١].

الصورة الثانية هي الإلهام:

وهو نوع من الوحي الذى يلهم الله به عباده وخلائقه أجمعين. وقد يكون الوحي الذى يلقيه الله على أنبيائه فيلهمون به مع شعورهم أنه من الله عز وجل. " إن روح القدس نفث في روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب".^(١)

الصورة الثالثة:

أن يتم الوحي بين الله وأنبيائه بغير رؤيا ولا رسول، مع اليقين بأن الله هو الذى يتحدث، وأن النبي فى أقصى درجات وعيه. كما رأينا فى شأن موسى عليه السلام عندما تلقى الرسالة من ربه فيما ذكره القرآن الكريم فى سورة طه والنمل والقصص: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا (أى النار) نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة القصص آية ٣٠].

وكما صح فى السنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمه ربه فى حادث المعراج، حين بين الله له فريضة الصلاة.

الصورة الرابعة:

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾. وهذه الصورة دون غيرها هي التي نزل بها القرآن الكريم وهي الخاصة الثانية من خواص القرآن الأربع:

ويقول سبحانه فى توثيق الوساطة بين الله ونبيه وهى جبريل عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مطاع ثم أمين﴾ [سورة التكويد الآيات ١٩-٢٠] ولهذا الطريق الذى هو طريق السماء إلى الأرض لتبليغ وحى الله بحراسة ربانية فى آفاق السماوات. بعد أن كانت الجن تعبت باستراق السمع فيما بين الأرض والسماء.

فأى محاولة لاستراق السمع من الوحي، أو خطف شيء منه يُقاوم. فلا يستطيع بشر أو جن أن يعترض الوحي الآتى من السماء إلى الأرض. يقول تبارك وتعالى على لسان الجن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَمِتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [سورة الجن الآيات ٨-٩].

وهكذا توثق القرآن الكريم فى مصدره. وتوثق كذلك فى طريقة نزوله بواسطة جبريل عليه السلام. وحفظت طريقة نزوله من كل عبث أو عدوان.

(١) ابن ماجه: ٢١٤٤ نحوه وانظر الجامع الصغير: ٢٢٧٣ ضعيف.

كما توثق وصوله من السماء إلى متلقيه في الأرض محمد ﷺ إذ يقول الله تبارك وتعالى ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ. وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [سورة الحاقة الآيات ٣٨-٤٧].

وقد عرفنا أن للوحي أنواعاً أربعة. و لكن القرآن تميز بأنه لم يوح به إلا بالنوع الرابع من أنواع الوحي. و هذا النوع هو الوارد في قوله تعالى في سورة الشورى ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [آية ٥١].

فالرسول الذى ذكرته الآية هو جبريل عليه السلام و ثبت ذلك بالكتاب و السنة. ففي الكتاب العزيز ذكره الله باسمه مميّزاً له عن سائر الملائكة "جبريل" قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة آية ٩٧]. وذكره الله تعالى بالصفة المميزة له والخاصة به، وهى الروح. ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [آخر سورة الشورى آية ٥٢]. و كرر ذكره بهذا الوصف الذى اختص به: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [سورة النبأ آية ٣٨].

وأما السنة فقد ذكرته باسمه، و بغير ذلك من الأسماء أو الصفات: جاء في الحديث الذى ذكره البخاري في باب بدء الوحي^(١) عن عائشة رضی الله عنها قالت في هذا الحديث "حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ... الحديث"^(٢). وفي الحديث الذى رواه البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال عن فترة الوحي: قال رسول الله ﷺ "بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذى جاءني بحراء... الحديث"^(٣). ففي هذا الحديث يتحدث رسول الله ﷺ عن جبريل بأنه الملك. وفي حديث البخاري الثانى في باب بدء الوحي يروى البخاري عن ابن هشام أنه سأل رسول الله "يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟" فقال رسول الله ﷺ "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال.."

(١) الجزء الأول مطابع الشعب ص ٣. باب بدء الوحي.

(٢) جزء من حديث البخارى: بدء الوحي: ٣ وغيره.

(٣) جزء من حديث البخارى: بدء الوحي: ٤.

وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول".^(١) وفي حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما الذي رواه البخاري في باب بدء الوحي، يقول ابن عباس رضي الله عنهما "كان رسول الله أجود الناس. وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل. وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن".^(٢) وكان جبريل يلقى رسول الله حاملا رسالة السماء، أو مجيبا على استفسارات المسلمين مع رسالته الأساسية و هي وحي الله بالقرآن. وكان ذلك منذ لقائه برسول الله صلى الله عليه وسلم في غار حراء حتى رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى. وكان ذلك ليس في سر أو خفاء بل كان في كثير من الأحيان على مرثي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسمع منهم. كما ثبت في الحديث الصحيح الذي في الصحيحين وكتب السنة عندما جاء جبريل يسأل رسول الله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن الساعة. وكان في صورة رجل غريب لا يعرفه أحد من الصحابة. وأخذ يسأل رسول الله في أمور الدين والرسول يجيبه فلما فرغ وولى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم".^(٣)

ومن هذا نرى أن جبريل لم يكن شيئاً خفياً كواسطة بين الأرض والسماء بمهمة لا يعرفه أحد في واقع الناس، بل هو موثق عند الله بأنه الروح الذي نزل بالقرآن .. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾. وأنه موثق عند الله باسمه الذي عرف به بين الملائكة ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾. وموثق عند رسول الله أنه الملك الذي رآه عند أول نزول القرآن، في وثيقة ربانية بشرية. وثبت بشكل حاسم كيف يتلقى رسول الله الوحي عن ربه لأول مرة في نزول القرآن إليه بطريقة انفرد بها رسول الله عن نزول الكتب من قبله على الأنبياء. وهو موثق عند رسول الله والناس ثلاثاً وعشرين سنة، يأتي الوحي رسول الله في صور مختلفة بعضها مشابه للناس ويشاهدونه. ويذكر لهم رسول الله أن الذي يرونه هو جبريل. و أحيانا يراه رسول الله في صورته الملائكية. كما تحدثت سورة النجم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [سورة النجم الآيات من ٤ - ١٠]. وكانوا يرونه فيما يعرض للرسول عند نزول الوحي. تقول عائشة رضى الله عنها "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد. و إن جبينه ليتفصد عرقاً"^(٤) وهذا القول لا تنفرد به عائشة رضى الله عنها بل يشاركها كثير من الصحابة فيما رأته. فقد حدث البخاري عن سهل بن سعد الساعدي أخبره مروان بن الحكم أن زيد بن ثابت أخبره أن

(١) جزء من حديث البخاري بدء الوحي: ٢، فتح الباري ١/٢٦.

(٢) البخاري بدء الوحي: ٦، فتح الباري ١/٤٠.

(٣) البخاري: كتاب الإيمان. الجزء الأول - طبعة الشعب ص ١٩ - ٢٠.

(٤) البخاري باب بدء الوحي طبعة الشعب الجزء الأول.

رسول الله ﷺ أملى عليّ ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾. فجاءه ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت. وكان أعمى. فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي. فنقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي. ثم سرى عن رسول الله، فأنزل الله تعالى ﴿ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ (١).

ومن هذا نعلم أن جبريل كان هو الرسول الموكل بالقرآن الكريم في نزوله من السماء على قلب رسوله ﷺ وفي ترتيب كلماته وترتيب آياته. يراجع كل عام. وفي العام الأخير من حياة النبي راجعه مرتين كما جاء في السنة. ومن ذلك ندرك أن البشرية لم تتلق القرآن فجأة وبدون معرفة الطريقة التي نزل بها. فقد كان اللقاء الأول لنزول القرآن واضحاً ومشهوداً ومعلومًا. اهتز له رسول الله ﷺ (الحديث). (٢)

هذه الحادثة على جانب كبير من الأهمية لأنها:

أولاً: حادثة فريدة لم تحدث لأحد من الأنبياء في تلقيهم وحى كتب الله فيما تحدثت عنه الكتب المنزلة أو نقلها الثقات.

ثانياً: أنها وقعت جهاراً فوعاها رسول الله وكل من أخبرهم ازدادوا لها تصديقاً. حتى أن ورقة بن نوفل لم يكتف بتصديقه بل توقع للرسول أن يكون نبياً يؤذيه قومه ويخرجوه. أما زوجته خديجة فأمنت على كل كلامه وازدادت به إيماناً وتصديقاً. وأثبتت ما يؤكد تصديقها له وإيمانها بصدقه. وعندما أعلن أمره بادرت و من حوله بالإيمان والتصديق بما حدث له. مثل علي بن أبي طالب وأبي بكر ﷺ وغيرهم من السابقين الأولين. وكانت خديجة أول من آمن من النساء. وهذا أصدق توثيق سماوي وبشرى انفرد به القرآن الكريم في طريقة نزوله من السماء إلى الأرض إذ لم يحدث مثله لأي كتاب من قبله. ومع توثيقه وصدقه أنه ثبت بالتاريخ الديني والتاريخ البشري.

ثالثاً: أنها أعطت الثقة من بدء نزوله إلى نهايته.

* * *

المبحث الثالث: توثيق نزول القرآن على محمد ﷺ

ولكن هذه الخاصة ألا وهي نبوة محمد ﷺ ليس المقصود بها مجرد توثيق وجوده وتلقيه

(١) صحيح البخاري عند تفسير سورة النساء وعند نزول آية ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

(٢) سبق ذكره عن البخاري في كتاب بدء الوحي.

للوحي النازل من السماء بواسطة جبريل، وإنما يقصد بها توضيح الخصائص الأخرى والصفات التي تميز بها محمد رسول الله. إذ يقول القرآن الكريم في صاحب هذه الخصوصية ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [سورة الفرقان الآية الأولى]، ويقول ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا. قِيمًا ﴾ [سورة الكهف الآية الأولى]. ويقول في سورة يونس ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ [الآية ٢].

فهو في آية الفرقان يصفه بأن مهمته أن يكون للعالمين نذيرا ويصفه بأنه عبد. وفي سورة الكهف رفع قدره فجعله عبده الذي يستحق نزول الكتاب عليه ليقوم بالإنذار الرباني للعصاة ويبشر المؤمنين.

وفي سورة يونس يؤكد القرآن الكريم أن الرسول مثلهم بشر رجل وليس ملكاً ولا جنّاً كما اعترض الكافرون من قبل على بشرية أنبيائهم. فنفى قولهم وأكد أنه رجل كالرجال. فلا عجب.. وزاد في تأكيد بشريته إثبات أن ذلك هو المنهج الإلهي في هداية البشر، إذ أن الرسول لا يهدي قومه إلا بلسان قومه كما جاء في سورة إبراهيم [الآية ٤]. فلا بد أن يكون النبي إنساناً مثلهم بصفات خاصة تتيح له أن يكون أهلاً للإرشاد والدعوة إلى الله.

اعتراض الكفار على بشرية النبي:

وقد تردد اعتراض المشركين والكفرة على بشرية النبي ﷺ شأنه شأن الأنبياء من قبله.. حتى واجه محمد ﷺ كفار مكة بمثل ماواجه الرسل الأقدمين من قبل ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَد قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [سورة فصلت الآية ٤٣].

وعندما دعا رسول الله كفار مكة إلى الله أبوا.. واقترحوا عليه أن يأتيهم بأشياء هي من خوارق العادات التي لا تكون إلا من عمل الله ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [سورة الإسراء الآيات ٩٠ - ٩٥].

فأوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يقول لهم القاعدة في هذا الأمر أن بشرية الرسول إنما هي الأساس في الدعوة والتبليغ، وليست في الخلق والإبداع. وبشريته لازمة ليتم التوافق بين الرسول ومن أرسل إليهم فهو بشر وهم بشر. ولو أن سكان الأرض كانوا ملائكة، لأنزل الله

عليهم ملكاً رسولاً [سورة الإسراء آية ٩٤-٩٥].

ولكن الله لم يشأ أن يتركهم في جهالتهم فأراد أن يردهم إلى الحق المبني على التفكير والتعقل فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا جَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [سورة الأنعام آية ٩]. وهكذا قضى الله في الأمر فهم يطلبون مع الرسول ملكاً. وملائكة السماء لا تنزل إلى الأرض إلا بقضاء الله لعباده من خير وشر. ثم وضع لهم القاعدة لو أنزل ملكاً لهدايتهم لنزل في صورة رجل، وعند ذلك فلن يصدقوا أنه ملك. وعاد الأمر إلى الالتباس عليهم والإنكار ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾. وهكذا ثبت أن الطرف الثالث في خصائص القرآن هو النبي المرسل للتبليغ عن رب العالمين و أنه بشر أوحى إليه.

الفارق بين رسول الله ﷺ وغيره في توثيق الوحي:

إننا نؤمن بأنبياء الله جميعاً كما ذكرهم القرآن الكريم والكتب المنزلة السالفة. ولكن التاريخ البشرى أو المادي أو العلمي لا يثبت وجود أي نبي من الأنبياء السابقين من آدم ﷺ حتى نبي الله عيسى ﷺ لأن التاريخ البشرى لا يأخذ أخباره من الكتب المنزلة، وإنما يبحث في الآثار الماضية.. من نقوش على الأحجار أو على تماثيل أو على مقابر أو من كتابات في أوراق البردي وغيرها. وهي جميعاً لم تتحدث عن الأنبياء. حتى أن عيسى ﷺ وهو أقرب الأنبياء زماناً قبل محمد ﷺ لم يوجد من يُؤرخ له في التاريخ البشرى مع كثرة المؤرخين في القرن الأول الميلادي، وبخاصة العصر الروماني. ولكن وُجدت عبارة واحدة في كتاب المؤرخ اليهودي يوسفوس الذي أرخ في حولياته أخبار القرن الأول الميلادي تقول العبارة: (إنه في ذلك العام "أي القرن الأول الميلادي" عاش عيسى ذلك القديس).^(١) ولكن المؤرخين من بعده وهم أكثر أنكروا هذه العبارة. وقالوا إنها عبارة ملفقة ولم يثبتوا شيئاً عن المسيح. بل إن بعض المؤرخين مثل ديورانت - صاحب كتاب "حضارة العالم" - أنكر وجود المسيح، وقال إن ذلك أسطورة من الأساطير. وذكُر يوسفوس اليهودي لهذه العبارة - وهو يهودي كقومه ينكر قداسة المسيح ونبوته - فكيف يثبتها في كتابه؟

وقد مات يوسفوس ولم يؤمن بعيسى مما جعل المؤرخين من بعده يقولون: أنها عبارة مفسوسة أضيفت لتاريخ يوسفوس^(٢).

ومن هذا نتبين أن التاريخ البشرى لم يعرف شيئاً عن الأنبياء السابقين. وإنما ثبت

(١) يراجع في هذا كتاب "عبقرية المسيح" للعقاد ص ٨١. في مبحث تاريخ الميلاد.

(٢) المصدر السابق.

وجودهم وقيامهم بدعواتهم عن طريق التاريخ الديني، الذي لا يزال أوثق وسائله الكتب المنزلة. لكن رسول الله ﷺ يختلف عنهم في هذا المجال في أمرين:

الأمر الأول:

أنه وحده دون الأنبياء (عليهم السلام جميعاً) ثبت تلقيه القرآن الكريم في صورة علنية، أثبتتها السماء وشهد بها أهل الأرض في حادث غار حراء وما كان من بعده. وقد يقال إن موسى ﷺ قد نجاه ربه علناً في الطور. ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء آية ١٦٤].

ونحن نقول إننا لا ننكر ذلك. بل نؤمن به كما نؤمن بنبينا ﷺ. ولكننا إنما نتحدث عن توثيق التقاء السماء بالأرض بين جبريل ﷺ و محمد ﷺ في طريقة نزول القرآن الكريم. وهذا لم نجده عند أي نبي من الأنبياء الكرام.

نريد بذلك الرد على الماديين والعلمانيين الذين يرفضون كل شيء لا يجدونه في علمهم القاصر، فهم ينكرون كل شيء من وراء الطبيعة، ونحن نرد بوضوح وصدق، على هذا الزعم الباطل، مؤمنين بالطبيعة وبما وراءها، مما تبين لنا وفصله القرآن الكريم.

فموسى أخذ التوراة عن ربه بطريقة لا دخل لبشر فيها. لقد واعد ربه ثلاثين ليلة أتمها بعشر فأصبحت أربعين ليلة. [سورة الأعراف آية ١٤٤-١٤٥].

هذا في تلقى موسى ﷺ لنبا السماء نؤمن به ونؤمن بكل الأنبياء ؛ ولكن هذا ثابت بالتاريخ الديني والكتب المنزلة، فأين شهادة التاريخ البشري ؟.

الأمر الثاني:

فقد كان التاريخ البشري لا يعبأ بجزيرة العرب. يسير شمالها شرقاً وغرباً ليسجل الأحداث.. ويمر على جزيرة العرب فلا ينظر إليها. وإن كان قد ألقى بعض نظراته علي استحياء لبعض أطراف الجزيرة. ولكن عندما اختار الله محمداً ﷺ نبياً لهذا الكون، أصبح التاريخ البشري يسجل ويرصد أخبار النبي الجديد منذ بعثته ومنذ إشراق النور في غار حراء وما تلاها من أحداث غيرت مسار التاريخ، حتى أصبح التاريخ العالمي يكاد يتوقف عندمنطقة الشرق الأوسط في كل أخباره وتسجيلاته.

أ. فسجل مولده وأمه وأباه وقربته ومرضعته ويتمه المبكر ورعاية جده له ورعاية عمه له بعد جده.

ب. وسجل ماضيه في نسبه العريق. فيذكر له أربعة وعشرين جداً. ثم وثق نسبه لأجداده إلى إسماعيل بن إبراهيم. فيوثق بذلك ما ذكره القرآن الكريم والتوراة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴿ [سورة الحديد آية ٢٦]. وعاش
إسماعيل حول البيت الحرام وكان من ذريته رسول الله ﷺ كما أسلفنا.

وقد ثبت ذلك في التوراة "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، واجعل كلامي في
فمه".^(١) فالنبي الذي وضع الله كلامه في فمه منذ حادث غار حراء، إنما هو محمد ﷺ وليس
غيره. فكلام الله الذي في فمه هو القرآن الكريم ولم يوضع في فم سواه، وليس هناك نبي
مرسل له كتاب وشريعة مثل موسى ﷺ إلا محمد ﷺ.

و لقد وثقنا في استقبالنا للقرآن الكريم بخصائصه الثلاثة السابقة توثيقاً ربانياً وتوثيقاً
بشرياً:

ففي القرآن الكريم نرى أسلوب القرآن في حديثه الإخباري وأسلوبه في النداء عندما
يخاطب الله أنبياءه يناديهم بأسمائهم التي عرفوا بها بين قومهم. ولم يتحدث عنهم بوظيفتهم
التي التقوا بها مع الناس. وتحدث عن رسول الله في أربع سور من القرآن الكريم باسمه "محمد".
وتحدث في سورة واحدة باسمه "أحمد". قال تعالى:

١. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [سورة آل عمران آية ١٤٤].

٢. ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾

[سورة الأحزاب آية ٤٠].

٣. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾

[سورة محمد آية ٢].

٤. ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

[سورة الفتح آية ٢٩].

٥. أما في سورة الصف فذكره باسمه أحمد. فقال على لسان عيسى ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [آية ٦].

ومن هذا كانت شخصيه محمد رسول الله ثابتة في التوراة والإنجيل والقرآن. فالإنجيل
قال على لسان عيسى في إنجيل يوحنا [إصحاح ١٤] "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي
وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم معزياً آخر. ليملك فيكم إلى الأبد روح الحق"

وفي إنجيل يوحنا أيضاً [إصحاح ١٤ - ٢٦] يقول المسيح ﷺ "أما المعزى الروح

(١) سفر التثنية ١٨: ١٨ - التوراة. بحث الإسناد العالم الهندي الأفريقي احمد ديدات في حوار له مع
قسيس جنوب أفريقيا في جوهانسبرج، أن كلمة (مثلك) في هذه العبارة لا تصدق إلا على محمد ﷺ
بالأدلة التي لا تقاوم (راجع كتاب "محمد في الكتاب المقدس").

القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ". ويقول عيسى عليه السلام كما ذكره يوحنا أيضا [إصحاح ١٦ - ٧٠] " لكي أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ولكن إن ذهبْتُ أرسله إليكم".

وقد أكثر من النقل عن إنجيل يوحنا، لأنه في نص كلماته ما ينبئ عن رسول الله ﷺ. ففي النص الأول كلمات: المعزى - روح الحق - ليملك فيكم إلى الأبد.

أ- والمعزى يفسره القسس بأنه الروح القدس. ولكن في حوار ذكره الشيخ عبد الوهاب النجار - صاحب كتاب قصص الأنبياء (ص ٣٩٨) - أنه كان يحاور العلامة الإيطالي نلينو الأستاذ في الجامعة المصرية القديمة. " قال الشيخ النجار للأستاذ نلينو إني أعلم أنك حاصل على درجة الدكتوراه في الآداب اليونانية القديمة. فما معنى كلمة "بريكتوس" التي يسميها العامة عندنا " الفارقليط"؟ فقال نلينو: إن القسس يفسرون هذه الكلمة بمعنى المعزى. فقال الشيخ النجار إني لا أسأل القسس، ولكن أسأل الدكتور نلينو - الحاصل على درجة الدكتوراه في الآداب اليونانية القديمة - فقال: إن معناها "الذي له الحمد الكثير". فقلت هذا ما يوافق في اللغة العربية أفعل التفضيل من الفعل حمد. وهو أحمد. فقال نعم فقلت إن رسول الله ﷺ من أسمائه أحمد. قال الشيخ النجار: إني ازددت بذلك يقيناً في معنى قوله تعالي ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [سورة الصف آية ٦].

ب - هذا ما ذكره الشيخ النجار في تفسير كلمة المعزى أو الفارقليط. وأما كلمة روح الحق فهم يفسرونها بأنها تعني جبريل. وهذا غير صحيح لأن روح الحق هو الذي سيأتي ليعلمهم ويقول لهم الحق. وجبريل الملك لا يقيم بين الناس ليعلمهم. ثم الذي جاء وعلم الناس وزكاهم وقال لهم الحق هو محمد ﷺ كما ذكر القرآن الكريم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة آية ١٥١]. ويقول ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [سورة الإسراء آية ١٠٥].

ج- (ليملك فيكم إلى الأبد) وهذا نص صادق لا يصدق إلا مع محمد رسول الله وخاتم الأنبياء والذي نبوته في الناس إلى الأبد.

وكذلك قوله (ويعلمكم كل شيء) لا يصدق إلا على رسول الله ﷺ فإنه دون غيره من الأنبياء الذي جاء بدعوة عالمية شاملة تتحدث عن كل شيء. ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام آية ٣٨].

نقل الشيخ رشيد رضا عن الشيخ رحمت الله خليل الرحمن العالم الهندي المحقق في كتاب (إظهار الحق) أن اليهود لما ظهر يوحنا عليه السلام (يحيى بن زكريا) أرسلوا إليه من أورشليم

يسألونه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر: أنا لست المسيح. فسألوه ماذا؟ أأنت إيليا؟ فقال لست إيليا، فسألوه أأنت النبي؟ فأجاب: لا، فقالوا من أنت لنعطى جواباً لمن أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية قَوْمُوا طريق الرب كما قال أشعيا النبي.^(١)

فقد كان اليهود ينتظرون ظهور واحد من ثلاثة: النبي أو إيليا أو المسيح. فأخبرهم أنه ليس واحداً من هؤلاء. ولكن جاء في إنجيل (متى) قول عيسى الصلوات في حق يحيى الصلوات هكذا (١٤)^(٢) وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي. هكذا. وسأله تلاميذه قائلين إن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً فأجاب يسوع إن إيليا يأتي أولاً ويرد كل شيء، ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم تعرفوه. حيثئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم ذلك عن يوحنا المعمدان.

ومن هذا يتبين أن اليهود أنكروا أن يوحنا هو النبي. وأنكروا أن المسيح قد جاء. وكذلك أنكروا أن ما ينتظرونه من ملك يقودهم لم يأت. ولكن في سفر التثنية " (١٧) أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، واجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. (١٨) ويكون إن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه".^(٣)

وقد وقع في هذه البشارة لفظ (مثلك) ويوشع وعيسى عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى الصلوات. أما أولاً فلأنهما من بني إسرائيل. ولا يجوز أن يقوم أحد من بني إسرائيل مثل موسى. كما يدل عليه سفر التثنية. " ولم يبق بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجيهاً لوجه " ^(٤). أما ثانياً فلأنه لا مماثلة بين يوشع وبين موسى. لأن موسى صاحب كتاب وشريعة جديدة. وكذا لا توجد المماثلة الثانية بين موسى وعيسى عليهما السلام، لأن عيسى الصلوات كان إلهاً ورباً على زعم النصارى، وموسى عليه السلام كان عبداً لله ^(٥).

ملاحظة: هذه المثلية بين موسى والنبي الذي يأتي من بعده الذي وضَّح أمرها العالم الهندي الأفريقي أحمد ديدات في حوار مع كاهن مسيحي خلاصتها ألا مشاهجة بين عيسى وموسى تصل إلى المماثلة. فموسى نبي له أب وأم وزوجة. وأما عيسى فلم يكن له أب ولا زوجة ولا أولاد. كذلك كان موسى صاحب شريعة هي التوراة، وهذه الشريعة لم تكن

(١) يوحنا: ١ : ١٩ و ٢٢ / ٢٤

(٢) سفر التثنية ١٨ : ١٧ / ١٩.

(٣) متى ١١ : ١٤

(٤) سفر التثنية ٣٤ : ١٠

(٥) ملخص لبعض ما كتب المحقق العالم الهندي رحمت الله في كتابه (إظهار الحق) كما سبق أن ذكرنا.

لعيسى . بل كان عيسى عاملاً بها. كما جاء في قوله " ما جئت لانقض الناموس ولكن جئت لأتممه". وكما ورد في القرآن الكريم **﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾** وليست هناك مشابهة بين حياتهما. فموسى خرج من مصر ومات في التيه في سيناء. أما عيسى فذكر أتباعه أنه حوَّص وصلب وفر منه أتباعه.

ولكن المماثلة التامة هي بين موسى **ﷺ** ومحمد **ﷺ**. فموسى من أب وأم ومحمد كذلك. وموسى تزوج وله زوجة ومحمد تزوج وله زوجة وأولاد. وموسى جاءه الوحي بمكالمة مع الله ومحمد جاءه الوحي في غار حراء. وموسى أخذ شريعة التوراة. ومحمد **ﷺ** أخذ شريعة القرآن. وموسى حارب في مصر وخرج منها إلى سيناء. ومحمد **ﷺ** حارب في مكة وهاجر إلى المدينة. وموسى كذلك نجح في دعوته بإنقاذ قومه فأنقذهم. ومحمد **ﷺ** دعا إلى الإسلام ونجح في دعوته ورأى نجاحه في حجة الوداع.

وهكذا أثبت العالم أحمد ديدات في حوارهِ أن نص التوراة في سفر التثنية أن النبي الذي وعد الله به موسى أن يظهر من بعده هو محمد **ﷺ** في أسلوب موفق.

د - وهكذا وجدنا أن محمداً تسمى في القرآن بأسماء خمسة. كما سمي الأنبياء بأسمائهم نداءً وإخباراً. فمثلاً قال عن نوح **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾** [أول سورة نوح]، وناداه **﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾** [سورة هود آية ٤٨]. وكذلك ذكر القرآن إبراهيم **ﷺ** **﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** [سورة الأنعام آية ٧٥]. وقال منادياً له **﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾** [سورة هود آية ٧٦]. وقال عن موسى **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾** [سورة الأعراف آية ١١٧]. وناداه **﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾** [سورة طه آية ٤٠-٤١]. وكذلك مع عيسى **ﷺ** يخبر عنه فيقول **﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾** [سورة الصف آية ١٤]. وناداه فقال **﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْهَا وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾** [سورة آل عمران آية ٥٥].

وقد انفرد الرسول **ﷺ** في مجال النداء فلم يناد باسمه أبداً. ولكنه كان ينادى بوظيفته الإلهية وبصفته النبوية. فالله يناديه مرة بالرسول ومرة بالنبي. فنجده في سورة المائدة ينادى مرتين بـ **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾** [آية ٤١]. **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾** [آية ١٦٧]. وفي سورة الأحزاب **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾** [آية ٤٥]. ثم **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾** [آية ٥٠]. وفي سورة الطلاق والتحريم نودي نفس النداء **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾**.

وربما يسأل سائل: لم اختص الله محمداً **ﷺ** دونهم بهذا النداء الرباني؟. أقول في تعليقه ذلك: إن جميع الأنبياء قبل رسول الله **ﷺ** مرسلون إلى أقوام خاصة، كما في حديث

القرآن الكريم عنهم.

فكان الأنبياء والمرسلون من بنى إسرائيل يعملون من خلال شريعة موسى عليه السلام. فكان كل نبي مبعوثاً إلى قومه الذين يعرفونه بنسبه وقبيلته، وموطنه وأهله. و أصحابه هؤلاء ليسوا في حاجة إلى معرفة وظيفتهم الربانية، فقد جاءوهم بها. وإن كانوا من غير بنى إسرائيل مثل هود وصالح وشعيب. فقد كان أقوامهم ينكرون من أول الأمر رسالتهم ونبوتهم فيما بينهم، مما أوجب أن ينزل فيهم قضاء الله وحكمه، فينجو الصالحون ويهلك الكافرون. فكان ذلك عملاً ربانياً حاسماً مع البشر. حتى جاء موسى عليه السلام ومعهم شريعة التوراة. فكان العقاب الإلهي للعصاة حسب أحكام الشريعة دون الإهلاك والتدمير الذي يشمل الجميع، كما كان من قبل. فتوقفت العقوبات العامة بعد ما جاء موسى بشريعته. قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة القصص آية ٤٣].

وبهذا انقطع أسلوب "الإهلاك العام" إلى يوم القيامة. فالأنبياء منهم بعد ذلك مرسلون إلى قومهم يعيشون معهم يحيون ويموتون دون تدمير وإهلاك. ناداهم الله بأسمائهم المعروفة لديهم. ولم ينادوا بالنبوة والرسالة واختص رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النداء الرباني، لأنه دون الرسل الكرام. إنما كانت رسالته ونبوته إلى الخلق أجمعين.

* * *

المبحث الرابع: توثيق القرآن باللغة العربية

والقرآن الكريم كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [سورة الشعراء الآيات ١٩٢-١٩٥].

وهو كتاب الله الموحى به من الله عز وجل إلى نبيه محمد ﷺ بواسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام بلسان عربي مبين، ليكون بلاغا من الله عز وجل إلى الناس أجمعين.

فهذه هي الخصائص الأربع التي تميز القرآن الكريم بها، وثبتت له بدلائل قاطعة حاسمة لا سبيل إلى نفى واحدة منها.

فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي لا عوج فيه ولا اضطراب ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾ [سورة الزمر آية ٢٨].

فاللسان العربي من خواص القرآن التي يتميز بها عن سائر الكتب. فإن الكتب السابقة ترجمت إلى لغات كثيرة. واعتبرت الترجمة تورا أو إنجيلاً أو زبوراً. أما القرآن فلا يكون قرآناً إلا بلغته العربية الأصلية. وقد يترجم. ولكن لا تسمى الترجمة قرآناً. فالمسلمون يجمعون على أن قراءة القرآن في الصلاة، أو في غير الصلاة، لا تصح بها العبادة إلا بأن يكون القرآن عربياً. حتى إن بعض المذاهب لا تجيز خطبة الجمع إلا باللغة العربية. ولا يتحدث المسلمون بشعارات القرآن إلا بلغته العربية. فالله أكبر، سبحان الله، الحمد لله تُنطق بلغته ما دامت عبادة. وهذا يؤكد أن الترجمة ليست قرآناً. وإنما هي معانٍ قرآنية. وذلك لاستحالة ترجمة الأسلوب القرآني بخصائصه القرآنية البلاغية البيانية وغير ذلك.

وهذه الخاصة أكدت أن القرآن عربي ولا يمكن أن يكون إلا كذلك.

والله تبارك و تعالى أكد عروبة القرآن الكريم، وذكرها في أحد عشر موضعاً. منها الآية التي معنا والتي يدور البحث حولها من سورة الشعراء. ومنها ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف آية ٢]. و في سورة الزخرف ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آية ٣] و ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [سورة الشورى آية ٦]. ويتكرر التأكيد على عروبة القرآن ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الأحقاف آية ١٢].

ولهذا نؤمن أن القرآن الكريم لا يكون قرآناً إلا على أساس أنه عربي أسلوباً وكلمات وحروفاً. كما تلقاه رسول الله. و سجله في عهده في صحائفه وفي المواضع المختلفة من سوره، وجمع وحُفظ في صدور أصحابه في حياته. وجمع كما نزل على عهد أبي بكر. وجعل

مصحفاً في عهد عثمان بن عفان. وانتشر على هذا الجمع في الآفاق دون زيادة أو نقص أو تحريف. وكان انتشاره منذ عهد النبي ﷺ إلى اليوم و إلى آخر الزمن انتشاراً موثقاً متواتراً في كل حلقات حياته بلا انقطاع أو خفاء.

ترجمة القرآن:

أما لماذا لا يترجم القرآن ترجمة دقيقة تجعلها قرآناً. فلأن اللغة العربية لها في طريقة أدائها المعاني بكلماتها طريقتان: طريقة الأداء العادى وتسمى طريق الحقيقة. والطريقة الثانية وتسمى طريق المجاز. وقد يسهل نقل الكلمة في معناها الحقيقى إلى لغة أخرى، أما في معناها المجازى فقد يتعذر ذلك.

قال الشاعر:

قامت فظللتني من الشمس نفس أعز عليّ من نفسى
قامت تظللني و من عجب شمس تظللني من الشمس

فالشمس الأولى حقيقة والشمس الثانية مجاز. فهل لو ترجمت الشمس الثانية تفيد ما في المعنى من الجو النفسى و البلاغى الذى قصده الشاعر؟ فالشاعر جعل للكلمة العربية في أدائها المجازى - في مضمونها الأسلوبى وفي تجاوبها مع المعنى الكلى - إيجاءات و أطيافاً في لغتها الأصلية يصعب نقلها إلى اللغة المترجم إليها.

أرأيت لو أردنا أن نترجم قول الله تبارك و تعالى: ﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة آية ٢]، لعجزنا أن نترجم ما يتضمنه هذا الأسلوب من دلالات ومعان لا توجد إلا في الأداء اللغوى العربى. فالعبارة صيغت بطريقة تجعلها تتجاوز كل الصيغ التى تتفق معها في المعنى. فالتعبير القرآنى مثلاً لم يقل "هذا كتاب" أو "ذلك كتاب". أو "هو كتاب". و إنما قال "ذلك الكتاب" لأن هذا التعبير له أداء لا ينقل في ترجمة. (١)

لهذا يقول البوصيرى رحمه الله:

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى و أقوم قبلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلا
في نفس الآية يقول القرآن الكريم "لا ريب". فماذا يعنى الريب؟ فكلمة "ريب"

(١) فصيغة (ذلك الكتاب) تعنى بأسلوب القصر البلاغى أن هذا الكتاب جامع لحاسن الكتب، مما لا يملكه غيره.

نكرة وقعت في صيغة النفي فأفادت النفي العام للريب. إذ لو قيل "ليس فيه الريب" لما أفادت نفس المعنى. ثم إن كلمة ريب لها معاني مختلفة. فأى معنى من هذه المعاني يترجم؟ مع أن الكلمة بأدائها العربى تحتل معنيين، وهما الشك و التهمة أو العيب، والأداء يحتملها.

ترجمة القرآن ليست قرآناً. لماذا؟

لهذا لا تكون الترجمة للقرآن قرآناً. لظهور العجز البشرى عن عمل ترجمة للقرآن تشمل كل خصائص القرآن الكريم. فقد ظهرت ترجمات كثيرة للقرآن الكريم لم تتفق كلها في معانيها، ولا مع خصائص القرآن. بل ظهر في كثير منها القصور الواضح في أداء المعنى القرآنى.

ولهذا نرفض أن تكون أى ترجمة قرآناً. فالمعنى الأساسى في تعريف القرآن الكريم يقول إن القرآن هو كتاب الله المنزل على محمد رسول الله، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه. (أ) و المترجم ليس كتاب الله. (ب) و لا هو منزل على محمد ﷺ. (ج) ولا هو متعبد بتلاوته. فإن الماهر في تلاوة القرآن الكريم مثاب. والذى يجد صعوبة في تلاوته له أجران أيضاً. والذى يقصد بتلاوته العبادة عابد ومثاب. ولا تصح الصلاة إلا بتلاوته. فالذى يصلى و لا يقرأ القرآن بلغته العربية صلاته باطلة إلا إذا كان ذلك لعجز أو عذر.

لقد وثقنا استقبالنا للقرآن الكريم بخصائصه السابقة توثيقاً ربانياً، وتوثيقاً بشرياً وربانياً.

* * *

الفصل الثالث السنة النبوية وتوثيقها

المبحث الأول: التعريف بالسنة

تكلمنا عن السنة وحكمتها وتلقيها عن رسول الله ﷺ منذ عهد الصحابة مع الاجتهاد في حفظها ونشرها. وآن لنا الآن أن نفصل ذلك، رواية ودراية^(١)، بعد تعريفها وبيان منزلتها مع القرآن الكريم.

تعريف السنة:

السنة كل ما رُوي عن رسول الله من قول أو فعل أو تقرير. وهذا التعريف لكل ما نسب إلى رسول الله، هو المصدر الثاني من مصادر التشريع. وهو بذلك يشمل ثلاثة أنواع من الحديث:

- ١- القول: مثل "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى".
- ٢- والفعل: مثل "صلوا كما رأيتموني أصلي"^(٢) و"خذوا عني مناسككم"^(٣).
- ٣- والتقرير: هو ما يُقره الرسول من أفعال تقع أمامه من أصحابه أو غيرهم مثل حديث الأذان^(٤). فقد رآه أحد الصحابة في منامه. فلما ذكره لرسول الله. أقره الرسول ﷺ وعُمل به حتى اليوم.

والتعريف الثاني للسنة يزيد أمراً رابعاً: ما روى عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

(١) علم الحديث "رواية" يقوم على ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية من حيث نقلها نقلاً دقيقاً، فهو يتناول ضبط كل حديث ونقله. وعلم الحديث "دراية" قال عنه شيخ الإسلام الحافظ بن حجر "معرفة القواعد المعرفية بحال الراوى (وهو ناقل الحديث) والمروى (وهو ما أضيف إلى النبي ﷺ أو إلى غيره من الصحابة أو التابعين أو غيرهم). فموضوع علم الحديث دراية السند والمتن؛ السند من جهة أحوال أفراد، واتصاله أو انقطاعه، وعلوه أو نزوله. والمتن من جهة صحته أو ضعفه وما يلحق بذلك. ولا يستغنى أحد العلمين عن الآخر. (انظر أصول الحديث - علومه ومصطلحه - د. محمد عجاج الخطيب ص ٧/٦) [مُعَد الكتاب].

(٢) جزء من حديث البخارى: الأذان: ٦٣١ ورواه غيره.

(٣) روا مسلم: الحج: ١٢٩٧ بلفظ لتأخذوا مناسككم وكذا أبو داود: ١٩٧٠ وروى بألفاظ أخرى.

(٤) حديث الأذان رواه الترمذى فى الأذان: ١٨٩ حسن صحيح.

فالثلاثة الأولى التي في التعريف الأول هي مصدر للأحكام كما رأينا في حديث "إنما الأعمال بالنيات..".

وأما ما ورد في التعريف الثاني عن "الصفة" أى ما روى من أوصاف رسول الله ﷺ في مشيه وفي ركوبه وفي جلوسه، مما هو من طبيعة الحياة في عصره، فليس سنة للتشريع والعمل بها على طريق الالتزام بها. وإنما هذه السنة هي تصحيح لعادات البيئة مثل نهيته عن شرب الماء مرة واحدة، ولكن على مرتين أو ثلاث. ومثل ما جاء عنه في طريقة الأكل "يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل ما يليك"^(١).

حتى أن بعض علمائنا جعل السنة ثلاثاً:

١- سنة الأحكام كالتعريف الأول.

٢- سنة الصفات النبوية.

٣- سنة ما أخذه الرسول ولم يعد له لتصبح سنة، مثل حديث تأبير النخل الذى رواه مسلم. وفيه يقول الرسول ﷺ "ما أمرتكم به من أمر الدين، فاعملوا به. وما أمرتكم به من أمر دنياكم، فأنتم أعلم بشئون دنياكم"^(٢)، ومثل كيف تُصلح الأرض للزراعة، وكيف يُجنى الثمر، وكيف تُبنى المنازل، وكيف يُستمتع بها.

كل هذا لا تدخل السنة في تفاصيله. ولكنه يرجع إلى منهج الحياة الذى رسمه الله ورسوله للمسلمين ليعملوا به دون ضرر للنفس أو إضراراً بالغير.^(٣)

* * *

الحديث القدسى:

هو كل حديث يضيف فيه الرسول ﷺ قولاً إلى الله ﷻ. ويسمى بالحديث القدسى أو الإلهى، ونسبة الحديث إلى القدس وهو الطهارة والتنزيه، وإلى الإله أو إلى الرب، لأنه صادر عن الله ﷻ من حيث أنه المتكلم به أولاً والمنشئ له، أما كونه حديثاً، فلأن الرسول ﷺ هو الحاكي له عن الله تعالى. بخلاف القرآن الكريم فإنه لا يضاف إلا إلى الله ﷻ، فيقال فيه: قال الله تعالى: ويقال في الأحاديث القدسية: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى. (والقرآن الكريم ما كان لفظه ومعناه من عند الله ﷻ بوحى جلى. وأما الحديث

(١) جزء من حديث البخارى: الأظعمة: ٥٣٧٦ ومسلم في الأشربة وغيرها.

(٢) رواه مسلم: الفضائل: ٢٣٦٣ نحوه وأحمد: ١٥٢/٣ : ١٢٤٨٣ صحيح وابن ماجه: رهون: ٢٤٧١.

(٣) وأوسع الإطلاقات عن السنة إطلاق المحدثين الذين يقصدون بالسنة كل ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو سيرة... سواء أكان ذلك قبل البعثة أم بعدها، وسواء أثبت ذلك حكماً شرعياً أم لا (أصول الحديث السابق ص ١٤) [معد الكتاب].

القدسى فهو ما كان لفظه من عند رسول الله ﷺ ومعناه من عند الله تعالى) (بأى كيفية من كيفيات الوحي)^(١).

يقول د. محمد عبد الله دراز في كتابه "تيسير النبأ العظيم" دار الإبداع – الإسكندرية ص ٢٢/٢٤ (النقل بتصرف).

"... أما الأحاديث النبوية فإنها بحسب ما حوته من المعاني، تنقسم إلى قسمين: "قسم توفيقى" استنبطه النبي بفهمه في كلام الله أو بتأمله في حقائق الكون. وهذا القسم ليس كلام الله قطعاً. و"قسم توفيقى" تلقى الرسول مضمونه من الوحي فبينه للناس بكلامه – وليس له أن يتصرف فيه – وهذا القسم – وإن كان ما فيه من العلوم منسوباً إلى الله. لكنه – من حيث الكلام – حرى بأن ينسب إلى الرسول ﷺ لأن الكلام إنما ينسب إلى قائله الذى ألفه على نحو خاص. فالحديث النبوى إذاً بقسميه خارج عن كونه كلام الله. وكذلك "الحديث القدسى" إن قلنا إنه منزل بمعناه فقط.

وهذا هو أظهر القولين فيه عندنا، لأنه لو كان منزلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآنى... ولا قائل بذلك.

وأيضاً فإن القرآن لما كان مقصوداً منه – مع العمل بمضمونه – التحدى بأسلوبه والتعبد بتلاوته، احتيج لإنزال لفظه. أما الحديث القدسى فلم ينزل للتحدى به ولا للتعبد بل لمجرد العمل بما فيه. وهذه الفائدة تحصل بإنزال معناه. فالقول بإنزال لفظه قول بشيء لا دليل في الشرع عليه. اللهم إلا ما قد يلوح من إسناد الحديث القدسى إلى الله بصيغة "يقول الله تبارك وتعالى كذا" والمقصود بهذا الإسناد نسبة مضمونه لا نسبة ألفاظه.

فإن زعمت أنه لو لم يكن في الحديث القدسى شيء آخر مقدس غير المعنى لصح لنا أن نسمى بعض الحديث النبوى قدسياً أيضاً لوجود هذا المعنى فيه. فالجواب أننا لما قطعنا في الحديث القدسى بنزول معناه لورود النص الشرعى على نسبته إلى الله تعالى، سميناه قدسياً. بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لم يرد فيها مثل هذا النص. فجاز في كل حديث أن يكون مضمونه معلماً بالوحي وأن يكون مستنبطاً بالاجتهاد، فسمى الكل نبوياً. ولو كانت لدينا علامة تميز لنا قسم الحديث المعلم بالوحي لسميناه كذلك.

على أن هذا التمييز لا يؤدي إلى فائدة عملية. فسواء علينا عند العمل بالحديث أن يكون من هذا القسم أو ذاك. إذ النبي ﷺ في تبليغه صادق مأمون، وفي اجتهاده فطن موفق، وروح القدس يؤيده – فلا يقره على خطأ في أمور الشريعة. فيكون مرد الأمر في الحقيقة إلى

(١) أصول الحديث ص ٢٠ [معد الكتاب].

الوحي في الحالتين: إما بالتعليم ابتداءً، وإما بالإقرار أو النسخ انتهاءً.
ولذلك وجب أن نتلقى كل سنة الرسول ﷺ بالقبول [سورة الحشر آية ٧]، [سورة
الأحزاب آية ٣٦].^(١)

* * *

^(١) [معد الكتاب]

المبحث الثاني: السنة من حيث درجات الثبوت

١- الفرق بين القرآن والسنة من حيث درجات الثبوت، أن القرآن كله متواتر الورد لفظاً، وأحياناً يكون متواتراً لفظاً ومعنى، وأحياناً يكون متواتراً معنى فقط.

وهنا يوجد اختلاف في المعنى. وعلماء البحث والرأى يستطيعون أن يُخْرِجُوا من اللفظ المتواتر عدة معانٍ كلها مقبول، وإن كانت مختلفة. مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [سورة البقرة آية ٢٢٨]. فالقرء معناه الحيض عند قوم، وعند آخرين معناه الطهر. أو قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [سورة البقرة آية ١٩٥]. فهل المعنى: لا تنفقوا في سبيل الله كل أموالكم، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة؟ أو المعنى: وأنفقوا في سبيل الله بحيث لا يكون الإنفاق مدعاة لضياع قدرتكم على الإنفاق على أنفسكم وأولادكم وأهلكم. وهناك معانٍ أخرى.

فالكلمات في كلتا الآيتين متواترة لفظاً. والمعنى يحتمل أكثر من رأى. وهذا ما نعينه بأن القرآن كلاً وحرفاً وجملةً وآيةً وسورة، متواترٌ لا يقبل الطعن في وروده إلا من كاذب أو مفترى أو كافر. أما الاختلاف في المعنى فوارد وتعددت فيه التفاسير.

ومعنى التواتر هو نقل الجموع عن الجموع بحيث لم يتلاقوا ويتفقوا على شيء. وإنما هى جموع نقلت الخبر مع اختلاف أمكنتهم وأوقاتهم نقلاً متتابعاً جمعاً عن جمع بحيث يستحيل اتفاهم على الكذب.

هذا خاصاً بالقرآن. أما السنة فليست كذلك.

٢- والسنة من حيث الإخبار عنها على درجات متعددة:

أ- سنة متواترة^(١) كالقرآن. وهى التى يصدق عليها معنى التواتر من نقل الجمع عن الجمع مع الثقة بأنهم لم يلتقوا ولم يتفقوا. وهذه السنة المتواترة لفظاً - كالقرآن - هى قليلة جداً. حتى أن بعضهم لا يكاد يحصى منها إلا أعداداً قليلة، قد لا يصل إلى عدد أصابع اليد.

حكم التواتر:

يفيد التواتر الحكم اليقيني الذى يضطر الإنسان إلى التصديق به تصديقاً جازماً لا يقبل المعارضة. كأن يقول لك شخص إن "بكين" مدينة فى الصين. وأنت لم ترها وهو لم

(١) والمتواتر لا يبحث عن رجاله. بل يجب العمل به من غير بحث. (أصول الحديث ص ١٩٧)

[معد الكتاب].

يرها. ولكنكما اعتمدتما على التابع في الخبر ألا وهو "التواتر".

والسنة المتواترة أنواع:

١- السنة المتواترة لفظاً ومعنى: وهى التى نقلت عن عديد من الصحابة فى مواقع مختلفة. مثل حديث "من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" (١) الذى رواه بضعة وسبعون صحابياً.

ولعل هذه السنة المتواترة لفظاً، هى السنة التى يقصدها بعض العلماء بقولهم إنها لم تصل إلى عدد أصابع اليد.

٢- السنة المتواترة معنى: وهى السنة التى اختلفت فى ألفاظها. ولكنها اتفقت جميعاً على معنى واحد. مثل الأحاديث التى تتحدث عن رفع اليدين فى الدعاء. فقد روى ذلك كثير من الصحابة فى أحاديث اختلفت ألفاظها ومناسبتها، ولكنها جميعاً اتفقت فى أن رسول الله ﷺ دعى ورفع يديه فى الدعاء.

٣- السنة المتواترة فعلاً: وهى السنة الفعلية التى عمل بها المسلمون منذ حياة رسول الله، واستمرت جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا. مثل الأذان والإقامة. فقد بدأ العمل بهما من خلال أحاديث صحيحة.. ثم استفاض العمل بهما منذ عهد رسول الله حتى يومنا هذا. ومثل حركات الصلاة والعبادة. فهى لم تُذكر فى القرآن، ونقلت فى أول الأمر بأحاديث آحاد، واستفاض العمل بها، استجابة لقول رسول الله ﷺ "صلوا كما رأيتموني أصلى" (٢). وكعدد الركعات فى الصلاة، وعدد الجلسات، وكيفية السجود، وكيفية الركوع.. إلى غير ذلك.. فإنكار ذلك أو الطعن فيه فسق وكفر.

ب- والسنة بعد ذلك ليست متواترة. بل يسميها علماء السنة "أحاديث آحاد"، فى مقابل "الأحاديث المتواترة".

وأحاديث الآحاد أنواع. تختلف من حيث الرواية والإسناد، ومن حيث الثبوت والقبول.

فمن حيث الرواية والإسناد تختلف إلى حديث مشهور وحديث عزيز وحديث غريب.

فالحديث المشهور رواه فى كل حلقات إسناده ثلاثة أو أكثر بحيث لا يصل إلى درجة التواتر. مثل حديث "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً، ينتزعه من العباد ولكن يقبض

(١) رواه البخارى: علم: ١١٠ ومسلم: زهد: ٣٠٠٤ وغيرهما.

(٢) سبق تخرجه.

العلم بقبض العلماء^(١). والحديث المشهور لا يعنى أكثر من أن رواه في كل حلقة ثلاثة أو يزيد. لكن حكمه لا يدل على أنه حديث صحيح أو غير صحيح، وإنما تُؤخذ الصحة من درجات الثبوت والثقة في رجال إسناد الحديث سواء كان مشهوراً أو غير مشهور. فهناك أحاديث مشهورة ولكنها غير صحيحة.

والحديث العزيز: هو من أحاديث الآحاد بالنسبة لعدد الرواة دون النظر إلى سلامتهم من النقد والتجريح. وهو الحديث الذى لا يقل رواته عن اثنين في جميع طبقات السند. وقد يزيد رواته إلى ثلاثة أو أربعة أو أكثر في بعض الحلقات، ومع ذلك يظل حكمه "عزيزاً" .. ومثاله ما رواه البخارى ومسلم من حديث أنس وأبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"**^(٢). والعزيز كالمشهور أيضاً لا تلزمه الصحة لمجرد أنه رواه اثنان. بل قد يكون مقبولاً أو لا يكون.

الحديث الغريب: هو ما انفرد راوٍ واحد في كل حلقاته. مثال ما رواه البخارى في مطلع صحيحه: **"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"**^(٣). فقد انفرد به عمر بن الخطاب، ثم تابعت روايته، وكثر رواته بعد ذلك.

* * *

أحاديث الرواة بحسب قوة الرواية وضعفها

تنقسم أحاديث الآحاد من حيث القبول وعدمه إلى قسمين:
أ- أحاديث مقبولة. وهو ما ترجح صدق المخبر به. وحكمه وجوب الاحتجاج والعمل به.
ب- أحاديث مردودة. وهو ما لم يترجح صدق المخبر به. وحكمه أنه لا يحتج به، ولا يجب العمل به.

* * *

أقسام القبول

ينقسم هذا النوع إلى قسمين: ١- صحيح ٢- حسن
أولاً: الحديث الصحيح:

(١) جزء من حديث البخارى: علم: ١٠٠، ومسلم: علم: ٢٦٧٣ وغيرهما.
(٢) البخارى: إيمان: ١٤، ومسلم: إيمان: ٧٠/٤٤، وغيرهما. الجامع الصغير: ٩٩٣٩ صحيح.
(٣) البخارى: بدء الوحي: ١، مسلم: إمارة: ١٩٠٧، وغيرهما.

هو: ١) ما اتصل إسناده، بنقل (٢) العدل (٣) الضابط عن مثله إلى (٤) منتهاه (٥) من غير شدوذ ولا علة.

وهذا التعريف يجعل للحديث الصحيح خمسة شروط:

- ١- اتصال السند بغير انقطاع من أوله إلى نهايته.
 - ٢- عدالة الرواة في كل حلقاته.
 - ٣- ضبط الرواة واتفاقهم.
 - ٤- عدم شدوذ المتن، بحيث لا يكون الحديث شاذاً. والشذوذ هو مخالفة - رواية - الثقة لمن أوثق منه. (١)
 - ٥- عدم العلة في المتن. والعلة في الحديث تكون بسبب غامض خفى بحيث يُقدح في صحة الحديث مع أن الظاهر السلامة فيه. (٢)
- فإذا اجتمعت هذه الشروط الخمسة كان الحديث صحيحاً.

مثال ذلك: ما أخرجه البخارى في صحيحه عن جبير بن مطعم عن أبيه: "سمعت رسول الله ﷺ قرأ في المغرب بالطور" (٣). فهذا الحديث اجتمع لرجاله شروط الصحيح الخمسة. فحكمه في وجوب العمل به هو حكم الأحاديث الصحيحة.

وقد ذكرنا من قبل أن الأحاديث الصحيحة جُمعت مختلفة، أصحها عند الأمة صحيح البخارى وصحيح مسلم. ويوجد الحديث الصحيح في غيرهما. ولكن في كون الأحاديث صحيحة هناك نقد وكلام كثير. مثل صحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم. وقد سبق أن ذكرنا ذلك. كما قد يوجد الصحيح والحسن، بل والضعيف أحياناً في كتب السنة المختلفة.

* * *

(١) وقال الشافعى: الشاذ هو أن يروى الثقة حديثاً يخالف ما روى الناس، وليس من ذلك أن يروى مالم يرو غيره. [أحمد جاد].

(٢) العلة في اصطلاح المحدثين: هى سبب غامض يقدر في الحديث مع ظهور السلامة فيه. وعلم علل الحديث يبحث عن الأسباب الخفية الغامضة من جهة قدحها في الحديث: كوصل منقطع، ورفع موقوف، وإدخال حديث في حديث، وإلحاق سند بمتن أو غير ذلك. وعلم علل الحديث هو فهم وحفظ ودقة نظر. ومن يرجع إلى كتب علل الحديث يحكم بهذا حينما يرى اتفاق كثير من الأئمة على إعلال حديث بأجوبة متقاربة تفيد جميعها - مع تفاوت عصور هؤلاء الأئمة - أن الحديث ليس مستقيماً. (أصول الحديث ص ١٨٩ - ١٩٠) [معد الكتاب].

(٣) أخرجه البخارى في كتاب الأذان: باب الجهر في المغرب: ٧٦٥ ومسلم: الصلاة: ٤٦٣ وغيرهما.

ثانياً: الحديث الحسن:

ويمكن أن يعرف بأنه هو ما: (١) اتصل سنده بنقل (٢) العدل الذى (٣) خف ضبطه عن مثله (٤) إلى منتهاه (٥) من غير شذوذ ولا علة.

فهذا التعريف يتفق فى كل كلماته مع تعريف الحديث الصحيح ما عدا الشرط الثالث، وهو عدم إتقان الضبط. وهو ما ورد فى التعريف بكلمة "خف ضبطه". وبهذا صار الحديث حسناً وليس صحيحاً.

حكمه: هو كالحديث الصحيح فى الاحتجاج به. وإن كان دونه فى القوة.

مثاله: ما أخرجه الترمذى عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى قال: "سمعت أبى بحضرة العدو يقول: يا رسول الله ﷺ إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف"^(١).

والأحاديث الحسنة كثيرة جداً. توجد فى كل دواوين السنة إذا استثنينا البخارى ومسلم، وما جاء فى الصحاح وغيرها.

* * *

الحديث المردود

وهو الذى لم يترجح صدق المخبر به.

أسباب رده: ترجع أسباب الرد إلى أحد أسباب ثلاثة رئيسية:

١- عدم اتصال السند، أو سقوط بعض رواته.

٢- الطعن فى الراوى.

٣- ما يعترى المتن من شذوذ أو علة قاذحة.

والأحاديث المردودة هى أحاديث ضعيفة. وهى أنواع:

١- أحاديث مردودة لعدم سلامة السند: مثل الحديث المعلق. وهو ما حذف من

مبدأ إسناده راوٍ أو أكثر على التوالى.

٢- الحديث المرسل: وهو الذى سقط من آخر إسناده الراوى الذى روى عنه

التابعى سواء كان تابعياً أو صحابياً^(٢). أى أن يقول التابعى: قال رسول الله، ولم يذكر من روى عن رسول الله.

(١) جزء من حديث الترمذى فى فضائل الجهاد برقم: ١٦٥٩ وقال: هذا حديث صحيح غريب وروى بألفاظ أخرى فى البخارى ومسلم.

(٢) أى أن يروى التابعى الحديث عن رسول الله ﷺ دون أن يذكر الوسطة بينه وبين النبي ﷺ [أحمد جاد].

مثاله: ما روى مسلم عن سعيد بن المسيب - وهو تابعي - أن رسول الله ﷺ نهي عن المزابنة^(١). ولم يذكر ابن المسيب الراوي عن رسول الله.

حكمه: الحديث المرسل من الأصل ضعيف مردود لفقده شرطاً من شروط المقبول - وهو اتصال السند - وللجهل بحال الراوي المحذوف، لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابي. وفي هذه الحال يحتمل أن يكون ضعيفاً. ولكن بعض العلماء يرى "الحديث المرسل" ليس كغيره ممن لم يتصل إسناده. ففي الحديث المرسل قد يكون الراوي المحذوف صحابياً - والصحابة جميعاً عدول - لذلك اختلفوا في قبول الحديث المرسل بين فريق يأخذ به بشروط، وفريق يرفضه.

والأحاديث التي لم يتصل إسناده، وحكم عليها أنها مردودة - كثيرة. ضربنا لها مثالين. وهناك أنواع كالمنقطع والمدلس وغير ذلك.

أما الحديث المرردود بسبب الطعن في الراوي فهو كثير أيضاً. والطعن في الراوي يكون: (١) برميته بالكذب (٢) أو التهمة بالكذب (٣) أو البدعة (٤) أو الجهالة (٥) أو فحش الغلط (٦) أو سوء الحفظ (٧) أو الغفلة (٨) أو كثرة الأوهام (٩) أو مخالفات الثقافات.

فهذه الأحاديث يعتبرها علماء السنة ضعيفة لا يعتد بها. وإن كان بعضهم قال بالعمل بها في صالح الأعمال، لكن رُدّ ذلك بقول بعض علماء الحديث: إن صالح الأعمال هي أحكام. والضعيف لا يعمل به في مجال الأحكام.

فما لم يكن صحيحاً أو حسناً أو ضعيفاً فإنه هو الحديث الموضوع.

فالحديث **الموضوع** هو الحديث المكذوب به، المخلوق، المصنوع، المنسوب إلى رسول الله ﷺ، ورواته مطعون فيهم، بما سبق أن ذكرنا من الكذب أو الفسق، وغير ذلك.

* * *

(١) رواه مسلم: البيوع: ١٥٤٢ والمزابنة نوع من بيوع الغرر، كأن يبيع ثمر النخل بالتمر كميلاً وبيع الكرم بالزبيب كميلاً. [أحمد جاد].

المبحث الثالث: ثبوت السنة بالإسناد

تعريف المتن والسند:

قبل التعريف نذكر مثالاً نبين فيه كلاً منهما: روى الإمام البخارى قال: حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا عبد الوهاب الثقفى قال حدثنا أيوب عن أبي قلابة، عن أنس عن النبي ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار".

فقوله ﷺ "ثلاث من كن فيه... الحديث" هو متن الحديث. وسلسلة الرواة الذين نقلوه هم سنده.

أ- فالمتن فى الاصطلاح: هو ألفاظ الحديث التى تتقوم بها معانيه. ولعل سبب هذه التسمية أنه هو الظاهر والمطلوب والغاية من الحديث كله. وهو فى المثال السابق: ثلاث من كن فيه... الخ.

ب- السند فى الاصطلاح: هو سلسلة الرواة الذين نقلوا المتن عن مصدره الأول، وهو طريق المتن، وسمى هذا الطريق سنداً، إما بسبب أن المسند يعتمد عليه فى نسبة المتن إلى مصدره، أو لاعتماد الحفاظ على المسند فى معرفة صحة الحديث وضعفه.

أما "الإسناد" فهو رفع الحديث إلى قائله: أى بيان طريق المتن برواية الحديث مسنداً. وقد يطلق الإسناد على السند. ولهذا نجد المحدثين يستعملون السند والإسناد بمعنى واحد. ونادراً ما يقولون: هذا الحديث روى بإسناد - جمع سند - صحيحه، بل يقولون روى بأسانيد - جمع إسناد - صحيحة^(١).

والإسناد هو الذى ارتضته الأمة حتى يسلم حديث رسول الله ﷺ من العبث به، أو الكذب فيه، أو التزيد عليه، أو النقص منه. قال ابن المبارك: لولا الإسناد لقال فى الدين من قال. وقد جاء فى مقدمة صحيح مسلم عن ابن سيرين قوله: لم يكونوا يسألون عن الإسناد. فلما وقعت الفتنة، قالوا سموا لنا رجالكم. فيُنظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم (أى فلا يروى إلا عن من ثبتت سلامته من كل طعن: فى دينه وخلقه وتعامله). وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ عنهم^(٢).

(١) أصول الحديث السابق ص ٢٢ - ٢٣ [معد الكتاب].

(٢) راجع مقدمة صحيح مسلم ص ١٥ دار الحديث.

وبهذا استقر علم الحديث رواية على أنه لا يُقبل حديث إلا بسند من لدن رسول الله ﷺ إلى دواوين السنة.. مسانيدها وصحاحها وحسنها. بشرط دراسة كل سند ومعرفة حال رجاله. فإن استجمع رجال السند كل الشروط المطلوبة لصحة السند، كان الحديث صحيحاً. وإن شابه في بعض حلقاته شيئاً يسيراً كان الحديث حسناً، وإن شابه ما يطعن في سلامته، كان الحديث مردوداً غير مقبول.

هذا الإسناد الذي ميّز لنا أنواع الحديث، وعرفنا ماذا نقبل منها وماذا نرد، هو من نعم الله على هذه الأمة، ومما يستر لها لكي تحفظ سنة نبيه. فقد تكفل الله تعالى بحفظ كتابه، ولم يتكفل بذلك للكتب السابقة. إذ قال الله عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر آية ٩] ^(١). ولكنه قال عن الكتب السابقة: ﴿... يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [سورة المائدة آية ٤٤]. أى بما طُلب منهم أن يحفظوا كتاب الله.

وقد طلب الله من عباده - كما طلب رسول الله منهم - أن يجتهدوا في المحافظة على كتابة سنة نبيه. مصداق ذلك ما جاء في خطبة رسول الله في حجة الوداع: "لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنتي" ^(٢). وقد روينا من قبل عن رسول الله أنه طلب منا أن نذيع سنته وأن نعمل بما في قوله: "نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره. فرب مبلغ أوعى من سامع" ^(٣).

ومن هنا ندرك أن الله أمر هذه الأمة أن تجتهد في حفظ سنة نبيه، فهداهم إلى "الإسناد"، الذى يهديها إلى سلامة الرجال الذين نقلوا حديث رسول الله طوال القرون المتتابعة. فأحدثوا هذا النظام الذى ساروا عليه طوال الأجيال المتتابعة، مما لم تعرفه أمة من قبل ولا من بعد. وإنك لتندهش إذا نظرت إلى القرن الثالث الهجرى، فوجدت أن هذا القرن ازدهر خلاله معظم السابقين فى تدوين الأحاديث النبوية وحفظها والدفاع عنها. مثل الإمام البخارى والإمام مسلم، والإمام احمد بن حنبل، ورجال السنن الأربعة أبى داود والترمذى وابن ماجه والنسائى، والإمام الطبرانى، والإمام أبى يعلى، والإمام ابن حبان، والإمام ابن خزيمة، والإمام ابن أبى الدنيا وغيرهم فكل هؤلاء عاشوا فى القرن الثالث، وخدموا علم

(١) يقول بعض الفقهاء إن الذكر هو القرآن والسنة وقد حفظهما الله تعالى. أما الكتب التى أنزلت من قبل فهى غير مسندة. [أحمد جاد].

(٢) الترمذى: مناقب: ٣٧٨٨ نحوه، واحمد: ١١٠٤٦/١٤/٣، ومالك فى الموطأ: القدر: ٣ ص ٦٨٦ بألفاظ مختلفة.

(٣) أبو داود: علم: ٣٦٦٠ نحوه، والترمذى: العلم: ٢٦٥٦ وغيرهما. وقال: حسن.

الحديث في مدوناتهم وكتبهم.

ثم تتابعت القرون بعد ذلك. فظهر لنا من يجتهد في المحافظة على الحديث نقلاً وجمعاً وتعليقاً. كالإمام النيسابوري الذي كتب مستدرکه تعليقاً على روايات البخارى ومسلم. وكما فعل الحافظ بن الأثير في جمعه كتب الحديث الستة في كتاب واحد سماه "جامع الأصول إلى أحاديث الرسول". ثم ظهرت المسانيد التي تسابقت في جمع السنة وهي تحوى آلاف الأحاديث.

وبهذا لم يتهيأ لأى أحد أن يطعن في سنة رسول الله الثابتة في جملتها. وإلا اتهم بالزيغ والفسق. ويستثنى من ذلك من يناقش حديثاً أو جملة أحاديث على أساس من العلم والفقه.

أجزل الله الثواب والأجر لهؤلاء الرجال العظام الذين شاركوا في حفظ السنة وشرحها والجمع بين دواوينها وكتبها.

* * *

المبحث الرابع: منزلة السنة من القرآن الكريم

القرآن الكريم هو وحى الله المعجز الذى نزل مصدقاً لكل الكتب، ومصححاً لما حَرَفَهُ البشر من كلمها عن مواضعه، ومصبغاً لما جاء فيها مما تحتاجه البشرية بعد ما كانت هذه الكتب خاصة لمن جاءت لهم.. وجاء القرآن الكريم فكان للعالمين ممن كان حياً من الناس أجمعين.. سواء كانوا من المؤمنين أم من غير المؤمنين.

وهو كذلك المصدر الأساسى للتشريع لكل نظام الحياة. فالله يقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سورة إبراهيم آية ١].. بل إن القرآن مع السنة كأتهما مصدر واحد.. وإنما سميا مصدرين بملاحظة الواقع واختلاف الوحي فيها.

فالسنة من حيث وجوب العمل بها، ومن حيث أنها وحى. هى بمنزلة القرآن الكريم. وإنما تلى القرآن بالمرتبة من حيث الاعتبار. لأن القرآن مقطوع به جملةً وتفصيلاً. والسنة مقطوع بها على الجملة لا على التفصيل. ولأنه هو الأصل، وهى الفرع. لأنها شارحة ومبينه له. ولا شك فى أن الأصل مقدم على الفرع والبيان مؤخر على المبين. وقد دل على ذلك حديث معاذ بن جبل حين بعثه الرسول ﷺ قاضياً إلى اليمن^(١).

فالحقيقة أن السنة وحى والقرآن وحى. فما كان الرسول الكريم يحكم أو يشرع من عند نفسه.. وإنما كان يُلقى فى روعه من وحى ربه. والقرآن الكريم يؤيد ذلك ويقرره.

وأما أن للرسول ﷺ سنته وتشريعاته من وحى، فهذا ما ذكرته الآيات الأولى من سورة النجم ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾. فانظر وتأمل قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾ ثم انظر إلى قوله تعالى ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ فإن قلت إنه يقصد بذلك وحى القرآن دون السنة، قلت فانظر إلى أول السورة فهو يقول ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾ ويقول أيضاً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ، لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيُحِقَّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة يس آية ٧٠].. ويقول للبشرية ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [سورة التكوير آخر آية].

(١) أصول الحديث السابق ص ٢٥ [معد الكتاب].

فليس لعباده بعد نزول كتابه ليستقيموا على طاعته وعلى المنهج الذى ارتضاه لهم فى حياتهم إلا هذا الكتاب المبين الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت آية ٤٢].

روى الحارث عن على بن أبى طالب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ستكون فتن كقطع الليل المظلم. قلت يا رسول الله فما المخرج؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى، هو نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل..". إلى آخر الحديث^(١).

وبهذا نعلم ونستيقن أن القرآن الكريم هو المنهج الشامل الذى رسمه الله - عبادةً وهدايةً وتشريعاً - لكل عباده من إنس وجن. كما قال سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات آية ٥٦]. وهذا المنهج - قرآن وسنة - يشتمل على الوحيين: وحي القرآن ووحى السنة.

وبهذا نؤمن ونستيقن أن كل ما جاء به هذا الدين مصدره الوحي الذى نزل به الروح الأمين مثل القرآن الكريم، أو الوحي الذى ألقى فى قلب الرسول الكريم مثل قوله ﷺ: "إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها. فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب"^(٢). ومن ذلك نرى أن السنة تشارك القرآن الكريم فى أنهما معاً المصدر الأصلى لنهج الحياة الدنيا والآخرة الذى ارتضاه الله وارتضاه رسوله للحياة الصالحة المستقيمة على هدى الله ورسوله.

يؤيد ذلك الكتاب الكريم والسنة المطهرة. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ (أى فى السنة) فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [سورة النساء آية ٨٠]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي (فى سنتى) يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [سورة آل عمران آية ٣١].

فالمصدر الأول لتعاليم الإسلام هو الوحي بالقرآن الكريم والسنة، فكلاهما وحي. وإنما قالوا عن السنة إنها المصدر الثانى بعد القرآن باعتبار الواقع العملى، وباعتبار منزلتها من القرآن، واستجابة لقول رسول الله ﷺ فى خطبته فى حجة الوداع الذى يراه بعض علماء السنة أنه حديث متواتر - وهو قوله: "لقد تركت فىكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنتى"^(٣).

(١) رواه الترمذى: ثواب القرآن: ٢٩٠٦ والدرامى: فضائل القرآن: ٣٣٣١

(٢) الجامع الصغير: ٢٢٧٣ وابن ماجه: ٢١٤٤ نحوه.

(٣) سبق تخريجه.

وحديث المقداد معد يكرب الذى روى عن رسول الله ﷺ قوله: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه (أى أحكام السنة)، لا يوشك رجل شعبان على أريكته، يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه.." (١).

كأن هذا الرجل ينكر السنة، ويرى الاعتماد على القرآن الكريم وحده.

وقد كتب الإمام السيوطى فى رسالة فى الرد على مثل هذا، أورد فيها حديثاً افتراه بعض الجهال - فقال رحمه الله: إن قائلاً زنديقاً روى حديثاً مفترى لا يحتج به، يريد بذكره أن السنة لا يحتج بها، وإنما يحتج بالقرآن خاصة، وذكر هذا الحديث الذى يقول: "ما جاءكم عنى (أى الرسول) فأعرضوه على القرآن، فإن وجدتم له أصلاً (أى فى القرآن) فاعملوا به، وإلا فردوه". قال الحافظ السيوطى تعقيباً على هذا: "اعلموا أن حكم الله، أن من أنكر كون الحديث النبوى - قولاً كان أو فعلاً بشرطه المعروف فى الأصول - فأنكر أنه حجة، فقد كفر، وخرج عن دائرة الإسلام، وحُشر مع الكفرة والفسفة".

روى الإمام الشافعى ﷺ يوماً حديثاً قال إنه صحيح.. فقال قائل: أتقول يا أبا عبد الله؟ فاضطرب الشافعى وقال: ما هذا؟ أرايتنى نصرانياً؟ أرايتنى خارجاً من الكنيسة؟ أرايت فى وسطى زئاراً؟ كيف أروى حديثاً عن رسول الله ﷺ ولا أقول به "أى أنه ﷺ ينكر على الرجل أن يقول المسلم حديثاً عن رسول الله، ولا يرى أن الرسول قاله." (٢).

* * *

الإحتجاج بالسنة:

والسنة فى الإحتجاج بها كالقرآن الكريم تجرى أحكامها كأحكام القرآن، كما فصله علماء الأصول فى كتبهم من فرض، أو سنة مؤكدة أو سنة مندوبة، أو مباحاً. وذلك متفق مع قوله تعالى فى سورة الحشر: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [آية ٧].

وقد صح أن الرسول الكريم شرع أموراً - بأمر الله - لم ترد فى القرآن الكريم. وهذه الأحكام ليست بياناً للقرآن ولا تطبيقاً له: كتحریم الحمر الأهلية، وكل ذى ناب من السباع، وتحریم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها، وأن لا يقتل مسلم بكافر، وجواز خيار الشرط، وثبوت الشفعة، وجواز الرهن فى الحضر، وإحداد المتوفى عنها زوجها (وهو زائد على ما فى

(١) أبو داود: السنة: ٤٦٠٤ وأحمد: ٤/١٣١: ١٧٠١٨ صحيح.

(٢) مقتبس من كلام الإمام جلال الدين السيوطى من رسالته "مفتاح الجنة فى الإحتجاج بالسنة" ص ٥ - ٦ - مطابع الرشيد بالمدينة المنورة.

القرآن الكريم من العدة) .. وكل هذا سنة يجب اعتباره والعمل به. (١)

وبناء على هذا فإن السنة مع القرآن على ثلاثة وجوه:

الأول: ما كان موافقاً للكتاب مؤيداً ومؤكداً ما فيه: كأحاديث الأمر بالصلاة والزكاة وتحريم الربا ونحوها.

الثاني: ما كان مبيناً ومفسراً لما جاء مجملاً في القرآن الكريم، فبينت السنة المراد منه، كبيان كيفية الصلاة وعدد ركعاتها وأوقاتها، وبيان شرط الفرع الوارث وغير ذلك.

الثالث: ما سن رسول الله ﷺ فيما ليس فيه نص من الكتاب كما بينا (٢).

* * *

منزلة السنة في الإسلام:

لقد رأيتُ أن يكون ختاماً لهذا البحث ما كتبه أخونا الأستاذ العالم المحقق الدكتور يوسف القرضاوى، نقلاً عن كتابه الممتاز "كيف تتعامل مع السنة النبوية" (الطبعة الأولى ص ٢٣) (النقل بتصرف) يقول: إن السنة هي التفسير العملى للقرآن، والتطبيق الواقعي والمثالي للقرآن. فقد كان النبي هو القرآن مفسراً، والإسلام مجسماً. ولقد أدركتُ هذا أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها)، عندما سُئلت عن حُلُق رسول الله، فقالت: "كان حُلُقُه القرآن" (٣)، وفي رواية مسلم: "حُلُقُه كان القرآن" .. فمن أراد أن يعرف المنهج العملى للإسلام، فيعرفه مؤصلاً مجسداً، في السنة النبوية القولية والعملية والتقريبية. فالسنة منهج شمولي. منهج يتميز بالشمول لحياة الإنسان كلها - طويلاً وعرضاً وعمقاً. ونعني بالطول: الامتداد الرأسى والأفقى بما يشمل حياة الإنسان من الميلاد إلى الوفاة، وإلى ما بعد الوفاة.

ونعني بالامتداد الأفقى الامتداد الذى يشمل حياة الإنسان كلها، بحيث تسير من حياة البيت إلى السوق والمسجد.. وفي الطريق إلى العمل.. وفي العلاقة مع الله والعلاقة مع النفس، والعلاقة مع الأقارب أو غير الأقارب، مسلمين أو غير المسلمين.

ونعني بالعمق: الامتداد فى أغوار حياة الإنسان. فهى تشمل الجسم والعقل والروح.

(١) أصول الحديث السابق ص ٣٣. [معد الكتاب].

(٢) أصول الحديث السابق ص ٣٤. [معد الكتاب].

(٣) مسلم: ٧٤٦ ورواه غيره.

● فالسنة منهج يتميز بالتوازن، التوازن بين الروح والجسد، التوازن بين الإقناع والإبداع.
 ● والسنة منهج وسط: ولهذا كان الرسول إذا رأى بعض أصحابه يميل إلى الإفراط أو التفريط، كان يردهم بقوة إلى الوسط، ويحذرهم من مغبة الغلو والتقصير. كما أنكر على الثلاثة الذين كأهم تقالوا عبادة رسول الله، فردهم إلى الوسط. وقال لهم: "أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له. ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني"^(١).

● والسنة منهج متميز: من خصائصه اليسر والسهولة والسماحة. فلا يوجد في سنة الرسول ﷺ ما يجرح الناس في دينهم، أو يرهقهم في دنياهم — بل هو يقول عن النفس: "إنما أنا رحمة مهداة"^(٢) وعندما بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن، أوصاهما وصية موجزة جامعة. "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا، وتطاوعا ولا تختلفا"^(٣). ويقول معلماً أمتة: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا"^(٤).

هذه هي السنة النبوية التي جعلها الله البيان والتفسير والتفصيل لقرآنه الكريم. فلا يتبين القرآن، ولا تتضح مناهجه إلا بما. حتى بالغ بعض السلف، كالإمام الأوزاعي وابن مكحول فقالا: "إن السنة قاضية على القرآن وليس القرآن بقاض على السنة". فلما سمع ابن حنبل ذلك قال: "لا أجرؤ أن أقول هذا. وإنما أقول: إن السنة تفسر القرآن وتبينه"^(٥). فهو لم يعارض ما قاله الأوزاعي وابن مكحول. بل رد عبارة مؤدبة.

* * *

واجب المسلمين نحو السنة:

وما يترتب على ما ذكرنا، ومما ثبت من تحليل، أن للسنة حقوقاً على المسلمين لكي يكونوا بحق مسلمين مؤمنين. إذ عليهم أن يعرفوا منهاجها النبوي المفضل، بما فيه من خصائص الشمول والتكامل والتوازن والتيسير.^(٦) وما يتجلى فيه من معاني الريانية الراسخة، والإنسانية السامية.

* * *

(١) رواه البخاري عن أنس: النكاح: ٥٠٦٣ وغيره.

(٢) انظر: الجامع الصغير: ٢٥٨٣ صحيح.

(٣) البخاري: الجهاد: ٣٠٣٨، ومسلم: الجهاد: ١٧٣٣.

(٤) مسلم: الجهاد: ١٧٣٢ وروى بألفاظ أخرى.

(٥) نقلاً عن كتاب "كيف تتعامل مع السنة النبوية".

(٦) الكتاب السابق.

المبحث الخامس: حجية السنة

الأدلة التي تثبت أن السنة مصدر من المصادر التشريعية التي تستنبط منها أحكام الشريعة وآدابها في الإسلام، هي:

(١) من لوازم الإيمان بالرسالة وجوب قبول كل ما يرد عن الرسول ﷺ في أمر الدين. فالرسول أمين على شرع الله، لا يبلغ في أمر الدين إلا ما يوحى إليه. فمقتضى الرسالة والعصمة (وقد أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء جميعاً) يوجب الاعتماد على السنة والاحتجاج بها، والتأسي بصاحبها ﷺ.

(٢) في القرآن الكريم آيات كثيرة تنص على طاعة الرسول ﷺ، وما طاعته إلا الإذعان له في حياته والعمل بسنته، والافتداء بهديه بعد وفاته.

قال الإمام الشافعي (ذكر الله الكتاب - وهو القرآن - وذكر الحكمة فسمعت من أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله). وذهب كثير من أهل العلم إلى أن المراد من الحكمة هو السنة - وعلى هذا يكون الله ﷻ قد نص في الكتاب الكريم على وجوب العمل بالسنة، كما نص في آيات أخرى على وجوب طاعة الرسول ﷺ - وكل هذا دليل على الاعتداد بالسنة، وعلى اعتبارها مصدراً من مصادر التشريع في الإسلام.

(٣) حجية السنة من السنة: قال ﷺ: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما مسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه"^(١) وعن المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه"^(٢). وعن العرياض بن سارية رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ"^(٣).

وتدل هذه الأحاديث على أن الرسول ﷺ أوتى الكتاب والسنة، وتوجب التمسك بهما، والأخذ بما في السنة كما يؤخذ بما في الكتاب.

بل لقد ذم الرسول ﷺ من يترك الحديث النبوي متذرعاً بالاعتماد على ما جاء في القرآن الكريم فقط. فقال ﷺ: "لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري،

(١) أخرجه الإمام مالك بلاغاً انظر الموطأ: في القدر: ص ٦٨٦ ج ٢ حديث ٣.

(٢) جزء من حديث أبي داود: السنة: ٤٦٠٤، وأحمد: ١٣١/٤ : ١٧٠١٨. صحيح.

(٣) جزء من حديث أبي داود: السنة: ٤٦٠٧.

مما أمرت به أو نهيته عنه - فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه" (١)

٤) الإجماع: فقد أجمعت الأمة الإسلامية على العمل بالسنة، استجابة لله عز وجل وللرسول وتقبل المسلمون السنة كما تقبلوا القرآن الكريم.

لكل هذا اعتنى المسلمون بالسنة النبوية، ونقلها الخلف من السلف، جيلاً بعد جيل، ورجعوا إليها في جميع أمور دينهم، وعملوا بما فيها وتمسكوا بها، وحافظوا عليها. (٢)

* * *

رأينا فيما أوردنا أن السنة وحى من الله على نبيه، وأنها مع القرآن المصدر الرباني للشرعية، وكل ما أراد الله لعباده من حياة كريمة في الدنيا والآخرة.

ورأينا أن بعض أديعاء العلم ينكرون السنة، أو يقول بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً أحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمانه. وكيف كان حديث أبي داود وغيره من كتب السنة، بما ورد في الحديث من إنكار رسول الله لهذا القول. ثم في الحديث "أوتيت الكتاب ومثله معه" (٣). وكذلك جاء في حديث أبي داود الذي رواه معد يكرب "نهى النبي ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر" (٤). كما حرم رسول الله كل ذي مخلب وناب" (٥). قال ﷺ: "ألا وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله" (٦). وقد عقب الإمام البيهقي بقوله: هذا خبر عن رسول الله عما يكون بعده. من رد المبتدعة. فقد عهد الصحابة من يرد ذلك، أو من يرى السنة غير كافية لبيان الأحكام.

قال رجل لعمران بن حصين: إنكم تاتوننا بأحاديث لم نجد لها أصلاً في القرآن. فغضب عمران وقال للرجل: قرأت القرآن؟ قال: نعم. قال عمران: هل وجدت العشاء أربعاً، والمغرب ثلاثاً، والعصر أربعاً، والغداة ركعتين، والظهر أربعاً؟ فقال الرجل: لا. فقال ابن حصين: أخذنا وأخذتم ذلك عن رسول الله ﷺ.

وقال ابن عبد البر - الفقيه الأندلسي - عن عبد الله بن حزم، أنه رأى مُحْرِمًا عليه ثيابه فنهاه عنها، وطالبه بلبس الإحرام. فقال في أي آية من كتاب الله أنزع ثيابي؟ فقرأ عليه:

(١) رواه أبو داود: السنة: ٤٦٠٥، والإمام الشافعي بسنده في الرسالة ص ٨٩ فقرة (٢٩٥).

(٢) أصول الحديث ص ٢٥ - ٢٨ [معد الكتاب].

(٣) أبو داود: السنة: ٤٦٠٤، وأحمد: ١٧٠١٨/١٣١/٤ صحيح.

(٤) البخاري: الذبائح: ٥٥٢١ ومسلم: ١٤٠٧ وغيرهما.

(٥) مسلم: صيد: ١٩٣٤ نحوه، أبو داود: أطعمة: ٣٨٠٣، الدرامي: ١٩٨٢.

(٦) أبو داود والبيهقي.

﴿وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [سورة الحشر آية ٧].

وقد ورد في القرآن الكريم بما يؤيد موقف هؤلاء الأمة. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ كَرًّا لِّتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل آية ٤٤]. وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا. فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ، أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور آية ٦٤].

ومن أيام السلف الصالح وأمتنا تحمى تراث النبوة، وتدفع أوهام الزندقة، وانتحال المبتدعين. وقد عرضنا من قبل أمثال ذلك. ويعد الكذب على رسول الله طريقاً للخلود في النار، لأنه تزوير في الدين، وافتراء على رسول الله. وقد قال الرسول في الحديث المتواتر المقطوع بوروده: "إن كذباً علىّ ليس ككذب على أحد. من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".^(١)

كان ذلك منهج أمتنا محافظةً على تراث النبوة والدين حتى اليوم. وكل عصر فيه مبتدعون مفترون، ولكن عظمة كتابنا، وقوة نقله جيلاً بعد جيل بالنقل التواتري منذ لقاء الروح الامين برسول الله في غار حراء إلى يومنا هذا. وهذا النقل الذي يجعله مقطوعاً بوروده، مصوناً من كل عبث. وبهذا انفرد عن سائر الكتب المنزلة.

وكذلك السنة المطهرة في طريقة ورودها عن رسول الله بالنقل التواتري أو بطريق الإسناد في كل حديث من أحاديثه، بحيث يخضع كل سند للتحقيق والتدقيق في رجال السند وفي المتن. بحيث لا يقبل حديث إلا إذا اشتمل على الشروط الخمسة التي لا بد منها لكل حديث مقبول. أما الحديث الذي لا يتحقق فيه ذلك فإنه يُرد، ويرفض على أنه ضعيف أو مرفوض.

وكان ذلك شرفاً لأمتنا، ومعونة من الله تتميز به عن سائر الأمم، لأنه تعالى بتخطيطه المحكم جعل هذه هي الأمة الخاتمة. وسيرفع نبيها إلى الرفيق الأعلى - ولا نبوة بعده إلى آخر الزمن - وصدقت القرون الأربعة عشر بعد هذا القول. فالوحي الإلهي باقٍ خالد بالقرآن الكريم.. ولكن الوحي النبوي انقطع، وبقي سنة خالدة يحتكم إليها الناس مع الوحي الإلهي (القرآن). ومن أجل ذلك يسر الله لهذه الأمة أن تحفظ تراث نبيها، حتى لا يحتاج البشر إلى نبوة بعد رسول الله ﷺ. وهكذا ختم نظام النبوة.

* * *

(١) سبق تخرجه.

الباب الثاني أثر القرآن الكريم في الناس والحياة

الفصل الأول: معجزات القرآن ومدار تأثيرها في حياة الناس.

الفصل الثاني: القرآن الكريم يدعو إلى أسس ثابتة في منهج الإسلام.

الفصل الثالث: أثر القرآن الكريم في حياة الناس.

الفصل الأول

معجزات القرآن ومدار تأثيرها في حياة الناس.

المبحث الأول: الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم

القرآن الكريم - حامل الرسالة الإسلامية - كان وسيظل النموذج الذي لا يبارى في الأدب العربي، إذ يعتبر المثل الأعلى لما يمكن أن يسمى أدباً بوجه عام. ففي العصر الذهبي للغة العربية ما أن ظهر القرآن الكريم حتى اكتسح الحماس للشعر والنثر. وأنزلت المعلقات السبع من باب الكعبة واتجهت كل الأسماع إلى هذا الإعجاز الجديد في اللغة العربية.

فلغة القرآن الكريم ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكاً من النثر، وأقل نظماً من الشعر، يتنوع في خلال الآية الواحدة ليجذب نشاط السامع، ويتجانس في آخر الآيات سجعاً لكي لا يختل الجرس العام للوقوفات في كل سورة.

ويمتاز أسلوبه بالإيجاز العجيب في الكلام، والتركيز الشديد في المعنى، والوضوح الأخاذ مع العمق والمرونة والإيحاء والإشعاع في كل جانب مثل أوجه قطعة الماس البراقة.

وإنها لحقيقة مقررة أن جميع الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية والفكرية يلتقون على فهم القرآن، كأن كل عبارة فيه مفصلة تفصيلاً بما يناسب عقلية كل منهم.. وكل هذا في موضوعات غير مطروقة في الأدب الجاهلي، بحيث يحق لنا أن نؤكد أنه من الناحية اللغوية البحتة، كان ظهور القرآن الكريم "خلقاً" للغة جديدة ولأسلوب جديد.

ولقد سجل التاريخ العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن - وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي.. حيث المجامع اللغوية.. وأسواق العرب التي تعرض فيها بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة.. فما استطاع أحد أن يبارى القرآن الكريم أو يحاربه. بعد أن تحداهم القرآن الكريم وكرر التحدى في صور شتى متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف.

فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم بسورة مثله، ثم بسورة من مثله (وهو انتقال من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل - أي من جنس المماثلة) وكان هذا آخر صيغ التحدى نزولاً.. وأباح لهم أن يستعينوا بمن استطاعوا ثم رماهم والعالم كله بالعجز ﴿لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ

مِنْهُ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً﴾ [سورة الإسراء آية ٨٨]. وقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا - وَلَنْ تَفْعَلُوا - فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [سورة البقرة آية ٢٤].

ولقد أجرى الدكتور محمد عبد الله دراز دراسة أيام تدريسه بالأزهر على سورة البقرة المدنية وعلى سورتين مكيتين هما سورتا يونس وهود - كانت كلها مقررة في البرنامج الدراسي، فاكشف أن لهذه السور تخطيطاً حقيقياً واضحاً، ومحدداً يتكون من دياجعة وموضوع وخاتمة.

وقال في تعليقه: فإذا أخذنا في اعتبارنا التواريخ التي لا حصر لها، والتفتيت المتناهي في نزول الآيات، ولاحظنا أن نزول الوحي بوجه عام كان مرتبطاً بظروف ومناسبات خاصة. فإن ذلك يدعونا إلى التساؤل عن الوقت الذي تمت فيه عملية تنظيم كل سورة على شكل وحدة مستقلة. وهذا التساؤل يضعنا أمام نقطة محيرة. فسواء افترضنا أن هذا الترتيب كان قبل اكتمال نزول القرآن أو بعد اكتماله، فقد كان المتوقع أن يتم اتباع إما الترتيب التاريخي لنزول الآيات، وإما الترتيب المنطقي البسيط بحسب تجانس الموضوعات. إلا أنه من الملاحظ أن السور القرآنية تتنوع موضوعاتها ولا تخضع لأي فرض من الفرضين أو لأي ترتيب من الترتيبين السابقين. مما يدعونا إلى ترجيح وجود تصميم أو تخطيط معقد يكون قد وضع في وقت سابق على نزول القرآن. ولكن سرعان ما نميل إلى الانصراف عن هذا الافتراض بسرعة بسبب مدى الاستحالة التي ينطوي عليها تصور أن يوضع نظام سابق كهذا يتم به ترتيب تحكيمي بين فقرات حديث سوف يطلب إلقاءه أو إظهاره على مدار ثلاثة وعشرين عاماً، وبما يتفق ويتناسب مع عديد من الملابس والظروف والأحداث التي تستدعي إظهار هذا الحديث، والتي لا يمكن توقعها أو التنبؤ بوقوعها أو بتوقيت وقوعها.

غير أن السنة النبوية تؤكد لنا هذا الافتراض الغريب وتؤيده فإن الرسول ﷺ فور نزول الوحي عليه - كان يأمر بوضع كل جزء منه صغيراً أو كبيراً في سورة لم تكن قد اكتملت بعد، وفي مكان محدد منها، وفي موضع رقمي من آياتها، وفي ترتيب لم يكن دائماً هو الترتيب التاريخي. وبمجرد وضع الآية أو الآيات في هذا الموضع أو ذلك، بقيت فيه إلى الأبد، دون أن يطرأ عليها أي تحويل أو تصحيح أو تعديل أو وصلات.

من هذا نقول أنه لا بد أنه كان هناك تصميم لكل سورة، فضلاً عن وجود تصميم أو خطة عامة للقرآن في جملته، بمقتضاها كان كل وحى جديد يوضع في مكانه تواءم بين آيات هذه السورة أو تلك من السور المفتوحة. وكأن آيات القرآن كانت قطعاً مستقلة ومرقمة في بناء قائم في مكان، وكان يراد إعادة بنائه في مكان آخر على نفس هيئته السابقة. وإلا فكيف يمكن تفسير هذا الترتيب الفوري والمنهجي في آن واحد، فيما يتعلق بكثير من السور

إذا لم تكن الصحائف الخالية والصحائف النامة تمثل وحدة كاملة في نظر المؤلف؟
وهناك تخطيط آخر ذو طابع أسلوبى، وبمقتضاه نلاحظ أن الأجزاء التي ستتجاوز
مجهزة مقدماً بطريقة معينة وبحيث يتزاوج بعضها مع بعض بدون ثغرات أو تصادم.
ولا شك أن طريقة القرآن هذه ليست لها مثيل على الإطلاق، ولا يمكن لأى كتاب
من الكتب في الأدب أو فى أى مجال - أن يكون قد تم تأليفه على هذا النحو الفريد أو فى
مثل هذه الظروف العجيبة.

ويعنى آخر إذا كان الاضطراب فى النظام المنطقى أو الخلل اللغوى والبلاغى هما
نتيجة حتمية لمثل هذا المشروع لو حاول أن يضطلع به إنسان بسبب ما يشتمل عليه من
تعقيد محير ومن صعوبات جمّة، ألا ينبغى أن نستنتج أن اكتمال هذه الخطة وتحقيقها بالصورة
المطلوبة، لا بد وأن يستلزم تدخلاً من قوة عظمى تتوفر فيها هذه القدرة الفائقة على إقامة
مثل هذا التوافق المعجز؟ وإلا فمن هو هذا المخلوق الذى يستطيع أن يوجه الأحداث بما
يتوافق تماماً مع هذا التصميم المرسوم؟ أو كيف يمكن أن نخرج من مجموعة مصادفات بمثل
هذا البناء الأدبى الرفيع ألا وهو القرآن الكريم؟

فإذا كانت السورة القرآنية من نتائج هذه الظروف تكون وحدتها المنطقية واللغوية فى
نظرنا هى معجزة المعجزات. ولقد صرح بوجود هذه الوحدة المزدوجة كثير من ذوى
الاختصاص فى هذا الموضوع من بينهم أبو بكر النايصبورى، وفخر الدين الرازى، وأبو بكر
بن العربى، وبرهان الدين البيهقى، وأبو أسحق الشاطبى. ولمراجعة هذا على بعض المختارات
من القرآن. نشير إلى كتابنا "النبأ العظيم".

إلا أن إعجابنا يصل إلى ذروته إذا أدركنا أن هذه الأجزاء المتفرقة من الآيات القرآنية
قد اتبعت فى نزولها تخطيطاً آخر مختلفاً تمام الاختلاف عن التخطيط الذى تحدثنا عنه فى
الفقرات السابقة، وما علينا إلا أن نستعرض من أولها إلى آخرها - المراحل التدريجية لهذا
التخطيط الثانى خلال الثلاث والعشرين سنة: من النبوة إلى الرسالة (من "اقرأ" بسورة العلق
إلى "قم فأندر" فى سورة المدثر)، ومن الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية (الحجر ٩٤)، ومن
دعوة الرسول لأقاربه (الشعراء ٤ - ٢١) إلى دعوة مكة بأسرها (القصص ٥٩)، ثم القرى
المجاورة (الأنعام ٩٢)، ثم البشرية جمعاء (الأنبياء ١٠٧)، ومن إرساء القواعد الأساسية
للإسلام (فى السور المكية)، إلى التطبيق العملى (فى السور المدنية)، ومن التبغيض فى شرب
الخمر (البقرة ٢١٩) إلى تحريمها صراحة (المائدة ٩٠)، ومن الدعوة إلى الصبر واحتمال
الأذى (النساء ٧٧) إلى المقاومة المسلحة (البقرة ١٩٠)...

ويكفى أن نسجل هنا تاريخين على جانب من الأهمية: الأول تاريخ انطلاق

الدعوة: يوم غار حراء وتلقى النبي ﷺ الوحي لأول مرة (العلق ٤-٥)، وأنه سيكلف بمهمة شاقة (المزمل ٥). والتاريخ الثاني: وهو حجة الوداع، حين أعلن الرسول أن رسالته قد تمت، وأن مهمته على الأرض قد انتهت (المائدة ٣)، وبعد ذلك لم يلبث الرسول ﷺ أن لحق بالرفيق الأعلى.

إن هذا التطور إذن كان متفقاً مع خطة تربوية تشريعية موضوعة في وقت سابق، في إجمالها وفي تفصيلها، بمعرفة منزل الوحي سبحانه وتعالى، فإذا كانت هذه الآيات ذاتها التي كانت تتبع في نزولها تخطيطاً تربوياً ممتازاً، قد تحولت بمجرد نزولها في ترتيبها التاريخي لكي تتوزع وتتجمع في شكل آخر على هيئة إطارات محددة، ومختلفة الأطوال، بحيث يظهر في النهاية من هذا التوزيع المقصود، كتاب يقرأ، مكون من وحدات كاملة، لكل منها نظامها الأدبي والمنطقي، لا يقل روعة عن النظام التربوي العام، فهذا هو التخطيط المزدوج الذي لا يمكن أن يصدر عن قلب بشر..^(١)

* * *

(١) د. محمد عبد الله دراز - المدخل إلى القرآن الكريم. [معد الكتاب].

المبحث الثاني: الإعجاز العلمي في القرآن

اللغة لغة العرب، والعلم لغة العالم.

ولكن القرآن ليس للعرب وحدهم. وإنما جاء للناس كلهم بمقتضى دعوته العالمية التى هى من أسسه الثابتة. وفى هذا المجال يكون الإعجاز العلمى الذى يتناسب مع كل موقف. فهناك الإعجاز العلمى عند تقدم الحضارة فى العالم. فىكون العلم هو اللغة التى يلتقى عندها الناس جميعاً. وفى هذا المجال تظهر عظمة القرآن و تفرده فى مجال التقدم العلمى الذى يغمر العالم اليوم.

موريس بوكاي^(١) يشهد:

كتب الطبيب العلامة الفرنسى موريس بوكاي كتابه بعنوان "الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة". و هو مع كونه مسيحياً كاثوليكياً - كما ذكر فى كتابه - يخلص من خلال دراسته - بعد المقارنة بين الكتب الثلاثة - إلى نتيجتين: الأولى أن النص القرآنى هو النص الوحيد الذى يمكن نسبه إلى الله. والثانية أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذى لا يصطدم مع التقدم العلمى. وهذا هو مظهر الإعجاز العلمى للقرآن. و لا سيما بعد أن قدم كثير من العلماء المسلمين و غير المسلمين بحثاً فى توافق الآيات القرآنية مع العلم. وليس ذلك أمراً محدثاً.

مصطفى صادق الرافعى وداود الانطاكى:

فقد قدم الكاتب المسلم الذى يسميه بعض العلماء إمام البلغاء الأستاذ مصطفى صادق الرافعى يقول فى كتابه "إعجاز القرآن": إن الطبيب المشهور داود الأنطاكى - صاحب تذكرة داود فى الطب المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ، أى فى أوائل القرن الحادى عشر للهجرة. يعنى أنه ليس من عصرنا الذى اشتدت فيه الصراعات العلمية. وإنما توفى منذ أربعمائة سنة. والآية التى فسرهما علمياً هى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون آية ١٢-١٤].

ويختتم الأنطاكى بقوله: "وفى الآية من العجائب ما لا يمكن بسطه هنا، وكذلك سائر آيات هذا الكتاب الأقدس".

(١) سبق نقل كلامه بالتفصيل فى أول الكتاب. [التعريف بالقرآن من البشر].

و أنت لو عرفت ألفاظ هذه الآية على ما انتهى إليه علماء تكوين الأجنة، وعلماء التشريح، و علماء الوراثة، لرأيت فيها دقائق علومهم، كأن هذه الألفاظ إنما خرجت من هذه العلوم نفسها. (١)

الغمراوى يشرح:

وكثير من علماء المسلمين جاء بأمثلة متعددة فى الإعجاز العلمى مثل الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى كتابه القيم " سنن الله الكونية". فهو يذكر الآية من القرآن الكريم ثم يبين ما فيها من الإعجاز العلمى المتفق مع ما وصل الإنسان إليه فى الفيزياء (الطبيعة وعلم الأحياء) فىأتى بآيات: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ [سورة النور آية ٤٣].

ومفتاح هذه الآية ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ فقد كان الناس يعمرون على هذه الكلمات الكريمة يرونها مجازاً من المجازات البلاغية. بينما هى صيغة من أمهات الحقائق الكونية. وهذه الكلمات مفتاح الآية الكريمة لأنها تدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التى تقوم عليها تلك الظواهر الجوية كلها، فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة، بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاوب ويتعبأ فى الجو تعبئة كتعبئة الجيوش، يتفق مع ما يريد الله أن يخلق من بين السحاب من برق وصواعق، و من مطر أو بَرَد.

فإذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض، نشأ السحاب الركام. و قد ذكرنا لك من قبل ما وجدوه من أن عمق الركام فى العواصف الرعدية يكون عظيماً، فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض الطبقات. فإن كان هو الغالب نزل المطر الناشئ عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا، وتكرر قطراته أثناء نزولها. فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية فى ذلك السحاب الركام من القوة ومن الاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة، ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين، ثلجية علوية ومطرية سفلية، تكون البرد، واما حتى يصير أثقل من أن يظل فى أسر تلك القوى فيسقط على الأرض رحمة إن كان صغيراً، ونقمة إن كان كبيراً راجماً. وذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾.

وإني كنت أريد أن أكتفى بهذا القدر من التفسير العلمى، وأجدني لا أستطيع أن أترك تفسير هذا العالم الجليل لقوله تعالى ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة الواقعة آية ٧٠]. والآية هنا تتحدث عن رحلة نزول المطر. إذ يقول أستاذنا: "والناس

(١) يراجع فى هذا "إعجاز القرآن" للرافعى ص ١٥١ - الطبعة الرابعة - مطبعة الاستقامة ١٩٤٥.

جميعاً يسلمون بالقدرة الإلهية في تحويل الماء العذب إلى أجاج، ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق. ولا يتساءلون هل في سنن الله ما يسمح بهذا؟ ولو تساءلوا لوجدوا الجواب في العلم قريباً. ولعرفوا أن عذوبة الماء الذي يسقيهم الله إياه من السحاب هو من رحمة الله. إن الماء عذب بطبيعته. وماء المطر معروف أنه أنقى المياه، لكن طبيعة تكونه من السحاب تعرضه لأن ينقلب أجاجاً ولا ينتفع به الإنسان. إن الهواء - كما تعرف - أربعة أخماسه أزوت أو نيتروجين. الأزوت لا يمكن أن يتحد في العادة بشيء، ولا بالأكسجين الذي يكاد يتحد بكل شيء. لكن الكيميائيين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية أن يحولوا الأزوت غير الفعال إلي أزوت فعال يتحد بأشياء كثيرة. كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الأزوت على الاتحاد بالأكسجين بإمرار الشرر الكهربائي في مخلوط منهما، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للأزوت قابلة للذوبان في الماء. وإذا زاد فيه اتحد به وكون حمضين أزوتين: حمض الأزوتك وماء النار. كما كان يسمى من قبل. وقليل من حمض الأزوتك كاف لإفساد طعمه. والآن بدأت تدرك الطريق الذي يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماءً أجاجاً. وليس ذلك من خوارق الطبيعة. وإنما هو من العلم الذي أودعه الله في الطبيعة. ولكن الله بحكمته وبعلمه قدّر في تكوينه أن ينزل المطر بقدر، حتى يكون معه صلاح الناس وسلامتهم. ولو شاء الله لأنزل المطر بصورة تجعله أجاجاً قاتلاً لأنه "ماء النار" يمتزج ماء المطر بالكهربائية التي نجدها مع السحب التراكمية التي تظهر في البرق والرعد. ولكن رحمة الله حمت عباده. ولو شاء في أي لحظة أن يصيب وينتقم لصير المطر أجاجاً مهلكاً. أفلا يشكرون؟" (١).

أبو الاعلى المودودى يكتب:

ونحن في عصرنا هذا الذي اتسعت فيه الدراسات العلمية والكونية، أصبح يسيراً لدينا أن ندرك الإعجاز فيما حولنا. يقول الأستاذ أبو الاعلى المودودى في كتابه الموجه للطلبة متحدثاً عن ظاهرة التمدد والتقلص في الماء الذي يخالف به بقية المواد السائلة. يقول عن هذه الظاهرة الكونية التي هي من أكبر الدلائل علي الإعجاز العلمي في هذا الكون. "فقد يتمدد بالبرودة فيجمد ويصير ثلجاً ويخف ويطفوا فوق الماء أو يتمدد بالحرارة فيعود ماءً سائلاً تتدفق به الأنهار".

لكن لماذا يخالف الماء بقية المواد الأخرى في ذلك؟: لأن الماء إذا تقلص جمده وخف وزنه. فكلما جمده وخف وزنه ارتفع إلى سطح الماء، ولم ينزل إلى القاع. ولو نزل إلى القاع واستقر فيه لماتت الحيوانات المائية. وضاع غذاء الإنسان من الأسماك وغيرها. وضاع الانتفاع

(١) نقلاً عن كتاب الشيخ محمد الغزالي: "رسالة القرآن" من مطبعة وزارة الأوقاف أخذاً من كتاب "سنن الله الكونية" للعلامة الدكتور محمد أحمد الغمراوي.

بالماء.

وإنما يخالف الماء بقية المواد لأن ذلك من رحمة الله بعباده. وليظل الماء نعمة للبشر، يجدون فيها معاشهم. كما أن الماء يتجمد في معظم البحار البعيدة عن القطبين فلا يرتفع إلى سطح الماء حتى تتاح للسفن التجارية وغيرها السير السليم من العقبات. وهذا الذي يحدث للماء نوع من الإعجاز الإلهي في صنعة الله في تكوين الكون، كما هو إعجاز علمي لا شك فيه.

د. زغلول النجار:

وفي عصرنا الحديث توصل العلماء إلى اكتشاف أنواع أخرى من الإعجاز العلمي. فقد ذكر الدكتور العالم الأستاذ زغلول النجار أنواعاً كثيرة من الإعجاز العلمي للقرآن، أقتطف منها ما قاله في شأن الحديد.

فالحديد مادة من المواد التي تتكون منها طبيعة الأرض. ولكن انفرد من بين المواد بأنه ليس أصلاً من مواد الأرض، وأثبتت الدراسات العلمية أن الأرض وقت تكوينها عندما كانت ذرات هائلة نزلت إليها ذرات الحديد من الأجرام الأخرى، لتتكون المغناطيسية التي تجعل الأرض تأخذ مدارها منجذبة بمغناطيسيتها إلى الشمس وغيرها في مدارها الكوني.

والظاهرة العلمية التي أثبتها الدكتور زغلول النجار في مؤتمراته العلمية أمام علماء غير مسلمين وخصوصاً في مؤتمر سيدني باستراليا. إذ أثبت أن "الوزن الذري" للحديد هو (٥٧) وهو رقم السورة التي ذكر فيها الحديد، و"الرقم الذري" للحديد هو رقم الآية التي ذكر فيها الحديد. وهو قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [سورة الحديد آية ٢٥].

وكثير من الظواهر العلمية في تكوين الأرض والأفلاك والنجوم. قد استطاع العلماء أن يكتشفوا كثيراً منها، فضلاً عن الدراسات الإنسانية في طبيعة الإنسان وما اكتشف فيه من إعجاز علمي في تكوين جسمه وخصائص عناصر خلقه. وكل ذلك من تدبير العزيز العليم ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة السجدة آية ٧].

* * *

الفصل الثاني

القرآن الكريم يدعو إلى أسس ثابتة في منهج الإسلام

المبحث الأول: الدعوة لوحدة الإله

الإله في الإسلام وفي اعتقاد كل المسلمين، يختلف عن مفهوم الإله في الأديان التي عرفها البشر. فلقد قرر علماء الأديان المقارنة أن مفهوم الإله لم يرتق إلى درجة التجرد والصفاء والنقاء من مشابهة الحوادث إلا عند المسلمين.

أ- فالإله كما قرر الإسلام واحد لا يتكاثر ولا يتناسل. ولا يتعدد. فهو لا يتكاثر كآلهة الفراعنة: فإله للخصب وإله للموت وإله للشمس، ولا يتناسل كآلهة الإغريق والرومان. وإنما هو إله واحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له صاحبة فيأتي منها النسل، قال تعالى: - **﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾** [سورة الأنعام آية ١٠١]. ويأمر الله نبيه أن يعلن وحدانية الله التي لا تناسل فيها ولا كفاء لها فيقول سبحانه: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾** [سورة الإخلاص].

ولا يتعدد كما يدعى الوثنيون حتى جعلوا حول الكعبة آلهة بلغت ثلاثمائة وستين إلهاً مزيفاً سفههم الله تبارك وتعالى بقوله: **﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾** [سورة الفرقان آية ٣]. ودعاهم الله إلى عبادة الواحد الأحد. فأمر نبيه أن يعلن: **﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الدَّلِّ وَكَبْرَةً تَكْبِيرًا﴾** [سورة الإسراء آية ١١١].

ب- والله الواحد الأحد لا يحتل الثنائية أو الازدواجية. فهو واحد في ذاته. وواحد في صفاته. وواحد في أفعاله. واحد في أسمائه. لا يقبل الشركة في أى منها.

وقد أعلن القرآن الكريم رفض الثنائية بقوله تعالى: **﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِذَا يَدْعَاهُمْ يَفِرُّونَ. وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾** [سورة النحل آية ٥١-٥٢]. **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** [سورة فصلت آية ٣٧].

ج - بل أكثر من ذلك أنه سبحانه خلق السماوات والأرض وقدر لهما أمرهما

لتخدما الإنسان وتقوما بمصالحه وحاجاته.

فالله تبارك وتعالى عندما خلق الأرض أخبرنا أنه خلقها على صورة تمكن الإنسان من أن يعيش فوقها، وكان من الممكن ألا تكون كذلك بأن يجعلها بعيدة عن الشمس. فلا تنتفع بحرارتها. أو قريبة من الشمس فتكون حرارتها العالية مانعة من الحياة فوق الأرض. استمع لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الأعراف آية ١٠]. بل إنه سبحانه وتعالى يوضح ذلك ويفصله بقوله ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [سورة النازعات آية ٣٠-٣٣]. وقال: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة النحل آية ١٥].

وهذه الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار كل ذلك مسخر لنا. لمنفعتنا. بقوله سبحانه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [سورة النحل آية ١٢].

فهذه الكائنات الضخمة ليست مجرد كائنات عظيمة التكوين، بل إنها خلقت وهيئت لنفع الإنسان وقضاء حاجاته، فكيف تكون معبودة من دون الله؟.

د- ومفهوم الإله غير ما يقرر الفلاسفة، ولا سيما أرسطو وتلاميذه. فإنه أرسطو (أو واجب الوجود) كما يسميه. معنى بذاته. ومعنى بجماله، وهو غافل عن الكون لا يعلم عنه شيئاً. وإنما يتحرك الكون إليه منجذباً إلى جماله. فهو الإله الذى "يحرك ولا يتحرك"، وليس معنى أنه يحرك أنه يحرك بإرادة وعلم وتديبير. كلا. وإنما يحرك الكون بجماله، حيث يدفع جماله الكائنات أن تتحرك فينجذب إلى جمال هذا الواجب الوجود.

ولقد اقتبس فلاسفة المسلمين ومتكلموهم وصف الله بأنه "واجب الوجود". أى الذى وجوده من ذاته، ووجوده لا يتخلف ولا ينقطع، وهذا حق. أما وجود غيره فقد يتخلف وقد ينقطع. فكل ما سواه (ممکن الوجود). أما الله سبحانه فهو وحده (واجب الوجود).

وفى هذا القدر صحة وسلامة فيما نقل عن فلاسفة الإغريق. أما صلة واجب الوجود بالكون والمخلوقات فى زعمهم، فقد أسرفوا فى البعد عن الحقيقة. ولا سيما فى قولهم: إنها صدرت عنه صدور المعلول عن العلة... كما تصدر الحرارة عن النار. وكما يصدر الضوء عن المصباح، وقد أدى ذلك بهم إلى أن يحكموا بقدم الكائنات مع قدم خالقها.

أين ذلك من مفهوم الإله وعمله فى مقررات الإسلام؟

١- فالله قديم ليس لقدمه بداية. كان وحده ولا شئ معه. كما جاء فى صحيح

الحديث: "كان الله ولا شئ معه" ^(١). وكما قررت سورة الحديد ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾. [آية ٣].

وقد شرحها الحديث الشريف. فقال ﷺ: - ".. اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ، وأنت الباطن فليس دونك شئ.."^(٢).

فالله قديم قديماً أزلياً لا يشاركه في ذلك شئ. وهو بإرادته أحدث هذه الكائنات بتدبير ونظام وإحكام، فلا عشوائية في الوجود. ولا صدفة في تكوين هذه الكائنات وتطورها كما يزعم علماء العصر. ^(٣)

٢- والله خلق الكون بإرادته، فأبدع هذا الكون - بعد أن لم يكن - بقدرته وعلمه وتقديره يقول سبحانه ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [سورة لقمان آية ١٠].

٣- بل إن الله تبارك وتعالى لم يخلق هذا الكون ويبدعه لينمو ويتطور كما يشاء هذا الكون. أو تركه الله للإنسان يتصرف في الكون بإرادته. دون حاجة إلى توجيه أو إرشاد أو معونة من الخالق. باعتبار أن الإنسان سيد نفسه، بل سيد كونه. ولا دخل للغيب في ذلك. تماماً كما عبر فلاسفة الإغريق عن إلههم أنه معنى بنفسه ولا يعلم شيئاً عن كائناته. حتى قال بعضهم "لا إله والكون مادة" ^(٤). وحتى قال بعضهم "لا شأن للغيب في نظام الكون. فالقوانين التي تنظم الحياة يضعها الإنسان ولا شأن للدين ولا للغيب بها".

وكذبوا وضلوا ضلالاً بعيداً حتى قالوا فيما حكى القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [سورة الجاثية آية ٢٤].

ولو أنهم أمعنوا النظر في الكون مجردين من أهوائهم لأدركوا أنه كون وجد بنظام وتقدير. قال تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ. وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا

(١) صحيح البخارى.

(٢) رواه مسلم: ٢٧١٣، والإمام أحمد في مسنده: ٢ / ٤٠٤ وأبو داود في الأدب: ٥٠٥١ وانظر تفسير ابن كثير للآية.

(٣) يراجع نفي الصدفة كتاب العلامة " نديم الجسر " عليه رحمة الله في كتابه " قصة الإيمان بين العلم والدين والفلسفة".

(٤) مادة في المانفستو الشيوعى.

وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿سورة الرحمن الآيات ٥-٧﴾.

تأمل كلمة "بجسبان". أى أن نظام الشمس والقمر ليس عشوائياً. وإنما هو بحساب دقيق، وتقدير محكم.. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر آية ٤٩].

وانظر إلى قوله تعالى فى متابعة حركة الكون وخضوعها لتدييره وتقديره. فيقول ﴿وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الحجر آية ٢١]. وقوله تعالى: - ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد آية ٨].

فظهر الكائنات فى الحياة بنظام وتقدير. يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [سورة المرسلات آية ٢٠-٢٣].

أرأيت كيف يُوجد الله نوعاً واحداً من الكائنات وهو الإنسان. فالله يعلم به نطفة فى الرحم ويقدر تطوره فيه. ويخرجه للحياة طبقاً لما وضعه من نظام وحساب.

قد ينكر الإنسان ذلك. فلماذا لا تقدم له الدليل المحسوس فى الكون.. هذا الإنسان ذكره وأثناءه. يتناسل ويتكاثر لا بالصدفة العشوائية. وإلا فلماذا نجد أعداد الرجال تتساوى أو تقترب من التساوى مع أعداد النساء وإن حدث نقصان أو زيادة من أى منها، فإنها تأتى من أحداث الحياة. وليست بسبب اضطراب التقدير.

فأنت ترى فى بعض الحيوانات والطيور - أحياناً - الكثرة الكثيرة فى الإناث مثل الأبقار والماعز والدواجن. وكل الأجناس التى تتعرض للاعتداء. فيعوض الله سبحانه وتعالى ذلك بكثرة الإناث. أما الذكور فيكفى منها عدد قليل. وانظر إلى مصداقية ذلك فى الطيور التى لا تتعرض صغارها للاعتداء لأنها تعيش هناك فوق أغصان الأشجار. بعيداً عن عبث العابثين. فإنها تعيش كما يعيش الإنسان حيث تتساوى الذكور والإناث.

بل إن الله تبارك وتعالى هو الذى ينظم الحياة للإنسان فى تكاثره وأكله وشربه طبقاً لتقدير محكم وقدرة قادر. وعلم شامل.

تأمل قوله تعالى فى تكاثر الإنسان ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة السجدة آية ٧-٩]. ويقول ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ

وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿سورة الحج آية ٥﴾.

بل إن الله تبارك وتعالى بين لنا أنه يسر للإنسان الحصول على طعامه، وأوضح له ذلك بما لا يدع مجالاً للأوهام والشكوك، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَلَمْ نَصَبِّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعَنْبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [سورة عبس الآيات ٢٤-٣٢].

٤- والله الذي خلق هذا الكون بقدرته، وأودع فيه كل خصائص صلاحه ونموه. الله سبحانه الذي أبدع هذا الوجود، تولاه بعد ذلك بتدبيره وعلمه وحفظه وقوانينه. فكل جانب من جوانب الحياة يسير طبقاً لقوانين منظمة ترتب نظام الكون الصامت وشرائع تصلح حياة البشر في دنياهم، وتسعدهم في آخرهم: فقوانين الكون الصامت يعرف بها متى تطلع الشمس ومتى تغيب. ومتى يسقط المطر، ومتى يتوقف عن النزول ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر آية ٤٣]. يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الروم آية ٤٠].

وهل من أدعياء العلم والعلمانية من يزعم أن نظام حياة البشر يخضع لما ترتضيه البشرية من قوانين دون تدخل من الغيب؟ هل من هؤلاء من يفعل من ذلكم من شيء؟ فالحياة والرزق والموت هم أهم قوانين الحياة في الكون. فمن الذي يتولاها؟ منذ وجدت الإنسانية إلى اليوم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [سورة الكهف آية ٥].

٥- والله الذي خلق الكون ودبره وأودع فيه خصائص نموه حتى يأتي أمر الله. لم يخلقه هكذا ويغفل عنه سبحانه: فكل ما يحدث في الكون ناطقه وصامته يحتويه تدبيره. ويحيط به علمه وإرادته ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق آية ١٢].

والله تبارك وتعالى يحدثنا عن شمول علمه. فيبين لنا أنه مع خلقه في صحوهم وغفلتهم، في سرهم وجههم، في خلوتهم وجلوتهم. ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [سورة غافر آية ١٩]. ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [سورة طه آية ٧]. ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾ [سورة المجادلة آية ٧]. وانظر إلى ما يجمع ذلك ﴿يَابُئِئَ

إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِنْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴿سورة لقمان آية ١٦﴾.

٦- ولله مع ذلك صفات الكمال والجلال. ومن خلال صفات الجمال والكمال نشأتق ونحب ونرغب ونرجو وندعو. ومن خلال صفات الجلال، نرهب ونخشى ونتقى ونبتعد عن كل ما يغضبه.

ومن هنا يعيش المؤمنون بين الرغب والرهب. فإذا ذكروا جماله وكماله رغبوا واشتاقوا ورجوا. وإذا ذكروا صفات جلاله رهبوا وخافوا واتقوا. ولا تغنى الأولى عن الثانية ولا الثانية عن الأولى. بل المؤمن كما وصفه ربه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [سورة الزمر آية ٩].

ويقول الله تبارك تعالى عن أسرة زكريا عليه السلام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء آية ٩٠].

ويقول سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [سورة السجدة آية ١٦].

فصفات الجمال والكمال التي تشرح صدورنا وتشيع المحبة والأنس والتفاؤل في حياتنا تتمثل في صفات - الرحمن - الرحيم - اللطيف - البر - الغفور - السلام - المؤمن - المعطي - الوهاب - المنعم.

وصفات الجلال التي بها نخشى عذابه ونرهب أخذه القادر، ونتقى معصيته منها: القهار - الجبار - المنتقم - المتعال - العزيز - القوي - القادر - المهيمن - المتكبر.... الخ.

وقد ذكر الله هذه الصفات في كتابه، ففي آخر سورة الحشر يتحدث القرآن الكريم عن بعض أسماء الله وصفاته، فيقول: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الحشر آية ٢٢-٢٤].

وخلاصة القول في هذا، أن الله قديم قبل كل الكائنات. وأن الكائنات جميعاً أحدثها بقدرته وإرادته وعلمه. فهو وحده القديم وما سواه حادث.

وأنه لم يخلق الخلق ويغفل عنه، أو ينصرف عنه ويتركه: سبحانه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا

﴿نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة آية ٢٥٥]. بل هو مع خلقه بعلمه وإرادته فلا يقع في كونه إلا ما يريد. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة آل عمران آية ٢٦ - ٢٧].

وهو سبحانه جعل للكائنات حياة مكتوبة طالت أو قصرت. فلا بد أن تكون لها نهاية لا يخرج عن هذه القاعدة أحد من خلقه. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن آية ٢٦-٢٧]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص آية ٨٨].

٨- وهو سبحانه في تفرد ووحدانيته لا يشبهه شيء. ولا يماثله أحد، تنزه عن الشبيه والمثيل والضد والند. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى آية ١١].

وقد حذرنا أن نشبهه أو نقربه للأذهان بغيره. فقال ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل آية ٧٤].

"فكل ما خطر ببالك فالله غير ذلك" كما يقول مالك.. ﷺ

* * *

المبحث الثاني: الدعوة لوحدة العبودية

لقد خلق الله الخلق جميعاً لعبادته فكل الكائنات عابدة، ناطقها وصامتها جامدها ومتحركها. الجميع خاضع لإرادة الله ومشيتته.

فالسماوات والأرض خاضعتان ومنقادتان لأمر الله. أمرهما ربهما بالنظام الذي يسيران عليه، فاستجابتا لأمر الله، وما تخلفتا عنه لحظة. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت آية ١١].

وكل من في السماوات ومن في الأرض عابد ومنقاد لربه، الملائكة عباد عابدون. ارتفاع قدرهم لا يخرجهم عن العبودية والطاعة والانقياد. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لَا يُسْئِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء الآيات ٢٦-٢٨].

والكافرون جعلوا الملائكة بنات لله. هذا من معتقداتهم الباطلة. ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [سورة الزخرف آية ١٩].

فبين الله لهم في الآية الأولى منزلة الملائكة العالية (عباد مكرمون) ومع علو مكانتهم فهم عباد عابدون منقادون.

والرسل وهم خير خلق الله عباد عابدون أيضاً. يقول الله تعالى عن عيسى ابن مريم عليه السلام الذي اتخذه أتباعه إلهاً. ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة النساء آية ١٧٢]. ويقول عنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الزخرف آية ٥٩].

ويقول عن سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم في مقام التكريم والتشريف: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [سورة الإسراء آية ١].

ويقول جل وعلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [سورة الكهف آية ١].

وكل الخلق عباد عابدون، سواء كانوا أحياء متحركين، أم كائنات جامدة، سواء كانوا في السماوات العلاء، أم كانوا في الأرض، أم في جوفها. قال تعالى: ﴿تَسْبِحُ لَهُ

السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴿ [سورة الإسراء آية ٤٤].

وانظر إلى قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ فكلمة شيء تصدق على كل كائن، سواء كان ناطقاً أم صامتاً. ويزيد الله ذلك تفصيلاً بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج آية ١٨].

والتسبيح تنزيه الله عن كل نقص وعيب. وإعلان أنه وحده، الإله الواحد له الصفات العلا، والكمالات التي لا يشاركه فيها غيره.

والسجود يعني الانقياد والخضوع لله وحده. والالتزام بكل ما يأمر به، وينهى عنه، وذلك مظهر العبودية الكاملة لله وحده. بالخضوع لإرادته والطاعة له. وهذا قدر يشمل الكون كله. قال تعالى: ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [سورة مريم الآيات ٩٣-٩٥].

وقد أثبتت آية الحج السجود والانقياد للكائنات جميعاً. ولكن عندما تحدثت عن البشر قالت ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾، ذلك لأن العبودية التي ينتظم في سلكها الكون كله، هي عبودية الخضوع للإرادة الإلهية. دون تدخل من إرادة غيره مهما كان ذلك. وإذن فالعبودية عبوديتان:

أ - عبودية قهر واضطرار بها يستجيب الكون كله، ويخضع لإرادة الله وتديبره. فאלله خلق السماوات والأرض بإرادته وقدرته وتديبره دون أخذ رأيهما أيخلقها أم لا ؟ فاستجابتا بعد خلقهما وخضعتا وقالتا ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾. أي منقادين ساجدين لكل ما تضمنه خلقهما من حكم ونظم وقوانين.

هذه العبادة يخضع لها الكون جميعاً. ويخضع لها المؤمن والكافر. فالجميع ولد بغير إرادته وعاش بغير إرادته، ومات بغير إرادته، فهو في هذا عابد عبادة قهر واضطرار.

وعبادة القهر هذه لا يثاب عليها العباد الذين لهم إرادة واختيار إلا بقدر اعترافهم بها واستجابتهم لها، وعدم تمردهم عليها، أو إنكارهم لسننها. فالذين يرضون بحياتهم وخلقهم، يؤمنون أن ذلك قدر الله وإرادته، طائعون مثابون. والذين لا يقرون بذلك ولا يرون أنهم في وجودهم وحياتهم وماتهم إنما هم خاضعون لإرادة خالقهم، هؤلاء أيضاً عابدون عبودية قهر واضطرار. إذ لا يفيدهم شيئاً عدم إقرارهم بذلك. فسنة الله ماضية وأى عبد منكر لذلك لم يأت إلى الحياة بإرادته ولم يعيش بإرادته، وسيموت أيضاً بغير إرادته. فهو إذن

عابد منقاد لقدر الله وإرادته برغم أنفه. وهو إذن جزء من الكون العابد بخضوعه وسجوده وانقياده.

والله لا يكلف عباده بعبادة القهر، وإنما يكلفهم بعبادة إرادة واختيار. ويحاسب الله عباده المكلفين الذين لهم إرادة ولهم اختيار: يحاسبهم على طاعتهم أو عصيانهم لما أمرهم به ونهاهم عنه:

فنحن إذا قلنا إن الكون كله عابد لله موحد له. نقصد بذلك عبودية القهر التي تمثلت في تنفيذ الكون كله لإرادة الله وتدييره. وقد استجاب لذلك الكون الصامت. فاستقام أمره، وصلحت الحياة بهذه الاستقامة. فالشمس مثلاً استجابت لخالقها. وما قدر لها في ذلك الخلق. فهي عابدة بالتزامها لما قدر لها. وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: يقول ﷺ عن الشمس:

"يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنما تذهب حتى تسجد تحت العرش. ثم تلا ﷻ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة يس آية ٣٨] ^(١). فقولته ﷺ: "فإنما تذهب حتى تسجد تحت العرش" بيان لخضوع الشمس لإرادة الله وتدييره في الكون، واستجابة الشمس لذلك. وهذه الاستجابة متوقفة على إرادة الله. فعندما يريد الله لهذا الكون أن ينتهي "تذهب الشمس لتستأذن في مواصلة سيرها فلا يؤذن لها". وهذا ما يفهم من الآية ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ (أي لنهاية سيرها) عند فناء هذا الكون. وهذه هي العبودية التي ينتظم فيها الكون كله ويستجيب لها بكل عناصره، منقاداً خاضعاً ساجداً، الناطق والصامت سواء. والمؤمن والكافر سواء.

ب- غير أن هناك عبادة إرادة واختيار، لا تكون إلا حيث تكون القدرة عند الإنسان على الفعل والترك، وعلى الطاعة والعصيان، وهذا لا يكون إلا حيث يبلغ الإنسان رشده. ويكون له عقل وهوى، وفكر ومشاعر. فيقبل ما يشاء، ويرفض ما يشاء، وهذا مناط التكليف. فالله تبارك وتعالى لا يكلف إلا حيث تكون القدرة على الطاعة أو العصيان ومن هنا توجد عبادة الاختيار.

ونحن لا نقصد بعبادة الاختيار، العبادة التي يكون العابد فيها له حق أن يفعل أو لا يفعل، وإنما نقصد بها أن العابد له إرادة أن يفعل وألا يفعل. فإن استجاب للأمر الإلهي

(١) أخرجه البخاري وتفسيره: ٤٨٠٢، ومسلم ١٥٩. وفيه: "... فإنها تذهب فتستأذن في السجود، فبؤذن لها...".

ففعل. فتلك هي الطاعة، وإن لم يستجب فتلك هي المعصية التي تخرج صاحبها عن مفهوم عبودية الاختيار.

وهذه العبودية هي التي استثني منها الإنسان من الكون العابد عبادة القهر. لأن الإنسان له عبودية يمكن أن يطيع فيها وأن يعصى. قالت آية السجود في سورة الحج ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنُ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ﴾ [آية ١٨].

وفي مجال عبادة الاختيار تكون الطاعة والمعصية، ويكون الثواب والعقاب. فمن جاءه الأمر الإلهي فأداه، كما يشرعه الله، أو كما أمر به نبيه، فهو طائع وعابد ومستحق لما أعده الله لعباده الطائعين من ثواب وجزاء قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة النساء آية ١٣].

ومن جاءه الأمر الإلهي فرفضه ولم يستجب له بإرادته واختياره، فذلك الخارج عن العبودية، العاصي لله ورسوله. المستحق لعقاب الله وعذابه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [سورة النساء آية ١٤].

٢- والعبادة الصحيحة تقتضي ثلاثة أمور:

أولاً: وحدة المعبود.

ثانياً: وحدة العبادة. بمعنى أن تكون صادرة عن إرادة واحدة هي إرادة الله وحده.

ثالثاً: أن تكون خالصة لله تبارك وتعالى.

أما الأولى: فالله وحده الذي يُعبد، والذي نصلي له ونسجد، والذي يطاع فلا يعصى، فهو الإله الواحد الأحد، إله العالمين، ورب الخلق أجمعين. فلا عبادة إلا له. قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [سورة طه آية ١٤].

وقد نادى الله الناس جميعاً أن يعبدوه، وخوفهم من معصيته. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة آية ٢١]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الحج آية ١].

وأمرهم أن يخصوه بالعبادة، فلا يعبدوا معه غيره ﴿فِي أَيِّ مَا يَخْتَارُونَ﴾ [سورة العنكبوت آية ٥٦].

وقال تعالى: إنه أرسل رسوله في الأمم السابقة آمراً أن يعبدوا الله وحده، وأن يجتنبوا عبادة غيره. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [سورة

النحل آية ٣٦].

وقد فصل الله أوامره في تخصيصه بالعبادة فلا يعبد معه شيء.

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [سورة النساء آية ٣٦]. وكلمة (شيء) في الآية بالغة الدقة في الدلالة على منع العبادة عن أي كائن من حجر أو شجر أو طير أو شمس أو قمر أو إنسان أو إله آخر. ولذلك أكد الله تبارك وتعالى اختصاصه بهذه العبادة بأساليب مختلفة فمرة يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء آية ٢٣]. فإله تبارك وتعالى لم يقل: "وقضى ربك أن تعبدوه". بل قالها بأسلوب ينفي كل أنواع العبادة عن غيره. وقال جل وعلا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة آية ٥].

فهو لم يقل على لسان عباده "نعبدك ونستعين بك". فهذه عبارة تختمل أن يعبد الله، ويعبد معه غيره. ولكنه قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا إياك.

قال ابن كثير عند شرح هذه الآية. أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين. فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، مع التفويض إلى الله عز وجل^(١).

ولكي تكون العبادة بهذا المعنى الذي تحدده هذه الآيات، نفى الله حق العبودية عن غيره. فقال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [سورة النساء آية ٣٦] وجعل إضافة أي جزء من هذه العبادة إلى غير الله شركا. يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه: "أنا خير الشركاء. فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري، فأنا بريء منه. وهو للذي أشرك"^(٢).

بل إن الناس إذا عظموا شيئاً وأعطوه ما لله من صفات وكمالات، أو نسبوا الله ما لا يليق من صفات، فقد خرجوا بذلك عن مفهوم العبودية إلى الشرك: فقد كفر بنو إسرائيل والنصارى في عبوديتهم لله عندما نسبوا له البنوة، ونسبوا إلى أحبارهم صفة من صفات الله عندما اعتقدوا أنهم يشرعون لهم فيحلون ويحرمون. وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى عن نسبة ما لا يليق به إليه ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة آية ٣٠-٣١].

(١) تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) رواه الإمام أحمد ٣٠١/٢ : ٧٩٨٦. صحيح. ومسلم: زهد: ٢٩٨٥ وغيرهما.

فجعل الله نسبة ما لا يليق به إليه، ونسبة صفة من صفاته إلى غيره شركاً ينافي العبودية. فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

روي أن عدي بن حاتم الطائي (وكان نصرانياً وأسلم) عندما سمع قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال يا رسول الله: إنهم لم يعبدوهم (ظن أن العبادة لا تكون إلا بالصلاة ونحوها) فرد رسول الله ﷺ بقوله: "بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم. فذلك عبادتهم إياهم" (١).

فتوحيد العبادة يقتضي ألا ننسب إلى غيره ما هو له. وألا ننسب له ما لا يليق به. ولذلك أمر الله تبارك وتعالى نبيه وكل من آمن، أن يواجهوا العالم بذلك. فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران آية ٦٤]. وجعل ذلك على لسان كل رسول من قبل. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء آية ٢٥].

وأما الثانية: فهي وحدة العبادة وتوحيدها. والعبادة في أصل اللغة مأخوذة من (عبدة) الثوب. (٢) والعبدة هي الجزء الذي يلي الأرض عند لبس الثوب. لذلك كان يقتضي التذلل والخضوع، وهي في الشرع تعني الخضوع والطاعة والرغبة والخوف، مع الرجاء والحب والرضا. وإذن فهناك فرق بين عبد الله، وعبد الإنسان، فعبد الله يخضع ويطيع ويرهب ويخاف، ولكنه مع ذلك يحب ويرضى ويرجو. "فالرغبة والخوف مع الرجاء والرضا والحب" هي خلاصة كل عبادة. وإذا خلت من أحد هذه العناصر لم تكن عبادة، فالذي يعبد الله ويرجوه ولا يخافه ليس بعابد، والذي يعبد الله خائفاً لا يرجو رحمته أو لا يرضى بقدره، ليس بعابد. وفي الحديث القدسي: "لا أجمع مع عبدي أمينين وخوفين. فمن أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة، ومن خافني في الدنيا أمنتته يوم القيامة" (٣).

وواضح أن المراد بالخوف في الدنيا الخوف من الله مع الرجاء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء آية ٩٠]. فنحن نقصد بتوحيد العبادة أن تكون لله وحده.

(١) الترمذي: التفسير: ٣٠٩٥ نحوه. وقال: غريب، ورواه البيهقي في الشعب وغيرها. وانظر تفسير ابن كثير للآية.

(٢) ذكر ذلك الزمخشري عند تفسير "إياك نعبد".

(٣) ذكره منيرالدمشقي في مجموعة الأحاديث القدسية التي سماها "الإتحافات السننية في الأحاديث القدسية".

ونقصد بوحدة العبادة ألا تكون صادرة إلا من أصل واحد وهو الشرع. إذ أن الله لا يُعبد إلا بما شرع، ومن عبد بغير إذن من الله ورسوله فقد ابتدع: "وكل بدعة ضلالة" (١).

وإذن الله في العبادة ثابت في قرآنه، وإذن رسوله ﷺ ثابت في سنته. والقرآن والسنة هما أصل كل عبادة، وعلى المسلم أن يلتزم بذلك، وليس من حقه أن يزيد أو ينقص: يقول ﷺ: "صلوا كما رأيتموني أصلي." (٢) وقال: "خذوا عني مناسككم." (٣) ويقول: "إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه" (٤).

ويترتب على هذا:

أ- ألا تفعل عبادة ليس لها إذن من قرآن أو سنة. فالصلاة خمسة أوقات. فمن جعلها ستة، فقد خرج عن العبادة. ومن فعل ذلك معتقداً في صحته فقد كفر.

ب - ومن فعل عبادة من عنده لم تثبت في تشريع، وليس لها نظير من الشرع. فهو خارج عن مفهوم العبودية والعبادة.

روى أن رجلاً جاء إلى مالك بن أنس رضي الله عنه فقال له: (أرأيت إن أحرمت قبل الميقات)؟ قال مالك: اخشى عليك الفتنة. قال الرجل: وأى فتنة في عمل الخير؟ قال مالك: وأي فتنة أعظم من أن ترى لنفسك خيراً لم يفعله رسول الله ﷺ ثم تلاه ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور آية ٦٣].

ج - والعبادة مقيدة ومطلقة. فالعبادة المقيدة حدد الشارع زماها ومكانها وهيئتها. فليس لأحد أن يغير أو يبدل في ذلك.

فإن الله حدد الصيام في شهر رمضان. فلا شهر يفرض صيامه إلا رمضان. والله جعل للحج أشهراً ثلاثة هي شوال وذو القعدة وذو الحجة فليس حج إلا فيها. وليست أفعال إلا كما رسمت أوقاتها وأماكنها فالسنة ٣٦٥ يوماً، ولكن لا حج إلا في يوم عرفة. كما يقول ﷺ: "الحج عرفة". وهو يوم التاسع من ذي الحجة. فمن وقف يوم العاشر أو الحادي عشر أو غير ذلك من الأيام فلا حج له. وذلك لأن الأصل في العبادة المنع منها، حتى نجد الإذن من الشرع. لأن الله لا يعبد إلا بما شرع. ومن فعل غير ذلك فقد ابتدع. وقد قال رسول الله

(٢) جزء من حديث مسلم: الجمعة: ٨٦٧ وأبو داود: السنة: ٤٦٠٧ وغيرهما.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٤) جزء من حديث مسلم: الحج: ١٣٣٧ والنسائي: الحج: ٢٦١٥.

ﷺ "إياكم ومحدثات الأمور. فإن كل بدعة ضلالة" (١) وقال: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" (٢) وفي رواية: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد". (٣)

وذلك بخلاف الأمر في غير العبادة، فالأصل فيها الإباحة، ولا تحريم إلا بحجة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [سورة النحل آية ١١٦]. ويقول ﷺ: "الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه." ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٤) [سورة مريم آية ٦٤].

د-وأما العبادة المطلقة، فهي نوافل العبادة المقيدة. غير أن المسلم لا يلتزم بها إذ هي لم تفرض عليه. فالعبادة المطلقة جعلها الشارع تطوعية. وجعل المتطوع أمير نفسه: كما قال رسول الله ﷺ "إن شاء أداها فله عظيم الثواب. وإن لم يؤدها. فلا عقوبة عليه." (٥) ففي الحديث الذي روى في الصحاح أن الأعرابي الذي سأل رسول الله عما افترض الله عليه، فذكر له الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج فقال الرجل: هل عليّ غيرها؟ قال ﷺ: "لا. إلا أن تتطوع". فقال الرجل: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. فقال ﷺ: "أفصح إن صدق". (٦)

وهذا لأن في أداء الفريضة دون النوافل نجاة - كما يفهم من قوله ﷺ: "أفصح إن صدق". وأما النوافل فإنها ترفع صاحبها درجات في الجنة، وقد تصل بالعمل إلى درجة الإحسان، وهي أرقى درجات العبادة وهو ما وضحه رسول الله في إجابته لجبريل عندما سأله: ما الإحسان؟ "قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". (٧)

وواضح أن العمل الذي يصل إلى درجة الإحسان هو العمل الذي استجمع الفرائض والواجبات والسنن والمستحبات، لعل في الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه ما يؤيد ذلك. يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: "وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا

(١) جزء من حديث أبي داود: السنة: ٤٦٠٧ والترمذي: علم: ٢٦٧٦ وغيرهما.

(٢) البخاري: الصلح: ٢٦٩٧، ومسلم: الأفضية: ١٧١٨ / ١٧ وغيره.

(٣) رواه مسلم: الأفضية: ١٧١٨ / ١٨ وغيره وأحمد: ٦ / ٢٥٦ : ٢٦٠٦٩ صحيح.

(٤) رواه الترمذي: اللباس: ١٧٢٦ غريب، وابن ماجه في الأطعمة: ٣٣٦٧.

(٥) لم أجده بهذا اللفظ. [أحمد جاد].

(٦) جزء من حديث البخاري: الإيمان: ٤٦، ومسلم: ١١ وغيرهما.

(٧) جزء من حديث البخاري: الإيمان: ٥٠، ومسلم: ٨

أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ... إلخ" (١)

والتطوع والأعمال الصالحة أيضاً لا تكون إلا فيما شرعه الله. فإذا كان الله قد فرض الحج مرة في العمر. فمن حج مرة ثانية أو ثالثة فهذا تطوع ونافلة. وإذا كان الله قد جعل العشاء أربع ركعات. فمن صلى بعده ركعتين أو أكثر فهو تطوع ونافلة. يقوم المسلم بأدائها كما شرع له.

هـ — أما المباحات كالأكل والشرب، والزراعة، والتجارة، والرياضة، والصناعة. فقد تنقلب عبادات إذا قصد بها وجه الله، أو تيسير أمر فيه مصلحة للعباد، وفيه حاجة لهم كما أمر الله به ودعا إليه. فمن أكل وقصد بأكله أن يتقوى على الجهاد والقيام بقضاء مصالحه ومصالح أهله فهو عابد لله.

ومن اجتهد في قضاء حوائج الناس ابتغاء رضا الله فهو عابد لله. بل من اهتم بقضاء حاجته من زوجته رغبة في إعفافها. وقضاء حقها عليه كما أمر الله، فهو عابد لله. استمع لرسول الله ﷺ وهو يقول: "وفي بضع أحدكم صدقة". قالوا يارسول الله أيقضى أحدنا شهوته فيؤجر عليها؟ قال رسول الله: "أرأيتم إن وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ قالوا نعم. قال: فكذلك إن وضعها في حلال كان له أجر". (٢)

ومثل هذا نجده في حديث رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عندما سأله سعد: "أفأصدق بلثى مالى؟ قال: لا. قال قلت: أفأصدق بشرطه؟ قال: لا، الثلث. والثلث كثير. إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكفون الناس، ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بما حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك". (٣)

و — والجديد في أمر العبادة فيما جاء به الإسلام، أن العبادة في مفهومها العام لا ترتبط بمكان معين ولا بزمان معين. فالمسلم يستطيع أن يكون عابداً في أى مكان وفي أى حال.

فالإسلام وإن كان قد ربط أصول العبادة بأزمنة محددة، وأمكنة محددة، كالصلاة في أوقات معينة. إلا أنه لم يجعل ذلك أساساً في صحتها. كما فعلت الأديان السابقة. وإنما أطلق الأمر للمسلم فجعل الأرض كلها مسجداً، وجعل تربة الأرض تطهيراً لمن لم يجد الماء. في حديث رسول الله .. جُعِلَتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيا رجل من أمتي أدركته

(١) رواه البخارى: رفاق: ٦٥٠٢. وأحمد: ٦ / ٢٥٦ : ٢٦٠٧١ صحيح.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم: ١٠٠٦، أبو داود: تطوع: ١٢٨٥ وأحمد: ٥ / ١٦٧

(٣) جزء من حديث رواه مسلم في كتاب الوصية: ١٦٢٨ والبخارى: جناز: ١٢٩٥ وغيرهما.

الصلاة فليصل..". (١)

ويقول الرسول ﷺ في حديثه النبوي: ".. أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ..". ذكر منها: "وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا" (٢). فالمسلم الذى يصلى فى مصنعه صلاته صحيحة، والإسلام لا يطلب أن يترك المصنع معطلاً ويذهب للصلاة، والمسلم الذى يصلى فى حقله لا يقول له الإسلام دع حقلك واذهب إلى المسجد فصل. إذا كان ترك حقله فيه إضرار به. بل الذى فى السفينة أو الطائرة، ويخشى ضياع الوقت، ولا رخصة له فى جمعه مع وقت يليه، يستطيع أن يصلى وهو فى سفينته أو طائرته.

وأما ثالثاً: فالعبادة أساسها الإخلاص. وكما أن العبادة تلتزم بما شرع الله ولا تخرج عنه. فكذلك لا تصح هذه العبادة إلا إذا صحت النية وأصبح العمل لا يتبعى به إلا وجه الله.

هذا ماجاء فى القرآن الكريم فى محكم آياته إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر آية ٣]. ويقول سبحانه ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [سورة البينة آية ٥].

ويقول الله تبارك وتعالى فى حديثه القدسى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى. تركته وشركه" (٣)

وقد طالب الله نبيه أن يعلن ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة الزمر آية ١١].

ولذلك رتب الشرع الأعمال على النية، فمن صلحت نيته، وكان عمله كما أمر الشرع، صلح عمله. ومن فسدت نيته أو كان عمله على غير ما شرع الله. فقد فسد عمله. يقول ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه" (٤)

فالنية الصحيحة التى تجعل العمل خالصاً لوجه الله، هى التى تجعل العمل مقبولاً يثاب عليه صاحبه. وقد ضرب الله لذلك مثلاً للذين تضيع أعمالهم بسوء نياتهم، ومثلاً للذين تصح أعمالهم ويأخذون عليها حسن الجزاء، لصحة نياتهم واتجاههم بعملهم ابتغاء

(١) جزء من حديث البخارى: تيمم: ٣٣٥ ومسلم: مساجد: ٥٢١ وغيرهما.

(٢) الحديث السابق

(٣) مسلم: زهد: ٢٩٨٥. وأحمد: ٤٣٥/٢، وابن ماجه: ٤٢٠٢ وفيه "وأنا منه برىء..". وسبق تحريجه.

(٤) رواه البخارى: الإيمان: ٥٤ ورواه غيره.

وجه الله. قال تعالى في الصنف الأول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [سورة البقرة آية ٢٦٤].

وقال تعالى في الصنف الثاني الذي تصلح نيته، ويخلص في عمله، ويجعله ابتغاء وجه الله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّتْ﴾ [سورة البقرة آية ٢٦٥]. فانظر إلى الذين ساءت نياتهم بعدم إخلاصها لله، وسيطر عليها الرياء، كيف انتهت أعمالهم الصالحة إلى الضياع. كالتراب على حجر ينزل عليه المطر الشديد فيذهب به. وأما الذي أخلص لله. فإن عمله وإن كان قليلاً يضاعف. كما يضاعف ثمر الحديقة التي على ربوة عندما يصيبها المطر أي مطر، ولو كان قليلاً (فطل).

وقد اهتم رسول الله ﷺ بتحذير المسلمين من ضياع أعمالهم الصالحة بسبب فساد النية. وسمى هذا الفساد الذي يضيع به العمل: "الشرك الخفي": يقول ﷺ: "ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح "الدجال"؟" قالوا بلى. قال: "الشرك الخفي". ثم شرح هذا الشرك بقوله: "أى يقوم الرجل يصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل".^(١) وفسر الشرك الخفي في حديث آخر بأنه الرياء. قال رسول الله ﷺ: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر" قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: "الرياء"^(٢). وفسر الرياء بأمثلة من واقع الأعمال الصالحة التي يفسدها الرياء الذي يذهب بالإخلاص، فقال ﷺ: "يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء"^(٣) ويقول ﷺ "من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك"^(٤). ويقول ﷺ: "من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، ثم أساءها حيث يخلو. فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل"^(٥).

فانظر كيف تذهب الأعمال الصالحة هباء منثوراً لعدم إخلاص النية لله، واتجاه

(١) ابن ماجه: زهد: ٤٢٠٤ وأحمد: ٣ / ٣٠

(٢) رواه الإمام أحمد: ٥ / ٤٢٨ : ٢٣٥٢١ صحيح ورواه غيره.

(٣) أحمد: ٤ / ١٢٥ : ١٧٠٧٥ حسن.

(٤) الحديث السابق.

(٥) رواه أبو يعلى عن عبد الله بن مسعود ﷺ الجامع الصغير: ٨٣٣٧: ضعيف.

العمل لغير مرضاة الله. فهذا العمل العظيم وهو "الهجرة"، من قام به لا يريد وجه الله ضاع عمله، وصار باطلاً، ونال عليه سوء الجزاء. وذلك معنى قوله ﷺ: "ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه"^(١). أى باطلة لاثواب لها. ومثل ذلك الزكاة والحج والصلاة، وكل عمل يتغى فيه غير وجه الله. وصدق الله العظيم: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر آية ٣]. والعبودية من قبل ومن بعد إخلاص للمعبود وشرف للعابد.

فالعبودية فى حياة الناس مذلة وضياع الشخصية. وأما العبادة لله فى منهاج الإسلام فهى كرامة وشرف وحرية. فالذى يعبد الله حق العبادة يتحرر من عبادة غير الله. فقد قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [سورة النساء آية ٣١]

فلا تشركوا به شيئاً أى شىء حتى هوى النفس. فإن عبادة الهوى تخرج العابد من عبودية الله إلى عبودية الأهواء. يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [سورة الجاثية آية ٢٣].

فالخضوع للهوى عبادة له. فهو مناف لعبودية الله الخالصة. وكل عبودية لاتكون خالصة لله. تخرج صاحبها من شرف العبودية لله. وتعود به إلى ظلام دنياه ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [سورة الأعراف آية ١٧٦]. وكما يقول ﷺ: "تعس عبد الدينار. وعبد الدرهم. وعبد الحميصة .. تعس وانتكس.." ^(٢)

فعبادة الله تقتضى التحرر من العبودية لمن سواه وما سواه. فعبد الله رافعاً رأسه أمام كل مظاهر الإغراء فى الدنيا لأنه عبد لمن ملك السموات والأرض. وصحة العبودية لله فى نفسه تجعله يرى كل من سواه وما سواه لا يمتاز عنه شيئاً فى حقائق الحياة الأصلية "فالناس سواسية كأسنان المشط". فلا ينقاد ويذل نفسه لغير الله؟

والإنسان مهما ارتفع شأنه فهو عبد. فعندما كرم الله محمداً وأسرى به. لم يخرج بذلك رسول الله من عبوديته. بل فى هذا الموقف التكريمى الرائع يقول الله عنه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [سورة الإسراء آية ١]. وعندما عرج به إلى السموات العلا قال عنه ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [سورة النجم آية ١٠-١١]. قال

(٥) سبق تخريجه.

(٢) جزء من حديث رواه البخارى: ٢٨٨٧، وابن ماجه: زهد: ٤١٣٦.

القرطبي عند شرح آية الإسراء. نقلاً عن القشيري: "كما رفعه الله إلى حضرته السنية، أرقاه فوق الكواكب العلوية، وألزمه شرف العبودية".^(١)

وقال آخر:

ومما زادني شرفاً وتبها وكدت بأخصى أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبياً

* * *

^(١) ذكره القرطبي عند تفسير آية الإسراء.

المبحث الثالث: الدعوة لوحدة النبوة

نعني بوحدة النبوة أمرين:

أولاً: أن الأنبياء الذين أرسلهم الله تبارك وتعالى إلى عباده هم جميعاً يدعون إلى مبادئ لا تختلف من جيل إلى جيل. ولا من نبي إلى نبي. وإن اختلفت ففي الشروح والفروع. وأهم جميعاً كما وصفهم رسول الله ﷺ بقوله "نحن معاشر الأنبياء أبناء عائلات. ديننا واحد".^(١)

ويعني رسول الله أنهم وإن كانوا في عصور مختلفة. فإنهم يدعون إلى دين واحد. مثلهم في ذلك مثل أبناء العائلات أبوهم واحد وأمهاهم متعددة. وقد سبق أن وضحت ذلك. وثانياً: أننا نحن المسلمين نؤمن إيماناً راسخاً أن نبينا الذي أوحى إليه الله هذا الدين هو خاتم الأنبياء والرسل، فلا نبي بعده. وهو رسول الله إلى الناس أجمعين من لدن بعثته إلى يوم القيامة. فلا يقبل من أحد عبادة، إلا أن تكون قد جاءت في الشريعة التي جاء بها رسول الله ﷺ، ولا نجات له في الآخرة إلا بالإيمان به. يقول ﷺ "والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة. يهودي ولا نصراني. ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به. إلا كان من أهل النار".^(٢)

١- هذا النبي ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمي القرشي العربي المتصل النسب بإسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، الذي وعى التاريخ من نسبه أكثر من عشرين جداً. وجاء في الآثار "ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح". وهكذا كان نسبه الشريف. وصدق البوصيري في قوله: "لم تزل في ضمائر الكون تُختار لك الأمهات والآباء". وفي الحديث الشريف: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم".^(٣)

٢- وقد سبق أن ذكرت أن نبي الله محمداً ﷺ هو وحده دون سائر الأنبياء الذي جاء في وضوح التاريخ. فلم تعرف حياته من الكتب المقدسة وحدها كما عرفنا الأنبياء. ولكننا عرفناه وعرفنا حياته من الكتب الدينية وسجلات التاريخ العالمي.

عرفناه في كل مراحل حياته قبل بعثته. ولا نعرف أن التاريخ سجل حياة إنسان حتى في العصر الحديث كما سُجلت حياة رسول الله ﷺ من نبوته إلى بعثته. ومن بعثته إلى

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم: إيمان: ١٥٣.

(٣) مسلم: فضائل: ٢٢٧٦ ورواه غيره.

هجرته. ومن هجرته إلى وفاته.

٣- وفي بعثته نجد حقائق لم تكن لمن قبله. فهو لم يأت كما جاءت الرسل من قبله، بل جاء على فترة من الرسل، فقد بُعث ﷺ سنة ٦١٠ بعد ميلاد المسيح. ومثل هذه مدة كانت تتوالى فيها الأنبياء من قبل. حتى إن منهم من كان معاصراً لغيره من الأنبياء، فإبراهيم ﷺ كان معاصراً للوط ﷺ. وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام، كانوا أسرة نبوية، وداود أبو سليمان عليهما السلام، وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام متعاصرون. فزكريا أبو يحيى، ويحيى ابن خالة عيسى عليهم السلام. ولكن رسول الله ﷺ، جاء بعد ستة قرون من ميلاد عيسى ﷺ آخر أنبياء بني إسرائيل، فتحولت به النبوة من بيت إسحاق بن إبراهيم إلى بيت إسماعيل بن إبراهيم.

٤- كانت القرون التي سبقت بعثة محمد رسول الله ﷺ، أسوأ قرون شهدتها البشرية في الصراعات الدينية والخلافات المذهبية والاستبداد السياسي حتى نسي الناس ما جاءت به النبوات. فاليهودية التي تدّعي أن أتباعها شعب الله المختار، أصبحت في أحط حال. فقد أورثهم تاريخهم الخاص الذلة والاضطهاد لهم. وما وصفوا به من الجشع وشهوة المال وأكل الربا.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تدهور أخلاقهم في القرون التي سبقت بعثة رسول الله ﷺ إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ﴾ [سورة المائدة الآيات ٧٨-٨٠]. وقال عن خيانتهم وسوء أخلاقهم ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة المائدة آية ٦٤]. وقد اشتدت صراعاتهم المذهبية بين الربانيين والفريسيين. كما اشتد صراعهم مع المسيحيين حتى تعرضوا لأشد العذاب والشتات.

ومثل ذلك التفرق كان عند المسيحيين الذين تفرقوا بين نسطرة وأريوسيين وملكانيين ويعاقبة، واشتد صراعهم حول طبيعة المسيح. أهو لاهوت؟ أم هو ناسوت؟ أم هو خليط

من الناسوت واللاهوت؟ حتى ألغت خلافاتهم العقل فحكمت عليه أن يقر ويرضى بالثلاثة تكون واحداً. وأن الواحد يكون ثلاثة (آب - ابن - روح القدس).

ومثل هذا الفساد كان في كل الأرض فقد اشتدت الصراعات في فارس بين المانوية والمزدكية، حتى غدت الحياة إباحية تسيطر عليها الشهوات واللذات، ولم ير العالم بصيصاً من نور الحق. وضافت الأرض بما رحبت وأصبح الناس يتطلعون إلى منقذ. واشتد ذلك بنوع خاص لدى اليهود، حتى كانوا في يثرب يهددون الأوس والخزرج بقرب ظهور نبي يقودهم. فيقتلون العرب. فجاءت بعثة رسول الله ﷺ في أوائلها.

لقد بُعث رسول الله ﷺ حين فسد مفهوم الألوهية الصحيح، وأوشك أن يزول تماماً. بل إن مفهوم التدين السليم قد تحول إلى مذاهب وآراء، لا يرضى عنها أى فكر سليم. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حين قال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [سورة الروم آية ٤١-٤٢].

٢- وجاء رسول الله ﷺ فكان من المناسب أن يكون النبي الجديد للعالم كله. بعد أن بلغت الإنسانية رشدها. ولم يعد هناك حاجة إلى نبي يبعث إلى قومه خاصة. فقد رأينا أن الحاجة ماسة إلى الإصلاح الديني الشامل بعد هذا الفساد الشامل. فكان مناسباً أن يأتي نبي الإنسانية للإنسانية جميعاً وليس لقوم دون قوم.

لا حاجة إلى نبوة جديدة بخلود القرآن والسنة:

والله تبارك وتعالى لا يطلب من عباده أمراً يقهرهم عليه. وإنما يطلب منهم أن يؤمنوا بدين يقتنعون به بعد أن بلغت الإنسانية رشدها ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [سورة البقرة آية ٢٥٦]. فليأت النبي الجديد ومعه كل ما يرشد إلى عموم رسالته. وأنه وحده النبي في هذا الكون إلى يوم القيامة، لذلك جاءت معجزته للعالمين جميعاً. وكانت حياته وأعماله وطريقة مخاطبة الوحي له تنبئ بهذا العموم وهذه الوحدة.

أ- فأعلن الوحي أن المعجزات الحسية قد انتهت كوسيلة لإقناع البشر، ولا سيما بعد أن أخذ العقل ينضح، وحتى عندما أخذ الفكر ينضح في أيام عيسى ﷺ رفض العقل الإيمان بالمعجزات الحسية، وكلما جاء بها عيسى قال له اليهود هذا من عمل الشيطان، بل إن القرآن الكريم ناقش فكرة الآيات الحسية، وأنها لا تجدي في وقت بدت فيه ملامح العقل تتضح. فالطالبون لهذه الآيات سيكونون أول من ينكرها ويرفضها. يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَوْ أَنَّنَا نَزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴿[سورة الأنعام الآيات ١٠٩-١١١].

وفي سورة الإسراء يوضح لنا القرآن الكريم أسلوبهم في التحدي بطلب الآيات الحسية فيقول ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [سورة الإسراء الآيات ٩٠-٩٣].

بل إن الله تبارك وتعالى بيّن عدم جدوى الآيات الحسية بمواقف الأمم السابقة: فعيسى عليه السلام عندما جاء بمعجزاته الباهرة قالت له بنو إسرائيل ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [سورة الصف آية ٦].

ويؤكد الله ذلك بالنسبة لمعاصري رسول الله ﷺ بقوله ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ [سورة الحجر الآيات ١٤-١٥].

هكذا يبين الله تبارك وتعالى عدم جدوى المعجزات الحسية من واقع التجربة، ومن واقع حياة الناس. ثم بين سبحانه أنه جاء لمحمد ﷺ بآية معنوية تخاطب أشرف ما فيهم وهو العقل. حتى تتناسب مع الرسالة الموجهة للعالم كله، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [سورة الفرقان آية ١].

ففي هذه الآية يبين الله تبارك وتعالى أن القرآن نزل على النبي ليكون رسولا إلى الإنسانية كلها.

وفي سورة الأنعام وضح على لسان نبيه أن هذا القرآن نزل عليه ليلبغه للناس جميعاً. قال تعالى ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [سورة الأنعام آية ١٩]. ومعنى "ومن بلغ" أي أن رسول الله سيبلغ هذا الوحي إلى كل من بلغه نزول هذا الوحي. قال ابن كثير في تفسيرها (وهو نذير لكل من بلغه) كقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [سورة هود آية ١٧]. وفي هذا يقول رسول الله ﷺ "بَلِّغُوا عَنِ اللَّهِ. فَمَنْ بَلَّغْتَهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ بَلَّغْتَهُ أَمْرَ اللَّهِ".^(١)

٣- وبهذا العموم في الوحي الإلهي ناسبت المعجزة عموم الرسالة. فالمعجزة للناس

(١) رواه عبد الرازق عند تفسير هذه الآية.

جميعاً. وكذلك الرسالة. وفي هذا يقول ﷺ "ما من الأنبياء نبي إلا وأعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً" (١).

فكان رسول الله رسولاً للعالمين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سورة سبأ آية ٢٨].

وكان القرآن الكريم وحياً للناس جميعاً ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة التكويد آية ٢٧].

٤- وبذلك كان رسول الله ﷺ امتداداً للنبوة وخاتماً لها. وكان الأنبياء قبله يبشرون بمقدمه. فالقرآن الكريم يحدثنا أن الله تبارك وتعالى أخذ العهد على الأنبياء بأنه إذا جاء نبي من بعد نبي، ليؤمنن به ولينصرنّه، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ [سورة آل عمران آية ٨١]. قال عليّ كرم الله وجهه وابن عباس رضي الله عنهما: "ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ الله عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنّه" (٢).

لقد كان كل نبي يبشر قومه بمحمد ﷺ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الأعراف آية ١٥٧].

• وما جاء في التوراة والإنجيل يؤيد تماماً ما ذكره القرآن الكريم. ففي التوراة يقول جل ذكره لموسى "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصى به" (٣).

فالنبي الموعود ليس من بني إسرائيل، بل من بني إخوتهم أى من أبناء إسماعيل، وهذا النبي له رسالة مثل موسى، ولم يدع أحد من أنبياء بني إسرائيل أنه صاحب رسالة مستقلة عن موسى.

وهذا النبي الموعود، يجعل الله كلامه في فمه، ويكلم الناس بكل ما أوصى الله به (يعني صاحب رسالة عامة). وهذا ما لم يدعه نبي من بني إسرائيل حتى حياة رسول الله، فقال الله

(١) رواه مسلم في الإيمان: ١٥٢. سبق تخريجه.

(٢) ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٣) سفر تثنية ١٨ : ١٧ - ١٨ من كتاب حياة محمد ورسالته لمحمد علي اللاهوري.

﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [سورة الفرقان آية ١].

وفي التوراة في نفس هذا السفر (تثنية الاشتراع) تقول التوراة: "جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأقبل ومعه عشرة آلاف من القديسين، وفي يمينه كتاب التقوى".^(١) وفي رواية "وفي يمينه نار شريعة لهم". والمراد بـ "جاء الرب من سيناء" هو موسى عليه السلام، والمراد بـ "وتلألأ لهم من فاران"، هو محمد عليه السلام. إذ أن فاران هي الاسم القديم للحجاز، ولم يتلألأ نور نبوة في الحجاز منذ موسى، حتى ظهور رسول الله إلا في شخص محمد عليه السلام.

كذلك فليس من النبيين من أقبل ومعه عشرة آلاف بعد موسى إلا محمداً عليه السلام عند فتح مكة، وليس من جاء ومعه كتاب شريعة إلا محمد عليه السلام.

وعيسى عليه السلام له نبوءات كثيرة خاصة ببعثة رسول الله. ففي إنجيل يوحنا، نختار منها هذه "إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم. ولكن لا تستطيعون أن تحملوا الآن، وأما متى جاء ذلك. روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق"^(٢).

ويقول: "لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم"^(٣).

وليس مستساغاً أن يفسر المعزى بروح القدس، الذي كان يأتي لعيسى قبل أن ينطلق، وإنما المعزى هو الذي لا يأتي وعيسى حي، فيقول لهم الحق ويدينهم به، كما جاء في نبوءة أخرى، وهو النبي الموعود محمد عليه السلام.

وهذا ما أكدته القرآن، فقد جاءت البشرية برسول الله على لسان عيسى فيما ذكره القرآن ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [سورة الصف آية ٦]. مصداق هذا أيضاً نجده في آية سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف آية ١٥٧].

(١) سفر تثنية الاشتراع ١:٣٣ المصدر السابق.

(٢) إنجيل يوحنا ١٦-١٢-١٣ مصدر سابق.

(٣) إنجيل يوحنا ١٦-١٧ مصدر سابق.

هكذا كانت الأجيال السابقة تتوقع بعثة نبي جديد، فكان محمد ﷺ هو ذلك النبي. وصدق البوصيري:

تتباهي بك العصور وتزهو بك عليا ومن بعدها علياء
ما مضت فترة من الرسل إلا بشرت قومها بك الأنبياء

٤ - وهو وإن كان خاتم النبوة، وكمال دارها، فهو صاحب رسالة تصدق الرسالات السابقة. ولا تحتاج إليها، فهو متمم للأنبياء كما قال ﷺ: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابني بيتاً فأحسنها وأجملها وأكملها، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون، ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك. قال رسول ﷺ: - فكنت أنا اللبنة" (١).

و مع أن محمداً ﷺ متمم لرسالات الأمم السابقة و مصدق، فلا يصح أن نترك رسالته إلي أي رسالة أخرى مهما كان قربها الزمني من رسالة محمد ﷺ. فقد حدث المحدثون أن عمر رضي الله عنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟.. فتغير وجه رسول الله ﷺ (وفي روايه فقال: "أمتهوكون" (٢) أنتم يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية" والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتهم (وفي رواية لو كان موسى حياً بين أظهركم ما وسعته إلا اتباعي)، إنكم حظي من الأمم. وأنا حظكم من النبيين" (٣). (رواه الإمام أحمد وابن أبي شيبة بروايات متعددة حاولت أن أجمع بينها.) وإنما كان ذلك كذلك لأن رسالة محمد ﷺ تجمع خلاصة الرسالات السابقة وتزيد عليها في شرائعها وأحكامها.

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ [سورة المائدة ٤٨]. ولذلك أمرنا أن نأخذ من أهل الكتاب ما يتفق مع ما جاء به ديننا. قال تعالى: ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف آية ٤٥]. وقال ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [سورة يونس آية ٩٤].

ومنعنا أن نأخذ منهم ما يخالف ما جاء به ديننا. كما جاء في الحديث السابق.

(١) مسلم فضائل: ٢٢٨٦ / ٢١ والبخارى: مناقب: ٣٥٣٥.

(٢) يعني أمتحيرون شاكون؟

(٣) أحمد: ٤ / ٤٦٥ : ١٨٢٥١ صحيح.

وأمرنا أن نتوقف فلا نصدق ولا نكذب ما لم نجد في ديننا. روى البخاري عن أبي هريرة: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله ﷺ "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم" (١) وفي رواية ابن جرير عن ابن مسعود قال: " .. فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق." (٢).

وذلك أمر معقول. فرسالة محمد ﷺ جاءت وافية بحاجات الزمان والمكان وشاملة للإنسانية جميعاً.

٥- إن أسلوب القرآن الكريم في الحديث عن الأنبياء لا يختلف من نبي إلى نبي موضعاً أنهم مبعوثون إلى قومهم، ولكنه عندما يتحدث عن رسول الله نجد الأمر مختلفاً.

فإذا تحدث عن نوح ﷺ مثلاً قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ [سورة هود آية ٢٥]. وإذا تحدث عن هود قال ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [سورة هود آية ٥٠]. وإذا تحدث عن صالح قال ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [سورة هود آية ٦١]. وإذا تحدث عن إبراهيم ﷺ قال ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ...﴾ [سورة العنكبوت آية ١٦]. وكذلك لوط ﷺ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ...﴾ [سورة العنكبوت آية ٢٨]. وعن موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذَوْنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [سورة الصف آية ٥]. وهذا عيسى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [سورة الصف آية ٦].

لكن عندما يتحدث القرآن الكريم عن محمد ﷺ لا يقول "ولقد أرسلنا محمداً إلى قريش أو إلى قومه أو إلى العرب" كما قال عن الرسل قبله، ولكنه يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء آية ١٠٧] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة سبأ آية ٢٨] وقال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة البقرة آية ١١٩]. وهذا ليس اختلافاً شكلياً، بل هو اختلاف موضوعي، فالرسل قبله كانوا يرسلون إلى أقوامهم خاصة، وأما محمد ﷺ فقد أرسل إلى الناس جميعاً.

كذلك اختلف نداء القرآن الكريم للأنبياء السابقين. عن ندائه للنبي ﷺ. فالقرآن الكريم ينادي الأنبياء السابقين بأسمائهم التي اشتهروا بها في أقوامهم

ولكن نداء القرآن لمحمد ﷺ يختلف في ذلك، فلا نجد في القرآن كله نداء لرسول الله باسمه، وإنما كان يناديه بوظيفته التي بُعث من أجلها. فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا جُنُودَ لَكَ إِلَّا الَّذِينَ

(٤) البخاري: الاعتصام: ٧٣٦٢.

(٢) جزء من حديث أحمد: ٣ / ٣٣٨ : ١٤٥٦٥ حسن، وأبو داود: علم: ٣٦٤٤ نحوه.

يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [سورة المائدة آية ٤١]. ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرَضًا أَرْوَاجِكَ﴾ [سورة التحريم آية ١]. ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة الأحزاب آية ٤٥].

وهذا الذي سبق ذكره في التعبير عن رسالة الأنبياء السابقين، ورسالة محمد رسول الله، وفي نداء الأنبياء ونداء النبي. أسلوب معجز في بيان التوافق بين كل نبي وما أعد له.

فالأنبياء السابقون أرسلوا إلى أقوامهم، فهم يعرفونهم بأسمائهم قبل أن يرسلوا إليهم، فلا جهالة في مواقفهم. فكان مناسباً أن ينادى كل نبي عند قومه المخصوصين بالاسم الذي عرفوه. أما محمد ﷺ فمرسل إلى الناس كافة، ولقد كان قومه يعرفونه باسمه ونسبه. فكان ذلك لا يهتم به الأمريكي والأوروبي والآسيوي. إنما الذي يهمهم أن يعرفوه هو رسالته. دعوته. نبوته. فهو رسول للعالمين، لذلك نودي بما قدم به نفسه للناس برسالته. وهذا دقة في الأسلوب القرآني وبلاغته في مراعاة الأحوال. والحديث عن كل شيء بما يناسبه.

٦- ولما كانت رسالته رسالة عامة، وناسخة لما قبلها من شرائع الرسالات، مع أنها مصدقة لها. وإنما كان النسخ في الشرائع والأحكام التي قد تتغير بتغير الزمان والمكان. وبما أنها رسالة عامة شاملة، فليس من المناسب أن تكرر الشرائع التي شرعت لقوم مخصوصين.

كذلك اختلفت معجزته عن سائر معجزات الرسل السابقين. إذ كانت معجزاتهم جميعاً حسية. تبهر الحواس، ولكنها تنتهي بانتهاء زمانها.. وهذا يتوافق مع رسالة نبيها الذي أرسل إلى قوم مخصوصين. أما معجزة محمد ﷺ، فقد أريد لها أن تتناسب مع الرسالة. فالرسالة تشمل "أفقياً" الكون كله عند بعثة رسول الله ﷺ. وتشمل "رأسياً" امتداد الحياة إلى يوم القيامة. وبما أن الرسالة تظل تخاطب البشرية داعية لها، فالمعجزة أيضاً باقية تخاطب البشرية كلها. وهنا قد يقال - وقد قيل فعلاً - إن رسل بني إسرائيل تعددت معجزاتهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وشق طريق في البحر يبساً إلى غير ذلك. فلماذا لا يكون لمحمد مثل هذا؟ أليس ذلك دليلاً على امتياز أنبياء بني إسرائيل؟

إن معجزة محمد ﷺ التي سيقى للتحددي هي القرآن الكريم، وهي معجزة لا يشاركه فيها نبي من الأنبياء. وهي واحدة، كما أن نبوة محمد في امتيازها وخصائصها واحدة. ولكن ليس معنى ذلك أن نبي الله محمداً ليس عنده معجزات حسية. بل لقد أحصى علماء الحديث والسيره معجزات رسول الله الحسية، ففاقت كل ما رواه التاريخ الديني لبني إسرائيل في العهدين القديم والجديد، فقد ذكروا أن عدد تلك المعجزات بلغ ست معجزات ومائة.

بينما بلغت معجزات رسول الله ﷺ الحسية أكثر من ثلاثمائة معجزة. (١)
إلا أن التحدي أساساً كان بالقرآن الكريم، ولم يرو التاريخ أن رسول الله قال للناس
آمنوا بي لأن الحصى سبح في يده. أو لأن الماء نبع من أصابعه أو لأنه أسرى به. فإن حياة
رسول الله كانت كلها معجزات.

أليس هذا التوافق بين المعجزة وعموم الرسالة، وهذا التوافق بين الحياة البشرية التي
عاشها رسول الله - وهي حياة يستطيعها عموم البشرية - أليس هذا التمييز في نبوة رسول الله
واختلافها في عوارضها عن النبوات السابقة، مع أنها متممة لها ومصدقة لما جاءت به؟.

أليس هذا كله مدعاة لأن يطالب رسول الله الإنسانية كلها أن تؤمن به وبرسالته؟ وقد
أقره ربه بذلك بقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأعراف آية ١٥٨].

أقول: أليس ذلك كافياً لأن يعلن محمد ﷺ أن لا نجاة للبشرية إلا بالإيمان به، وبكل
ما جاء به، حتى ولو كان من أتباع أنبياء الكتب المنزلة؟.

وقد أكد القرآن الكريم ذلك فجعل من قواعد الإيمان أن تؤمن بالرسول جميعاً دون أن
تفرق بينهم، فنؤمن ببعض، ونكفر ببعض.

أما الناجون فيقول الله تعالى فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ﴾ [سورة النساء آية ١٥٢].

٧- أليس من حقنا بعد ذلك أن نقرر مستنديين إلى التوثيق الأصيل:

أ - أن محمداً هو النبي الخاتم للأنبياء، فلا نبي بعده. [سورة الأحزاب آية ٤٠]. وفي
الحديث الشريف: "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت. فلا رسول بعدي ولا نبي" (٢).

ب - وأن محمداً ﷺ أرسل إلى الناس جميعاً في زمنه وإلى يوم القيامة [سورة الأعراف
آية ١٥٨]. وفي الحديث: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، قالوا ومن أبي يا رسول
الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبي" (٣).

ج- وأن رسول الله ﷺ مفضل على الأنبياء جميعاً بما آتاه الله من الفضل واختصه به.
وفي الحديث: "فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب (وفي

(١) ذكره الشيخ رشيد رضا في أول كتابه الوحي المحمدي.

(٢) جزء من حديث الترمذي: رؤيا: ٢٢٧٢ وأحمد: ٢٦٧/٣ وغيرهما.

(٣) رواه البخاري: الاعتصام: ٧٢٨٠ وأحمد: ٢ / ٣٦١.

رواية البخاري، "ونصرت بالرعب من مسيرة شهر"، وأحلت لي الغنائم. وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون"^(١).

د - أليس من حقنا بعد ذلك أن نردد ما جاء على لسانه ﷺ: "أنا سيد ولد آدم وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع"^(٢). وقوله: "إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير فخر"^(٣).

على أن ختمه للأنبياء والرسول لا ينبغي أن نمر به بعد هذه القرون الأربعة عشر دون أن نستخلص منها هذا الأثر الكبير الذي يمثل معجزة أخرى من معجزات رسول الله.

فقد مضى على هذا الإعلان أربعة عشر قرناً، ولم يحدث ما يكذبه. أليس هذا دليلاً صادقاً على صحة نبوته وصدق رسالته؟ إذ لولا أنه كان مستوثقاً من صدقه مخبراً عن ربه أنه لن يأتي بعده نبي ولا رسول، لما قال ذلك.

وقد يقال: لقد ظهر ادعاء للنبوة كثيرون، فماذا تقول فيهم؟

نعم لقد ظهر من هؤلاء من ادعى النبوة حتى في عهد رسول الله ﷺ، وكثير بعده، وهذا أمر متوقع، ولكن أمرهم كما يقول المسيح ﷺ. لأتباعه، "سيكون بعدي أنبياء كذبة. فقالوا: كيف نعرفهم؟ فأجاب: بثمارهم يعرفون".

وهذه كلمة حق، فما أيسر أن يدعي أحد النبوة، ولكن تصرفاتهم وحياتهم هي التي تحكم عليهم. وفي خلال هذه القرون الأربعة عشر لم يأت من تعرف نبوته بثمار عمله. وصدق الله جل وعلا: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [سورة الأحزاب آية ٤٠]. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [سورة الفتح آية ٢٨].

٨- إن ختم الأنبياء والرسول يعني أن تخلو القرون اللاحقة من الأنبياء ومن وحي الله ومن هداية السماء. وذلك لم يكن معهوداً من قبل. فكيف يكون أمر الإنسانية، وقد انقطع وحي السماء ولم يعد يأتيها بشير أو نذير؟

نعم: انقطع تتابع الأنبياء والرسول. ولم يعد هناك نبي أو رسول. ولكن الذي رسم هذا ضمناً أن يكون لدى الناس إلى يوم القيامة ما يعني عن إرسال الرسول. وما يشتمل على

(١) رواه مسلم: مساجد: ٥٢٣ / ٥ والبخاري: تيمم: ٣٣٥.

(٢) رواه مسلم: الإيمان: ١٩٤.

(٣) رواه الترمذي: المناقب: ٣٦١٣ حسن. وابن ماجه: زهد: ٤٣١٤. وأحمد: ٥ / ١٣٧.

خلاصة كل ما جاءت به الأنبياء والرسل.

فخلاصة أمر الدين أنه نبوة ووحى، فالنبوة ممثلة في شخصه وهديه وسنته، والوحي متمثل في الكتاب الذي نزل عليه بالهدى ودين الحق:

أ - ولم يرحل رسول الله إلى ربه حتى كان قد بلغ القرآن الكريم أصحابه. وطالبهم أن يبلغوا بقوله: "بلغوا عني ولو آية"^(١). وقوله ﷺ: "نصّر الله وجه امرئ سمع مقالتي فآدأها كما سمعها، فربّ مُبلغ أوعى من سامع". وفي رواية أخرى "فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه"^(٢).

ولم يغادر رسول الله الدنيا حتى كان القرآن الكريم قد حُفظ في الصدور وُتّب في السطور. وكان كثير من أصحابه من يحفظ القرآن كله. وباقي أصحابه يحفظ كل منهم ما يستطيع حفظه.

وبعد رسول الله اجتهد المسلمون في المحافظة على القرآن الكريم بجمعه في مصحف، وحفظه في الصدور. حتى أصبح ذلك مما تتميز به الحياة الإسلامية والثقافية.

ولا يزال القرآن غصاً طرياً كما أنزل. برغم تتابع الأزمان والدهور. وإن من أكبر الأدلة على صحته وصدقه.. أنه بالرغم من تعدد المذاهب ووقوع الخلاف بين المسلمين، فلم يقم أى خلاف حول القرآن الكريم. وهكذا عاش في الإنسانية العنصر الأول وهو الوحي: "القرآن الكريم".

وأما النبوة المتمثلة في شخص رسول الله ﷺ فهي لا تتوقف على وجود شخصه المادي أو حياته الزمنية. إن النبوة هنا تتمثل في هدى رسول الله وإرشاده ونصحه. وما سمي "بِسُنَّتِهِ".

ولقد هيأ الله الأمة لأن تحفظ سنة رسول الله، كما هيأها لتحفظ كتابه، فتجرد لذلك آلاف العلماء الذين وضعوا الشروط لصحة ما ينقلونه عن رسول الله. حتى انفردت هذه الأمة دون سائر الأمم بحفظها لحياة نبيها وسنته. فلا نكاد نجد منها شيئاً مجهولاً.

وبهذا بقيت الرسالة. وكل ما في الأمر أن شخص النبي قد رحل عن الدنيا، أما نبوته فقد بقيت كما بقي الوحي المنزل عليه، ومن هنا نستطيع أن نقرر أن العمل الإلهي في هذا هو إعجاز آخر. فمحمد ﷺ باق معنا في سنته. ومحمد باق معنا في الوحي المنزل من

(١) جزء من حديث البخارى: الأنبياء: ٣٤٦١ والترمذى: علم: ٢٦٦٩ حسن صحيح.

(٢) أبو داود: علم: ٣٦٦٠ والترمذى: علم: ٢٦٥٦ حسن. وسبق تحريجه.

السماء، فما فقد الناس من أمر الرسالات نبوةً ولا وحياً؟.
وصدق الله العظيم: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ
مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف آية ١٥٧].

* * *

المبحث الرابع: الدعوة لوحدة الإنسانية

يلتقى المسلمون جميعاً على أن الإنسانية تتساوى في أصلها، وفي نشأتها، وفي خصائصها، وفي أنها مدعوة إلى عبادة الله وحده، وفي أن مصيرها واحد.

١- الله وحده هو الذى أوجد هذا النوع وميزه عن سائر أنواع المخلوقات. فبدأ خلق الإنسان من طين ثم سواه بشراً سوياً، وجعله في خلقه ووجوده يخضع لمراحل مختلفة، لا يختلف فيها إنسان عن آخر. وضح القرآن الكريم هذه المراحل فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون آية ١٢ - ١٤].

فالناس جميعاً أبيضهم وأسودهم، وأصفرهم، وشرقيهم وغربيهم متفقون في أصل خليقتهم. في الحديث الشريف. "الناس بنو آدم، وآدم من تراب" (١)

وفي القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [سورة النساء آية ١].

فالناس جميعاً يلتقون في هذا الأصل: فليس هناك عروق مقدسة، وعروق غير مقدسة. وليس هناك أجناس من الدرجة الأولى. وأخرى من درجات أقل. وليس هناك دماء زرقاء خلق منها الملوك والنبلاء.

ليس فيما خلق من بنى الإنسانية تفاوت في أصول الخلقة. وإذا كان الناس قد أحدثوا ضرباً من هذا التفاوت فهو من صنعهم - وليس من صنع الله فيهم - فالذين ميزوا من بنى الإنسان باللون فجعلوا الأبيض غير الأسود. أو بالعرق فجعلوا الأجناس الآروهندية فوق غيرها من الأجناس. بل جعلوا بعض الأجناس الآرية فوق غيرها، حتى من الأجناس الآروهندية مثل قولهم "ألمانيا فوق الجميع". ومثل إدعاء الآريين أنهم أسمى من الساميين.

كل ذلك باطل في منهج الله، ومنهج الإسلام كما قدمه لنا رسول الله ﷺ. وأبلغ مظاهر التفاوت بين بنى الإنسان، وقيامها على نظام طبقي عنيف، ما يدعيه البرهميون في الهند من أن المجتمع تتفاوت طبقاته بتفاوت أصل الخلقة، فالجتماع أربع طبقات تتفاوت في أصولها تفاوتاً شنيعاً:

(١) جزء من حديث أبي داود: أدب: ٥١١٦، والترمذى: مناقب: ٣٩٥٥، وقال حسن. وأحمد: ٥٢٤/٢: ١٠٧٢٧ صحيح.

- ١- فالطبقة العليا خلقها براهما من فمه. وهى طبقة رجال الدين والكهنة (البرهمنيون).
- ٢- طبقة الشاترى. وهم رجال الحرب خلقهم براهما من سواعده.
- ٣- والویش. وهم رجال الزراعة والتجارة خلقهم برهما من أفخاذه.
- ٤- والشودر خلقهم من أرجله.

وبناء على هذا فكل طبقة تقوم بما خلقت له ولا تتعداه. وعلى طبقة الشودر أن تقوم بخدمة الطبقات الثلاث التى فوقها.^(١) وقد أصبحت طبقة الشودر هى طبقة المنبوذين فى الحياة الهندية. وقد قال عنها القانون الذى ينظم هذه الطبقات: إنهم أخطر من البهائم، وأدنى من الكلاب، ومن سعادتهم أن يخدموا البراهمة. بلا أجر أو ثواب.^(٢)

ولقد رفض الإسلام ذلك وأكد قرآنه الكريم، وسنة نبيه الشريفة أن أصل الإنسان واحد، فأدم خلقه الله من تراب، وأدم هو أبو البشرية. منه تكاثرت وتناسلت. وستبقى كذلك إلى يوم القيامة:

١- يُلغى الإسلام كل الفوارق التى تميز إنساناً عن إنسان إلا أن يكون الميزة هى الفضل والتقوى والسلوك الجميل، ونحن هنا نتكلم عن وحدة الأصل. فلنستمع إلى ما قاله نبي الإسلام فى حجة الوداع وهو يرشد المسلمين إلى أهم مبادئ دينهم. يقول: "أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. ألا لافضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ألا هل بلغت"^(٣)

وهكذا أرسى رسول الله ﷺ قواعد الوحدة الإنسانية. إن الناس هم الذين يجعلون من هذه الألوان أو الأعراق وسيلة للفرقة التى ما دعا إليها دين ولا أرشد إليها نبي. إن الله تبارك وتعالى عندما تحدث عن وحدة الإنسانية لم يقل يا أيها المؤمنون. وإنما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [سورة الحجرات آية ١٣]. فالناس فى الآية عنوان لكل البشر لكل بنى آدم. فالعرب ناس والترك ناس. والأمريكان ناس، والألمان ناس فهم وغيرهم سواء. وقد بينت الآية أن تعدد الشعوب والأجناس ليس لوجود الفرقة، ولا للتمايز العنصرى واللونى وإنما هو كما قالت الآية: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

فتعدد الأجناس والألوان والشعوب والقبايل، مثل أحياء المدينة مثلاً ليسهل التعارف

(١): (٢) من كتاب (ماذا خسر العالم بالخطايا المسلمين) - أبو الحسن الندوى - ص ٧٣ طبعة الندوة.

(٣) المعجم الكبير للطبرانى. وانظر حجة الوداع.

والتأخى . ولقد كان سلفنا الصالح موفقاً في شرحه لمثل قوله ﷺ: "المسلم أخو المسلم" (١). فقد قالوا: إن الوصف "بالمسلم" قيد اتفاقى أى قيد يحكى الواقع. وليس لإخراج غير المسلم من الأخوة. والمراد: الإنسان أخو الإنسان.

٢- وكما اتحدت البشرية في أصلها وفي نسبها، وفي تكوينها الخلقى، اتحدت كذلك في نشأتها في الحياة. فالناس جميعاً يخرجون إلى الحياة أطفالاً ضعافاً لا حول لهم ولا قوة. ثم تتطور حياتهم، فتتحول من طفولة إلى صبا، ومن صبا إلى شباب، ومن شباب إلى كهولة. ومن كهولة إلى شيخوخة، ثم إلى فناء. ومنهم من يسبقه الفناء فلا يمضى إلى كل هذه المراحل.

هذا هو قدر الله وحكمه على حياة الإنسان، فلن نجد جنساً يخرج على هذا النظام. مما يؤكد أن الأصل واحد. والرب الذى رسم أسلوب الحياة واحد. وهذا ما يتفق عليه الناس جميعاً، فلا محل لإنكاره. فهو سنة الله في خلق الإنسان وفي حياته. وهذا ما أكدته القرآن الكريم في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ (الجنين - الطفولة) ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً (الصبا والشباب) ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً (الكهولة والشيخوخة) يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الروم الآية ٥٤].

والقرآن يوضح هذه الحقائق فيسوقها مرة بهذا الأسلوب الجمل ويسوقها مفصلة بأسلوب آخر. انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [سورة الحج آية ٥].

والقرآن الكريم في موضع آخر يضع مكان الجملة الأخيرة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ فيقول في سورة غافر ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [آية ٦٧].

هذا هو نظام الإنسان في الكون، الناس جميعاً فيه سواء، وما يوجد من لونٍ وفقيرٍ وغنىٍ وجنسٍ ومكانٍ وزمانٍ، فكل ذلك عوارض لا تشكل فروقاً، ولا تعطى تمييزاً عنصرياً، ولا حقاً لقوم ليس لآخرين.

٣- إن هذا النوع من المخلوقات قد ميزه الله عن سائر مخلوقاته فوق الأرض، بل جعله خليفة في الكون، يصلحه ويعمره بكلمة الله ووحيه. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة آية ٣٠]. ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود آية ٦١]. ولكى ييسر له الحياة مهد له الأرض وهبها له قبل خلقه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي

(١) جزء من حديث البخارى: مظالم: ٢٤٤٢ ومسلم: بر: ٢٥٦٤ وغيرهما.

الأرضَ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴿ [سورة الأعراف آية ١٠] . وهياً المخلوقات التي تعيش في الأرض لمنفعتهم، وجعل له فيها غذاءه وسقائه ورحلاته. ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفَأٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْإِنْسَانِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [سورة النحل آية ٥-٨].

وهذه المخلوقات أقوى من الإنسان، وأضحك منه. وما كان للإنسان أن يستعين بها إلا بتسخير الله وإقداره عليها. بل لأن الله تعالى يمهد الأرض ويدللها ليعيش الإنسان فوقها، وهو يجد فيها رزقه وطعامه وشرابه: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [الملك آية ١٥]. ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجَاحًا لِّغُيُوبِ اللَّيْلِ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضِلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ [سورة الرعد آية ٣-٤]. ﴿ وَاللَّيْلُ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة النحل آية ١٥].

فهذه الأرض الواسعة المتكورة بسطها خالقها. وهذه الجبال الشاخمة أرساها خالقها. وأسقط من السماء المطر. فجادت أرضها بالزرع والشجر والثمر. لمن كل هذا؟ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [سورة عبس آية ٣٢]. وقال عن الأنعام أنه ﴿ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ [سورة النحل آية ٥]. بل إنه قال عن البحار الواسعة والمحيطات الهائلة إنه سخرها أيضاً لكم ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [سورة الجاثية آية ١٢-١٣].

أرأيت إلى كلمة " لكم " التي تكررت في هذه الآيات. إنها لاتعنى فريقاً من الناس دون فريق. لقد نزلت هذه الآيات جميعها في مكة. والمسلمون عشرات. فليس مما يعقل أن يكون الهدف من كلمة " لكم " الذين آمنوا في مكة. وإنما المقصود بديهةً هو الإنسان أينما كان، مسلماً كان أو كافراً، شرقياً كان أم غربياً، أسود كان أم أبيض إنها الإنسانية التي تتحد في أصلها ونسبها وتتفق في تطورات حياتها.

٤ - هذا الإنسان الذي هياً الله له الأرض ليحيا فوقها، وسخر له فيها كل شيء لينتفع به، ويصلح به حياته، هذا الإنسان قد رفع الله من شأنه فجعل مبدأ حياته " حفالاً ربانياً " تشهد فيه ملائكته، وأعلن الله فيه مبدأ حياة جديدة لكائن جديد ليس كسائر

الكائنات. بل هو كائن مكرم بين خلقه. ومفضل على كثير من خلقه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء آية ٧٠].

فالله كرمه. ومن تكريمه أنه جعله خلقاً يتميز بعقل يدبر به ويفكر. ويستجيب للنصح والإرشاد. ومن تكريمه أنه يسر له الحياة. وسخر له المخلوقات دونه. ومن تفضيله أنه أشهر خلقه في مهرجان رباني. فأراه ملائكته. وأسجد لهم له. ومن تفضيله أنه جعله مخلوقاً يعلم ويتعلم ويهتدى ويهتدى. وأشهر ذلك أمام ملائكته فعلمه الأسماء كلها. وطلب من ملائكته أن يخبروا بهذه الأسماء فعجزت الملائكة، فقال لآدم: "أنبئهم بهذه الأسماء" فقام بذلك مخبراً بها الملائكة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [سورة البقرة آية ٣١-٣٣].

فآدم إذن مخلوق وهبه الله القدرة على أن يكون تلميذاً وأستاذاً، وأن يكون بهذه الموهبة قادراً على أن يطور حياته. فالعلم الذى يتعلمه الإنسان هو الذى يعطيه القدرة على أن يخرج من جهل إلى معرفة يصلح بها شأنه. ويطور بها حياته. والإنسان دون غيره من المخلوقات هو الذى طور حياته حتى أصبحت كما نراها اليوم.

والعلم الذى يكسبه الإنسان، قد يأتيه من خارجه، وقد يصل إليه بعقله وتفكيره. والعلم الذى يأتيه من خارجه قد يأتيه من الكائنات حوله. وقد يأتيه من وحى ربه، وهذا طبيعة إعداده وتكوينه الذى فطره الله عليه. ولذلك جاء آخر القصة ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [سورة البقرة آية ٣٧]. وفى سورة طه ﴿فِيمَا يَأْتِيكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [آية ١٢٣].

وآدم عليه السلام فيما عرضنا من مواقف، إنما نعى به الإنسانية كلها. فهو أبوها والإنسان نسله. وعندما عرض الله تبارك وتعالى قصته، إنما عرض في ثناياها قصة الإنسان الذى خلقه ربه، وخلق منه زوجه، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء. هم الناس الذين لهم وحدة الأصل، ووحدة الأطوار.

فكان مقام به آدم. وأعطى له من الحياة والنشأة والأطوار ما أصبح فطرة فيه، وأصبح من خصائص الإنسانية، ومن موروثاتها عن أبيها وأمها. كما يقول القائل:

إرثٌ تمشى في دمي منهما ميراثه ينتظم العالم

كما عرضنا ما هياً الله له فوق الأرض من حياة وإمكانات، وهياًه لأن يستقبل هدايته ووحيه.

٥- إن هذا الإنسان الذى خلقه الله بهذه الصفات والقدرات، لم يخلقه لمجرد عمارة الأرض، وإنشاء المدن والقرى، وشق الطرق، ورفع البنيان ليعيش ممتعاً بأرزاق الله فحسب. وإنما خلقه ليسلكه فى جملة خلائقه الخاضعة له، الساجدة له ولعظمته.

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [سورة الإسراء آية ٤٤]. ﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [سورة مريم آية ٩٣].

فهو إذن أحق هذه المخلوقات بما وهبه الله وأعطاه، أن يكون عبداً عابداً، ولذلك خُلق. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴾ [سورة الذاريات آية ٥٦-٥٧].

فالإنسانية إذن مخلوقة لتعبد ربها، وتنقاد له، ولكن كيف تعبد، والله لا يعبد إلا بما شرع، ومن غيّر فى ذلك فقد ابتدع، ومن أجل ذلك جاءت الأنبياء، وشرعت الأديان، وأُرسل محمد ﷺ وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ورحمة للعالمين.

* * *

المبحث الخامس: الدعوة لوحدة الأمة

أ - التقى المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على الإيمان برب واحد، رب العالمين. والإيمان بنبي واحد يتبعونه ويؤمنون به، ولا يتبعون نبياً غيره. ويؤمنون بكتاب واحد هو خير كتب الله المنزلة، يتبعون شريعته، ويلتقون على عبادة، أصولها واحدة، فالمسلم في إفريقيا يصلي كما يصلي المسلم في آسيا، والمسلم في آسيا يصوم كما يصوم المسلم في أوروبا وأمريكا.

وقد أفرزت معتقداتهم عادات وتقاليد، توشك أن تكون واحدة في كل بقاع الأرض، فطريقة الزواج في باكستان هي طريقة الزواج في السنغال. والاحتفال بالمولود في إفريقيا كاحتفال بالمولود في آسيا. وعادات الأفرح والأحزان توشك أن تكون متحدة. والعلاقات الاجتماعية - وما تقوم عليه من قيم في الأدب والسلوك والتعامل - تكاد تكون واحدة، إلا ما أحدثته التقاليد الواردة الجديدة.

وهذه المعتقدات وهذه العادات وهذه التقاليد، هي أكبر عناصر وحدة هذه الأمة، وهي التي جعلتها "كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".^(١) حتى إن أحد القواد الفرنسيين "مارشال لبوني" - أثناء ثورة المنطقة الخليفية بالمغرب - قال: إن العالم الإسلامي كعلبة الصفيح، إذا طرقتها من جانب، رددت طرقتك بقية الجوانب.

هذا هو علمنا الإسلامي، ألف الله بين قلوب أبنائه، وجعل الألفة والإخاء من مقومات شخصيته ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال آية ٦٣].

وقال عن التآخي بين المسلمين ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [سورة آل عمران آية ١٠٣] ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الحجرات آية ١٠].

وما أروع قول النبي ﷺ في وصف هذه العلاقة: "إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً".^(٢)

(١) جزء من حديث البخارى: أدب: ٦٠١١ مسلم: بر: ٢٥٨٦.

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة: ٤٨١، ومسلم فالير: ٢٥٨٥ وغيرها.

إن هذه الوحدة غطت بل ألغت كل عوامل الفرقة عندما جاء الإسلام حتى صاح المسلم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهتف غيره:

وأينما ذكر الإسلام في بلد عددت أرجاءه من لب أوطاني

وهكذا أذاب الإسلام عوامل الفرقة من نسب وقبيلة ووطنية وشعوبية، فلم يرتفع صوت من ذلك إلا عندما ضعف الوعي الإسلامي، وضعفت الوحدة والتآخي والتآلف.

إن من معجزات نبي هذا الدين محمد ﷺ التي يؤرخ لها الناس باعتبار أنها من كبريات حقائق التاريخ، هاتين المعجزتين اللتين لم تر لهما مثيلاً في التاريخ:

الأولى: أنه من المجتمعات الوثنية - المنحرفة في مفهوم الألوهية والتي حطمتها انحرافات المذاهب الضالة - صنع نبي الإسلام أمة التوحيد لا تعرف لله نداً، ولا شريكاً ولا شبيهاً ولا نظيراً. وإنما الله هو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. صنع ذلك - بوحى من الله وتوفيقه - في أقل من ربع قرن، وانتشر وعم العالم المعمور في أقل من قرن، حتى غدت هذه الأمة يطلق عليها بحق (أمة التوحيد) الخالص النقي.

وأما الثانية: أنه صنع - بعون من الله وتوفيقه - من شتات العرب ومن تفرقهم ومن صراعات قبائلهم، ومن نفور بعضهم من بعض، وقتال بعضهم بعضاً لأوهى الأسباب حتى تمدحوا بذلك فقال قائلهم:

لايسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

لقد صنع من هذه الأمة - التي ما عرفت النظام والدولة والوحدة - أمة متحدة. تنتظم في قيادة واحدة وحكومة واحدة. ولم يفارق النبي الحياة إلا والجزيرة العربية توحيدها دولة، وتنظمها حكومة.

لا يمكن أن يفسر هذا بمقاييس العمل البشري، وإنما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء، وأجراه على يد نبيه، فكان معجزة من معجزاته الدائمة الأثر. ولم يفارق النبي ﷺ الدنيا إلا بعد أن رأى بعينه أمة واحدة تذوب فيها فوارق اللون والجنس والقبيلة والأوطان والقوميات، والناس جميعاً تظلمهم راية لا إله إلا الله وتجمعهم وحدة الإسلام.

* * *

ب- والرسول ﷺ لم يصل إلى تقرير هذه الوحدة بالأمامي والدعاء فقط. ولكنه عالج كل عوائق الوحدة بما يناسبها من حلول:

١- فبدأ بتكوين الأمة المؤتلفة على أساس من الود والحب والإخاء. وكان من أكبر مظاهر ذلك عندما كان الإسلام يمثل المهاجرين والأنصار، فأخى بينهم أخوة فاقت في أهدافها أخوة النسب، فأخوة النسب يعترتها اختلاف الدين عند غير الأمة الإسلامية، ولكنها في الأمة الإسلامية لا تستقيم مع اختلاف الدين، فإذا كان الأخ غير مسلم فليس أخاً، وتنقطع عنه كل الحقوق الشرعية إلا حسن المعاشرة ومظاهر التواد. فالله ينهي عن الموالاة والتناصر بين مسلم وكافر. حتى ولو كان الكافر ابناً أو أخاً أو أباً. ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النساء آية ١٤٤]، ثم يقول سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [سورة التوبة آية ٢٣].

وبذلك تغير مفهوم الأخوة الذي اعتاده الناس إلى مفهوم يجمع بين أخوة النسب وأخوة الدين. فتدعم أخوة الدين أخوة النسب، إلا إذا اجتنبت العقيدة، فكان أخ مؤمناً والآخر كافراً، عند ذلك لا أخوة في الإيمان. فتبقى أخوة الإنسانية. فأخوة الإيمان تعلو فوق أية علاقة، من أخوة أو أبوة أو بنوة. وصدق الله العظيم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة التوبة آية ٢٤].

وبهذا استقر مفهوم الأخوة دعماً لوحدة الأمة. وارتفاعاً فوق كل العلاقات الاجتماعية.

ولقد ظهر أثر ذلك في المواقف المختلفة، ففي غزوة بدر رأى عبد الرحمن بن أبي بكر أباه، وكان في قدرته أن يقتله، ولكنه لم يقتله وكان الإبن كافراً، فذكر ذلك لأبيه بعد أن أسلم، فقال له أبو بكر: - أنا - والله - لو رأيتك يومئذ لقتلتك، فكان نسب الإسلام عند أبي بكر أعظم من نسب البنوة.

وفي نفس الغزوة التقى أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ بأبيه. وكان الأب كافراً فسارع أبو عبيدة إلى قتله. فتحدث الناس أن أبا عبيدة قتل أباه. فأنزل الله في ذلك قرآناً يتلى يؤيد موقف أبي عبيدة. قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة آية ٢٢]. لكن الإسلام إذا كان يُعتبر هو النسب الحقيقي في العلاقات البشرية، فليس معنى

ذلك، أن يدعم العداوة والخصومة عند اختلاف هذا النسب، بل على العكس من ذلك. إنه يرجع في ذلك إلى الوحدة الإنسانية العامة. فالناس ماداموا يتعايشون في مودة وصفاء، فهم بذلك في ظلال الأخوة الإنسانية العامة. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة آية ٨]. فالخلاف في الدين لا يمنع من التعايش السلمى والتعامل الودى. ولكل معتقده، ولكل أسلوبه في الحياة.

٢- وللقبيلة أثرها، وعظيم تأثيرها في نفوس بنيتها. ومن طبيعة التكوين البشرى أن الإنسان يألف من يجانسه أو يجمعه به علاقة نسب، وذلك ثابت في أصل الفطرة الإنسانية، ومن مبادئ الإسلام أنه لا يصادر الفطرة. بل هو الفطرة - كما قال الله جل ذكره ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم آية ٣٠]. وإنما ينظمها ويعدها بما يشرع لها حتى لا تنجح.

وقد جاء الإسلام. ويكاد العربى يرى القبيلة هى الدولة، وهى الأمة، وهى كل شئ يهتم به ويؤمن بنصرته، ويبدل الروح في سبيله... فلم ينكر الإسلام ذلك كله وإنما عدل من غلوائهم، وبدل أن يجعل القبيلة هدفاً وغاية، جعلها وسيلة للانتصار للخير. ودعماً للمبادئ الإسلامية. فأيناه ﷺ في مواقف الجهاد يستثمر اعتزاز العربى بقبيلته لنصرة الإسلام.

فيروى عنه أنه كان يقول عند اشتداد المعركة: "امتازوا أيها الناس حتى نعلم من أين نؤتى". ومعنى ذلك أن الرسول ﷺ يطلب من كل قبيلة أن يكون لها منزلتها من المعركة حتى تتحمس في الدفاع عنه، وتحشى سوء العاقبة أمام الناس إن هى قصرت، وكان يمدح أو يذم القبائل باسمها، وبحسب ما قدمت من خير. فيروى عنه أن كان يقول: - "غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله وعصية عصت الله ورسوله..".^(١)

وهذا إقرار واضح بالقبيلة. ولكن على شرط أن تكون في خدمة الوحدة الإسلامية، مانعة للفرقة، مستجيبة لما قرر الإسلام في حياة المسلمين من ألفة. وعلى هذا رأينا القبيلة التى كانت كارثة على الحياة العربية في الجاهلية، تستجيب للوحدة الإسلامية. وتصبح من عناصر النصر الإسلامى في مواقف الجهاد.

وكلما كانت القبيلة داعمة للإسلام منصرفه إليه، بعيدة عن أنانيتها وتعصبها لنفسها، علا شأن الإسلام وواصل تقدمه.

ولكن عندما ينتصر في القبيلة تعصبها لنفسها. يأتى الخلل في حياة الأمة. وتتفرق

(١) جزء من حديث مسلم ٣٠٨/٦٧٩

شيعياً وأحزاباً. وقد كانت آثار هذه العصبية القبلية من أشنع ما مُنى به الإسلام في تاريخه. ولذلك نهي رسول الله عنها فقال: "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية. ليس منا من مات على عصبية" (١).

إن رسول الله ﷺ وهو يدعو إلى الأمة الواحدة، كان من أشد ما قاوم هذا الاتجاه الكريم، هو نظام القبيلة الذي كان متمكناً من العرب تمكن الغرائز والعواطف. حتى إن أول ما واجه وحدة المسلمين بعد قيامها في المدينة المنورة، كان ثورة القبيلة. فقد روى ابن اسحاق وأصحاب السير "أن يهودياً مر بملاً من الأوس والخزرج فسأه ما هم عليه من الاتفاق والألفة. فبعث إليهم رجلاً يهودياً. وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم بما كان من حروبهم يوم بُعث. (وهي حروب اقتتل فيها الأوس والخزرج شر قتال) ففعل. ولم يزل ينشد أشعار يوم بعث حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على بعض، فثاروا وتنادوا بالسلاح وتواعدوا إلى الحرة، (أي ليقاتل بعضهم بعضاً) فبلغ ذلك النبي ﷺ فأثامهم، وجعل يسكنهم ويقول: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم". وتلا عليهم ما نزل في شأنهم من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة آل عمران الآيات ١٠٠-١٠١]. فندم الأنصار ورجعوا إلى ما دعاهم إليه الإسلام من الألفة والوحدة. كما جاء في قوله تعالى بعد هذه الآيات: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران آية ١٠٣].

وهذه الآيات ترد على كل محاولة لتفريق الوحدة الإسلامية، فقد جعلت ذلك نوعاً من الكفر. ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾. وبمثل هذا أعلن رسول الله ﷺ في حجة الوداع: "لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" (٢).

رفض الإسلام أن تكون القبيلة وسيلة فرقة وشتات للمجتمع الإسلامي، ولكنه لم يرفض قبيلة تكون خادمة للإسلام، ومستجيبة لمبادئه، في ظلال الوحدة. التي تجمع المسلمين جميعاً.

٣- والناس يحبون أوطانهم، وتفنى قلوبهم إليها عندما يتعدون عنها. وهذا في حقيقته من الفطرة، فبعض الطيور تهاجر من أوطانها في أوقات معينة من السنة، ثم ترجع برغم بُعد المسافة، والإنسان إذا اغترب عن وطنه تعلق قلبه به حتى بالغ أحدهم فقال:

(١) رواه أبو داود: الأدب: باب العصبية: ٥١٢١.

(٢) رواه البخارى: علم: ١٢١ ومسلم: إيمان: ٦٥ وغيرهما.

وطنى لو شغلتنى بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

ونحن - وإن لم نقر الشاعر فى هذه المبالغة - لكننا نعدده لعميق حب الإنسان لوطنه.

وكما قلنا من قبل: إن الإسلام لا يصادر الطبائع والفترة. بل ينظمها ويشرع لها ما يجعلها خادمة لحياة كريمة سعيدة. فالإسلام يقر حب الإنسان لوطنه، أرأيت إلى رسول الله ﷺ وهو خارج من مكة مهاجراً إلى المدينة. يقول لمكة: "والله إنك خير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت" (١).

إن الإسلام يطالب المسلم أن يحب وطنه وأن يدافع عنه إذا ألمت به الخطوب، ولكنه لا يرضى أن يكون التعصب للوطن هادماً للوحدة ومفرقاً للجماعة. فالجماعة كما يقول الرسول ﷺ "رحمة، والفرقة عذاب" (٢) والله سبحانه يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران آية ١٠٣] وفي الحديث: "فعلبيكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية" (٣).

ولقد حاولت الوطنية أن تطل برأسها فتهدم الوحدة، وتقطع الأواصر، ولكن رسول الله عالجها بحكمته، وبما جاءت به الشريعة من دفع كل سبب للفرقة والاختلاف، وذلك: أن رسول الله عندما كان فى غزوة بني المصطلق، والجيش مقيم هناك، فتنزع جهجاه بن سعيد الغفاري، وكان يخدم عمر بن الخطاب، وسانان بن زيد الأنصاري. فقال سنان: - يا معشر الأنصار (أهل المدينة) وقال جهجاه يا معشر المهاجرين (أهل مكة). فتنزعوا فبلغ رسول الله ﷺ فأمر بالتجهز للرحيل فى غد مواعده.

روى القصة ملخصة الإمام البيهقى عن جابر بن عبد الله يقول: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة فكسع (ضرب) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: الأنصاري يا للأنصار، وقال المهاجري يا للمهاجرين. (أي انتصر كل منهما بوطنه ليستعين به على خصمه)، فقال رسول الله ﷺ "ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة" (٤).

(١) رواه الترمذى: مناقب: ٣٩٢٥.. وقال حديث حسن صحيح. وابن ماجه: مناسك: ٣١٠٨ والدرامى: ٢٥١٠.

(٢) رواه أحمد: ٤ / ٢٧٨ : ١٨٣٦١ صحيح.

(٣) رواه أبو داود: الصلاة: ٥٤٧، النسائى: كتاب: الإمامة: ٨٤٣ وأحمد: ١٩٦ / ٥.

(٤) جزء من حديث البخارى: ٤٩٠٥ والترمذى: ٣٣١٥ وقال حسن صحيح كلاهما فى تفسير سورة المنافقين ورواه غيرهم.

فحكّم رسول الله بهذا على أن التعصب للأوطان مما يحطم الوحدة. فهي دعوى جاهلية. وهي كما قال ﷺ (متنتة) أي عفنة قذرة، فقد حاول أعداء الإسلام أن يحطموا وحدة الأمة. حتى قال قائلهم فيما ذكره القرآن الكريم: ﴿لِنُنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [سورة المنافقون آية ٨]. ورجعوا إلى المدينة وعالج الرسول الكريم ﷺ هذا الموقف حتى تعزز في مناهج الإسلام أن الأوطان خادمة للوحدة الإسلامية وليست مفرقة لها.

٤- وقد رفض الإسلام منذ لحظاته الأولى أن يستجيب لأي محاولة لتفرقة الأمة باسم اللون أو الفقر أو الجنس، ولا يزال الناس يتلون قرآن الله الذي يرفض التفرقة في أي لون من ألوانها. فقد حدث التاريخ أن كفار قريش وهم السادة والأشراف لم تعجبهم تسوية الإسلام بين بني البشر "الناس سواسية كأسنان المشط". فجاءوا إلى رسول الله يطلبون منه أن يؤمنوا به بشرط ألا يسوى بينهم وبين العبيد والضعفاء، وأن يجعل لهم مجلساً لا يشاركون فيه عبيد ولا فقراء، أو يجعل لهم يوماً، وللسادة من قريش يوماً آخر. فنزل القرآن يرد بأسلوبه المحكم ليكون حكماً فاصلاً إلى يوم القيامة، فيقول للنبي ﷺ ولكل المسلمين في عصره وبعد عصره: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف آية ٢٨].

حاول كفار مكة أن يقرروا نظام الطبقة والتمييز اللوني والعنصري والمالي. فكان للقرآن الكريم صيحة مدوية إلى يوم القيامة: ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [سورة الكهف آية ٢٩]. فمن شاء أن يرضي بإسلام يقوم على وحدة أبنائه دون تمييز بسبب اللون والجنس أو الفقر فليؤمن. ومن لم يرض بذلك فلا شأن للإسلام به وليبق على كفره. فقد كان المجتمع الإسلامي - ولا يزال - لا يعترف بهذه الفوارق منذ قضى عليها رسول الله بمواقفه الواضحة. وعندما حاول بعض صحابته أن يجعل للون قيمة في تقويم الرجال والانتقاص من مكانتهم، قال رسول الله ﷺ أن هذا عودة إلى الجاهلية. والقصة كما رواها الإمام أحمد في مسنده: "قال بلال: يا نبي الله لقد قامت بيني وبين أبي ذر مشادة الآن. فقال يا ابن السوداء. وأقبل أبو ذر. فقال له النبي ﷺ: يا أبا ذر بلغني اليوم أنك غيرت أخاك بأمه، قال أبو ذر: نعم. فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر: إنك امرؤ فيك جاهلية: يا أبا ذر. انظر. ليس بخير من أحمر على أسود إلا أن يفضلته بالتقوى". (١) وفي رواية: "طف الصاع! طف الصاع! ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء".

(١) مسند الإمام أحمد: ٥ ص ١٥٨: ٢١٣٠١ صحيح.

ولقد كرر رسول الله ﷺ هذه الحقائق في خطبة الوداع التي أصبحت دروساً في الحياة الإسلامية. فمرة يقول: "أيها الناس إن ربكم واحد. وإن أباكم واحد. كلكم لآدم. وآدم من تراب. ليس لعربي فضل على عجمي. ولا عجمي فضل على عربي إلا بالتقوى. ألا هل بلغت. اللهم فاشهد".^(١)

ويقول في حجة الوداع أيضاً: "أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة. فلا يحل لامرئ مسلم من مال أخيه إلا ما أعطاه منه، فلا تظلمن أنفسكم. اللهم قد بلغت".

هكذا قضى رسول الله على كل عوامل الفرقة سواء كان ذلك من الدعاوى التي سبق أن تحدثنا عنها. أم كانت من الدعاوى التي أفرزتها الحضارة الحديثة. ومزقت بها الشعوب والأمم. فيقول ﷺ: "من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثي جهنم". قال رجل وإن صام وصلى، قال رسول الله: "وإن صام وصلى. فادعوا عباد الله بدعوى الله التي سماكم بها مسلمين"^(٢). ودعوة الله التي سمانا بها المسلمين فإنما هي الدعوة إلى إقامة الأمة المسلمة الواحدة التي يقول الله عنها: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء آية ٩٢]. فتحت ظلال هذه الآية أقام الإسلام وحدة الأمة.

* * *

^(٢) سبق تخريجه.

^(٢) رواه الإمام أحمد (أنظر المسند ج٤، ص ١٣٠، ٢٠٣). وجثي جمع جاث وهو من جلس على ركبتيه فهو من جثي جهنم. وهو جمع جثوة وهي الشيء المجموع.

الفصل الثالث أثر القرآن الكريم في حياة الناس

المبحث الأول: معجزة القرآن وأثرها في أمة أمية

القرآن نفسه هو المعجزة والدعوة:

إن القرآن الذى تفرد بين الكتب المنزلة بأنه المعجزة التى أعطاها الله لنبيه محمد ﷺ تأييداً له وهداية منه لمن آمن به. كان هو أسلوب الدين الجديد فى الدعوة إلى الله. بخلاف من سبقه من الرسل.

فموسى ﷺ عندما جاء إلى فرعون قال له ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [سورة الأعراف آيات ١٠٥-١٠٨]. وهكذا من أول الأمر أعلن موسى ﷺ دعوته. حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق. وأعلن وسيلة صدقه ببيان معجزته. فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبین ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين.

وعيسى مثل موسى عليهما السلام - حدد الله معجزاته منذ التبشير بولادته. إذ عندما تعجبت مريم عليها السلام من أن تنجب ولداً بغير أب. قال الله تبارك و تعالی لا عجب فى ذلك، فإن الله ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ. وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [سورة آل عمران ٤٧-٤٩].

فموسى و عيسى عليهما السلام قد بينا دعوتهما والمعجزات التى تدعمهما وتؤيدهما. وزيادة على ذلك، كانت البيئة التى عاشا فيها لاتنكر النبوات منذ إبراهيم وإسحق ويعقوب و الأسباط. فكان أمر المعجزة بالنسبة لهما أمراً سهلاً. و خصوصاً عندما يكون أمر المعجزة لا يخالف تصور الناس للمعجزات الحسية.

و لكن الأمر بالنسبة إلى رسول الله ﷺ لم يكن كذلك:

١- لقد ظهر رسول الله فى منطقة تجهل النبوات. مستغرقة فى دينها الوثنى الذى يقوم على عبادة الأصنام فى شكله الظاهر. وعلى الإشراف بالله فى معناه الحقيقى ﴿وَالَّذِينَ

اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿ [سورة الزمر آية ٣].

٢- ومع أن البيئة لم يكن لديها اعتقاد في أديان موحدة، مما جعل ثقافتها الدينية لا تزيد عن معرفتها بأن هناك في الدول المجاورة ديناً يسمي المسيحية وديناً يسمي اليهودية. وكانت الصراعات بين المذاهب من نسطوريين وأريوسيين وغيرهم تحجب الناس عنهم. ومع ذلك فهم غافلون عنهم، لاهون بأوضاع حياتهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [سورة يس آية ٦].

بل أكد ذلك ووضحه في سورة السجدة إذ قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [آية ٣]. وقد سمى الله المدة التي طالت من عهد إسماعيل عليه السلام في القرن السادس عشر قبل الميلاد إلى بعثة النبي ﷺ بأنها "فترة من الرسل". أى أنها كانت خالية من الأنبياء و الرسل بالنسبة للعرب، حتى أن فقهاء الإسلام أسقطوا التبعات عن مائة من هذه الفترة قبل البعثة مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء آية ١٥].

٣- ومع أنه ﷺ نشأ في هذه البيئة المشركة، فقد نشأ كذلك أمياً لا يقرأ ولا يكتب، في أمة أمية لا مدارس فيها ولا جامعات ولا أعباء ثقافة وعلم. و نشأ ﷺ لم يجلس إلى معلم و لم يتردد على فقيه. وقد سجل التاريخ هذه الأمية بالنسبة لهذه البيئة. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة الجمعة آية ٢].

وكذلك قال في سورة آل عمران مميّزاً هذه الأمة عن أهل الكتاب: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ [آية ٢٠]. فالله يصف الأمة التي نشأ فيها رسول الله ﷺ بأنها أمة أمية جاءهم رسول الله يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

و رسول الله ﷺ يؤكد هذا الأمر فيقول كما جاء في صحيح البخارى في كتاب الصوم باب رؤية الهلال: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا.."^(١) وأشار بيديه بما يدل على أن الشهر العربى إما ٢٩ أو ٣٠ يوماً.

بعثة الرسول كانت في بيئة لها مواصفات خاصة:

٤- وهذه البيئة المتخلفة في مجال الكتابة و القراءة و التأليف كانت أمة ناضجة العقل و الفكر. وكان فيها حكماء وعقلاء شاركوا في الحياة وفي حل مشكلاتها. وكان فيها

(١) البخارى: صوم: ١٩١٣ ومسلم: ١٠٨٠ / ١٥

شعراء نظموا الشعر في أروع قصائده حتى عُلقَت مذهبة مقدرة على جدران الكعبة. ودل سموهم في خطبهم و حكمهم وشعرهم على سمو لغتهم وامتلاك أساليبها ناصية السمو البلاغى في الأداء. مما جعل لغتهم أهلاً لتكون لغة القرآن، وأهلاً لتحدى القرآن لهم في إعجازه البياني. مما جعل القرآن الكريم يؤكد و يكرر على أنه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾ [سورة الزمر آية ٢٨].

وبرغم الأمية و عدم المدارس و عدم العلماء المصلحين كانت اللغة في أسمى درجات بيانها بصورة لا يمكن تفسيرها إلا أنها إعداد رباني من الله تبارك وتعالى، وتمهيد لرسالة جديدة، لها كتاب يسمو على الكتب في أدائه اللغوى. فكانت اللغة العربية في هذا المستوى نتيجة لعمل الله. إذ لم يعهد في أى زمن أو في أى عصر أن لغة نضجت واستوت على سوقها في عصر جاهليتها. وإلا فأين هذه؟

إنه العمل الإلهى الذى انفردت به اللغة العربية دون غيرها، حتى قال الراصدون لها: "إن اللغة العربية ارتقت في عصر جاهليتها وبلغت قمة سموها البلاغى. ولكنها تراجعت شيئاً فشيئاً في عصر الحضارة والمدارس والجامعات. وهنا موطن العجب الذى يؤكد أن العمل الإلهى هو التفسير الحقيقى لذلك."

٥- في هذه الأمة الأمية الغارقة في الوثنية والإشراك بالله، ظهر نبى التوحيد والهداية و الإسلام والدعوة إلى الحق و العدل والمساواة في شئون الدنيا و الآخرة.

لم يسبق ظهوره ﷺ أى توقع، ولا إعلان ولا بيان أو نبوءة شخصية عن رسول الله ﷺ. وإنما كان غافلاً عن كل ذلك، منقطعاً عن عبادة قومه، بعيداً عن حياتهم الاجتماعية إلا فيما تستلزمه الضرورة. بل كانت تدفعه حيرته فيما حوله إلى أن ينقطع إلى غار في الجبل يخلو فيه إلى ربه وإلى حياته التعبدية النفسية. يقول الله تبارك في ذلك. ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [سورة الشورى الآية ٥٢].

هذا واضح في أن رسول الله ﷺ لم يعرف شيئاً من أمر النبوة ولا كان متطلعاً لها. وإنما كان غافلاً عن ذلك. ولا كانت بيئته تتوقع شيئاً من ذلك. بينما ذلك كان معتاداً عند أهل الكتاب وغيرهم. فقد كان اليهود يتوقعون أن يرسل الله إليهم ملكاً أو نبياً أو مسيحاً. وكان المسيحيون يتوقعون عودة عيسى ﷺ إليهم. أما العرب الأميون فقد كانوا لا يتقنون شيئاً من ذلك. وليس لهذه البيئة ثقافة تؤهلها لذلك. ومع ذلك فقد كانت الديانة الوثنية تزيد هذه البيئة بعداً عن كل ذلك. ومحمد نبى الله يعيش في هذه البيئة لا يشارك في أديانها، وليس له صلة بالأديان، وليس يتطلع إلى غير ذلك. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ

تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿سورة القصص آية ٨٦﴾.

نشأة الرسول حجة له على خصومه:

ويقرر القرآن الكريم أن اختيار الرسول نبياً في أمة أمية - وأمية قومه ليست صدفة ولا تجاوباً مع الواقع - وإنما هو عمل إلهي مقصود لذاته، من أجل أن يكون المتلقى عن الوحي ليس في قدرته أن يزيد فيه أو ينقص من خلال قدراته الشخصية. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة العنكبوت آية ٤٨]. وإذن فلو كان رسول الله ﷺ يقرأ أو يكتب أو كان مثقفاً يلتقى بالمتقنين فيحاورهم، لكان ذلك مما يثير المعارضة والشكوك ﴿إِذَا لَارْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾.

بل إن الله تبارك و تعالى جعل من هذه النشأة التي أدت إلى أن يكون الرسول أمياً لاصلة له بالديانات والثقافات، جعل هذه النشأة سنداً يقوى من حجة رسول الله ﷺ في دفاعه عن نفسه و نجهه عندما عارضه الكفار وقالوا له ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ. قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يونس ١٥-١٦].

يعلّم الله نبيه رده للكافرين. كيف تطلبون ذلك وأنتم تعرفونني وتعرفون قدراتي. وتعلمون أن ما تطلبونه ليس مما ألفت في حياتي التي تعرفونها. ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾.

إن في مثل ما ذكرنا من أمية المجتمع الذي بُعث فيه رسول الله. وضيق ثقافته. وبعده عن مراكز العلم والحضارة حوله. وانتشار الفساد فيه والتعصب القبلي الذميمة. أقول في هذا الجو المفعم بكل ما يبعد عن توقع دين جديد، بُعث محمدٌ رسولاً و نبياً. وليس هناك توقع ولا أمل في بعثته. لا من خلال ذاته ولا من خلال بيئته. فقد بُعث وهو لا يدري حقيقة ما يُطلب منه. وكما قال ربه ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى آية ٥٢].

جاءه الوحي في صورة علنية سجلها التاريخ البشري:

وفي هذه الحيرة التي عاشها رسول الله ﷺ قبل بعثته، جاءه الوحي في صورة علنية سجلها التاريخ البشري في صورة فريدة. فوجئ بها رسول الله ﷺ عندما طُلب إليه أن "اقرأ". فقال ﷺ بكل صور الإخلاص "ما أنا بقارئ". فهو لا يعرف كلمة "اقرأ" إلا كما عرف

الناس في عهده. و ليس له علم بما يريد جبريل عليه السلام من هذه الكلمة "اقرأ".

ولكن الوحي مازال به حتى نطق بما يريد جبريل المبعوث من رب العالمين. إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أكرم موقف و أعظم مناسبة **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾** [سورة العلق آية ١]. فكان هذا أول وحي من السماء إلى الأرض بعد عيسى عليه السلام. مما جعلنا نؤكد واقعيتين مطمئنتين:

أولاً: أن هذا اللقاء يمثل وثيقة لمبعث رسول الله سجلها التاريخ البشرى، ولم يسجل مثيلاً لها من قبل. فقد قلنا إن تاريخ الأنبياء حتى عيسى عليه السلام ليس للتاريخ البشرى معرفة به.

ثانياً: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجئ بما ولم يكن له أى توقع بمجيئها. ومن ذلك أجاب جبريل عليه السلام "ما أنا بقارئ" ردها مراراً تأكيداً لصدقه.

كذلك كان للمفاجأة تأثير عليه لأنها غير مألوفة. فاشتد اضطراب جسده، وازداد انزعاجه حتى قدم إلى أهله منزعجاً. أو كما يقول حديث البخارى: "يرجف فؤادى" وفي رواية أخرى "ترجف بوادره" يقول "زملوني زملوني". فيسارع أهله إلى تصديقه والإيمان بصحة ما حدث له. وسجل التاريخ البشرى هذا الموقف من خلال ما حدث لرسول الله. ومن خلال ما حدث من استقبال أهله و بعض قرابته و بعض أصحابه ومن خلال توالى الأحداث مصدقة له.

ثم فتر الوحي مدة. ثم عاد جبريل يؤكد له أنه نبي الله ورسوله. كما جاء في سورة المدثر في حديث جابر بن عبد الله الأنصارى، يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "بئنا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء. فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بجراى جالس على كرسى بين السماء والأرض. فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني". فأنزل الله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾** [أوائل سورة المدثر].^(١)

ومن خلال هذين الموقفين تبين أن محمداً - عبد الله ورسوله - أصبح له نبوة أكدها اتصاله بالسماء فى غار حراء، وأصبحت له رسالة تأكدت من خلال الوحي الثانى، الذى تمثل فى مطلع سورة المدثر فى حديث جابر بن عبد الله الأنصارى.

وكما انفرد صلى الله عليه وسلم بطريقة ندائه بين الأنبياء، انفرد بالوحي المنزل عليه على أنه معجزته التى يتحدى بها من يعارضه. إذ يقول صلى الله عليه وسلم. موضحاً تميّز نبوته عن غيرها فيما رواه أبو هريرة:

(١) صحيح البخارى: بدء الوحي: ٤

أن رسول الله ﷺ قال: "... وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".^(١)

ومن هذا الحديث المتفق عليه نجد أن محمداً ﷺ انفرد بأن الوحي الذى نزل بالقرآن لم تنزل به الكتب المنزلة من قبل على الأنبياء و قد شرحنا ذلك.

وأمر جديد هنا ينفرد به رسول الله عن الأنبياء من قبل. وهو أن الوحي الذى جاءه من قبل الله يمثل ما تتضمنه الرسالة من عقيدة فى الدعوة لله ومن هدى وإرشاد. والجديد أن الوحي أصبح معجزة الدين الجديد التى تختلف عن سائر معجزات الأنبياء قبله. إذ أن رسول الله لم يؤت مثل هذه المعجزات بل هى كما يقول "وحياً أوحى إلىّ". وقد صدقت نبوءة رسول الله. فقد قال ذلك يوم أن كان المؤمنون من حوله لا يزيد عددهم فى العهد المكى عن بضع مئات أو بضع آلاف فى العهد المدنى. بينما يمثل الإسلام اليوم مليار وبضع مئات من الملايين مصداقاً لقوله ﷺ فى الحديث: "فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة".^(٢)

وقد تتابع نزول القرآن الكريم فى مكة فى أسلوب مؤثر رائع، وفى وضوح بيانه و قوة عبارته. تميز به القرآن الكريم فى العصر المكى فى بيان مفهوم العقيدة ووحداية الله. حتى السورة القصيرة لتعدل فى دلالتها ومعناها ثلث القرآن الكريم. كما تحدث رسول الله ﷺ عن سورة الإخلاص. قال عنها رسول الله فيما رواه أبو سعيد الخدرى "والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن".^(٣) وجاءت أحاديث فى رفع شأن بعض آيات وسور من القرآن مثل قوله ﷺ لأبي بن كعب "إني لأرجو ألا تخرج من المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها". قال أباى فجعلت أبطىء فى المشى رجاء فى ذلك. ثم قلت يا رسول الله ما السورة التى وعدتني؟. قال: "كيف تقرأ إذا دخلت الصلاة؟" قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ إلى آخرها. فقال رسول الله ﷺ: "هى هذه السورة وهى السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أعطيت".^(٤)

وروى البخارى مثله عن أبي سعيد رافع بن المقللى و عن أبي بن كعب قال: "قال رسول الله ﷺ" يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلتُ الله ورسوله أعلم قال: يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم قال قلت: الله لا إله إلا هو الحى القيوم." قال: فضرب على صدرى وقال: والله ليهنك العلم أبا

(١) البخارى: فضائل القرآن: ٤٩٨١ ومسلم: إيمان: ١٥٢. وسبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخارى: فضائل القرآن: ٥٠١٣ وأبو داود: الصلاة: ١٤٦١ وغيرها.

(٤) رواه مالك فى موطئه. الصلاة: ٣٧ / ٩١ والترمذى: ٣١٢٥ نحوه.

المنذر" (١) أى ليكن العلم هنيئاً لك.

كذلك نجد أن الآيات القرآنية نفسها تتحدث عن أثر القرآن وفضله. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء آية ٩]. و يقول: ﴿وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [سورة الإسراء آية ٨٢].

تحدى القرآن كان إعجازاً للعرب وإعجازاً لغيرهم:

وهكذا بنزول القرآن الكريم يزداد المؤمنون إيماناً، و يزداد الكافرون خسراناً. وقد تأثر الجميع به. وكثير منهم أظهر إعجابه بحلاوته وروعة بيانه. كما يروى علماء السير عن الوليد بن المغيرة المخزومي، والد خالد بن الوليد رضي الله عنه وقريب النسب من أبي جهل. فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الوليد بن المغيرة دخل على أبي بكر رضي الله عنه فسأله عن القرآن فأخبره. فخرج على قريش فقال: "يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة. فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون. و إن قوله لمن كلام الله." وروى قتادة: "زعموا أنه الوليد قال: لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر. وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة و إنه ليعلو وما يعلى عليه."

ويتماذى نزول القرآن و تشتد المعارضة له. قائلين إنه كذب وإفتراء رجل به جنة. و يقول القرآن الكريم حاكياً عن الكافرين. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَبِينُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سورة سبأ آية ٧-٨].

وهكذا يعلنون أن هذه الأساطير - ويعنون بذلك القرآن الكريم - استعان في قولها بغيره ممن يعرف ذلك. حكى القرآن الكريم عنهم ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فرد الله عليهم بقوله ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الفرقان ٥-٦] ودعوى الكافرين هذه رد الله عليها بردود قاطعة فقال:

أولاً: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة النحل آية ١٠٣].

ثانياً: في سورة فصلت ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ (يعنى بنقله عن هذا الذى يقولون عنه إنه يكتب لمحمد) لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

(١) رواه مسلم: مسافرين: ٨١٠ وأبو داود: ١٤٦٠ وغيرهما.

هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴿ [آية ٤٤] . واشتد إنكارهم للقرآن فزعموا أن ما يقوله القرآن عن عقيدة التوحيد وعدم الإشراف لا أساس له فيما جاءهم من الأنبياء عن الرسل و الديانات الأخرى.

فذكر القرآن ذلك: ﴿ وَأَنْطَلِقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ. مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [سورة ص آية ٦-٧] يريدون بالملة الآخرة ملة المسيحية. و يقصدون ما فيها من تعدد، احتجاجاً على رفض القرآن لتعدد الآلهة و إعلان دعوة التوحيد.

وزادوا عتواً وكفراً وإنكاراً برفضهم أن رسول الله ﷺ أنزل عليه من السماء قرآن. فرد الله عليهم بتحديدهم على أنه كلام الله المنزل معجزة وتأييداً لنبية. والإعجاز أمر خارق للعادة لا يأتي به إلا الله. ومحمد الذى يعرفون مقدار بيانه وبلاغته أعلن أن هذا القرآن الكريم ليس من عنده، وإنما هو من الله تبارك و تعالى. ومن أنكر ذلك فهو مكذب لله و لرسوله، وكافر. ولكن القرآن الكريم تحداهم. وكرر تحديدهم هذا عدة مرات.

والقرآن معجز فى نزوله وفى تلقى الأمة له وبنطق رسول الله به وبكتابته تحت إشرافه، وبتلقى المسلمين له حفظاً فى الصدور، وكتابةً فى السطور. وجمعاً و نشرأ دون تبديل ولا تغيير مهما تطاولت الأزمنة والدهور.

وهذا الإعجاز فى القرآن كان فى كل ما نزل من القرآن وعلى هذا جعل القرآن معجزاً قليلاً وكثيره سواء. وهو معجز فى بيئته بما يناسبها. إنه فيما نتحدث عنه فى مكة قد عورض بأنهم قالوا إنه ليس قرآناً و إنما هو أساطير الأولين. لو نشاء لقلنا مثلها. ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [سورة الأنفال آية ٣١].

ويعلق ابن كثير فى تفسيره على هذه الآية، فيقول ناقلاً عن سعيد بن جبيرة والسدى و ابن جريج وغيرهم،^(١) إن الذى قال ذلك هو النضر بن الحارث. و قد كان يسافر إلى بلاد الفرس فيسمع أناشيد منهم فرجع إلى مكة، وشارك فى المعارضة للقرآن بشدة. ولذلك استوجب أن يقتل صبراً،^(٢) ولم يقبل النبي منه فداءً.

وكانت أشد معارضة للقرآن الكريم فى العهد المكي. وقبل أن ينتهى العهد المكي كان القرآن قد أنهى هذه المعارضة بعد أن ثبت عجز كفار مكة فى ذلك. وأنزل الله تعالى ما يؤكد هزيمتهم و انتهاء المعارضة بفسلهم فيما تحداهم. ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعْتُمُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ

(١) تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) صبراً: يُقتل بعداب متصل.

عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿﴾ [الإسراء آية ٨٨].

وإنما قلنا انتهت المعارضة في العهد المكي مع بقاء الإعجاز مفتوحاً. ذلك لأن القرآن نزل أول ما نزل في مكة و نزل بأسلوب قرآني عربي غير ذي عوج. وأهل مكة كانوا عربياً نزل القرآن بلغتهم، وكانت لغتهم أقرب ألسنة العرب إلى اللغة الفصيحة. رأيت عندما أصبحت لجنة كتابة المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه. وقد كان الكتبة يختلفون في نطق بعض الكلمات حسب نزول القرآن على سبعة أحرف، فكان عثمان رضي الله عنه يقول لهم "إذا اختلفتم فاكتبوا بلغة قريش، فإن القرآن بما نزل."

وبما أن الإعجاز البياني هو أول مظاهر الإعجاز، وكان هو المناسب لتحدي قريش. إذ هي بحكم وصفها في الجاهلية، وكونها مركز البيت الحرام، وبجوارها أسواق العرب التكانوا يأتون إليها يتنافرون ويتفاخرون، لذلك صيغت لغتها واستحقت أن تكون أصح لهجات العرب. فإذا أعجز القرآن أهلها فقد أعجز سواهم من باب أولى.

وواضح أن القرآن الكريم لم يتحد أهل المدينة. إذ لا مجال للتحدي فقد تم ذلك مع أهل مكة المنكرين. أما أهل المدينة فقد كانوا مؤمنين. ولكن الله أنزل في أول سورة نزلت في المدينة الآية الثالثة من آيات التحدي و هي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة آية ٢٣]، ولكن ذلك لم يكن تحدياً لأهل المدينة وإنما كان من تمام البلاغ في العهدين إلى إعجاز القرآن البياني فلم يكن إلا للعرب. لأنهم بلغاء في حكمهم وأشعارهم و خطبهم و هم عند نزول القرآن كانوا في قمة ذلك. ولم يكن للتحدي مجال في غير هذا. إذ القاعدة أن تتحدى غيرك بما يستطيع أن يرد به التحدي. وهكذا لا يكون مجال التحدي إلا عند استطاعة الرد. فالقرآن لا يتحدى قريشاً في مجال العلوم والمخترعات إذ علم أن لا قدرة لهم. ولا يتحداهم في مجال التجارة و الزراعة، إنما يتحداهم بما ألقوه ويرعوا فيه، وتميزوا فيه. حتى العرب من بعد عندما أصبحت لهم حضارة و مدارس.

* * *

المبحث الثاني: القرآن يدعو إلى العلم والعمل

ومن خلال هذا المصحف الذي انتشر حتى أصبح في قلب كل مسلم و مبعث جهاده و فضائله. ومنهاج عمله في دنياه وآخرته، وهو يؤمن أن القرآن ما نزل إلا ليُعمل به و ينتشر ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [سورة الإسراء آية ١٠٦] فأصبح المؤمنون به طلاب العلم. لأن كتابهم دعاهم إلى العلم. فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر آية ٩]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر آية ٢٨]. وبذلك أصبح كل من معه قرآن قد خرج من جاهلية العرب ومن بيتهم. وأصبحوا لا يكتفون بأن يقرئهم الرسول ﷺ الآيات. بل كانوا في كل مرة يأخذون عشر آيات لا يدعوهن حتى يحفظوهن و يعملوا بما فيهن من العلم والعمل.^(١)

ومع توالى الأيام أصبح العالم يرى لأول مرة ديناً له كتاب ينشئ أمة تتحول من أميتها إلى العلم و من بداوتها إلى التحضر. ويتحول أبنائها بإيمانهم ينشئون علوماً جديدة، تنتهي بهم إلى أن تصبح أمتهم - بعد أن تتسع علومها و مبادئها وحضارتها - سيدة العالم بالتحضر القائم على الإيمان بالله والاهتمام بحاجات الدنيا و الآخرة.

المسلمون ينشئون العلوم علماً بعد علم:

ومع اكتمال نزول القرآن ونشره، بدأ المؤمنون بفضل من الله و فهم لقرآنه، ينشئون العلوم علماً بعد علم. فنشأ أولاً علم الترتيل و الإلقاء ليُجيدوا التلاوة. ثم علم الخط لتحسين رسم المصحف. ثم علم اللغة في ضبط كلماتها و معرفة إعرابها.

ثم توالى العلوم و تتابعت، يقوم بها رجال و نساء و صبية يتعلمون القرآن فيما سمي بمدارس القرآن. وفي نفس الوقت نشأت بوحى من السنة علوم الحديث. فنشأ علم الحديث دراية^(٢)، وعلم الحديث رواية^(٣)، وعلم الرجال^(٤)، وعلم الضعفاء من رواة الحديث... إلى

(١) روى ذلك أبو عمرو الداني في كتاب "البيان" بإسناده إلى عثمان وابن مسعود وأبي بن كعب في مقدمة تفسير القرطبي ص ٣٩ الطبعة الثالثة دار الكتب المصرية..

(٢): (٣) سبق شرحهما.

(٤) علم رجال الحديث، ومن فروع علم الجرح والتعديل. وهو علم يُبحث فيه عن جرح الرواة وتعديليهم بألفاظ مخصوصة، وعن مراتب تلك الألفاظ. والكلام في الرجال جرحاً وتعديلاً ثابت عن رسول الله ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وجوّز ذلك تورعاً وصوناً للشريعة لا طعنًا في

غير ذلك. ومع تتابع القرآن كانت حضارة الإسلام تستوفي علومها من قرآن وسنة، ومن قاعدة ثلاثة هي جهد علماء السلف الصالح، ومن تابعهم من كبار العلماء الذين عُرفوا بعلمهم و تقواهم.

وكان جهاد العلماء في ضبط أحكام الشريعة، وبيان أصول تلك الأحكام، مثلاً رائعاً في الجهد والعمل، لا يوازي بأى جهد للعلماء من غير بلاد الإسلام. وفي هذا المجال نشأت مذاهب مختلفة في الفقه، كلها لا تتصادم في عقائدها، وإنما تختلف في آرائها مع قاعدة " من اجتهد فأصاب فله أجران. ومن اجتهد فأخطأ فله أجر".

لكن جهاد المسلمين في علمهم لم يتوقف عند العلوم التي تتصل بالدين. بل تعداها إلى العلوم التي تصلح الدنيا، من رياضة وهندسة وطب وعلوم الزراعة والصناعة، حتى أصبح في كل منها عباقرة من علماء المسلمين أصلحوا الدنيا كلها، ونقلت علومهم إلى البلاد الأخرى، فكانت كتب بعضهم تدرس في أوروبا إلى عهد قريب مثل طب ابن سينا، وفلسفة ابن رشد وغيرهما كثير.

لم يفرق المسلمون بين علم دين وعلم دنيا:

وكان الأجل في هذا أن دراسة المسلمين لهذه العلوم - علم دين وعلم دنيا - كانت كلها تدعى بالعلوم الإسلامية. فكل علم ينتفع به المسلم سواء كان متصلاً بالدنيا أم متصلاً بالدين، فهو علم إسلامي. وجعلوا ذلك فرض كفاية إذا احتاج المسلمون إلى شئ في استطاعتهم أن يفعلوه، ثم لم يفعلوه فقد أثموا جميعاً. كما يقول العالم العبقرى ابن رشد.

وميزة المسلمين في علومهم أنهم كانوا يؤمنون باستمرار العمل منذ بدأ الوعي إلى نهاية العمر. وفي هذا كانوا يقولون "أطلب العلم من المهد إلى اللحد".

ويقص علينا التاريخ قصة حدثت للبيروني - عالم الفلك والرياضيات وعالم المشرق كله في القرن الرابع الهجري، إنه كان في مرض موته، وجاءه صديق له يعود. فقال له البيروني أعلم أن عندك مسألة في علم الميراث لا أعرفها، وأرجو أن تشرحها لي. فقال له وأنت في هذه الحال يا أبا الريحان؟ فقال البيروني إنه من الخير لي أن أقدم على ربي وأنا أعرفها، فذلك خير لي من أن أقدم على ربي وأنا أجهلها!! فقال صديقه هذا حق. فلما شرحها له وبدأ يغادر المنزل، فما تخطى عتبة الدار حتى سمع الصريخ في أبي الريحان.

الناس. والمصنفات فيه كثيرة. وكذلك علم أصول الحديث (علم دراية الحديث) وهو علم = يُعرف منه حقيقة الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها (إظهار الحق - هامش ص ٩٤٢ مجلد ٢) [معد الكتاب].

وهذا الذى حدث للبيرونى كان يحدث لكثير من علماء المسلمين فلا يتركوا طلب العلم حتى ولو كانت تفاجئهم المنية.

ففى الحديث الذى رواه الحافظ المنذرى فى كتاب "الترغيب والترهيب" (فى باب العلم رقم ٣٦) مما نسب إلى رسول الله ﷺ أن من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبىين إلا درجة النبوة^(١).

* * *

(١) رواه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى الأوسط.

المبحث الثالث: القرآن وأثره في الحياة التعليمية والتربوية

أثر القرآن الكريم:

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [سورة الزمر الآية ٢٣].

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [سورة الشورى الآية ٥٢].

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحشر الآية ٢١].

هذا وصف أحكم الحاكمين لكتابه الكريم - ومن أصدق من الله حديثاً - وقد سارت بهذا الكتاب العزيز قافلة الأيام، فكان واقع الحياة البشرية في تأثرها به أكبر شاهد على صدق ما نطقت به هذه الآيات، إننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن التاريخ البشرى لم ير كتاباً له ما للقرآن الكريم من أثر في حياة الناس العقديّة والسلوكية والعلمية والحضارية. فقد قامت بفقّه هذا الكتاب الكريم ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ خرجت من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، ومن بداوة الحياة إلى حضارة الإسلام، ومن ضلالة العيش إلى هداية القرآن. ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة المائدة الآية ١٥-١٦].

ولم يكن ما أحدثه القرآن الكريم أمراً غامضاً لا تُعرف أسبابه ولا تُدرك حقائقه. فقد كان القرآن معجزة في كل شأن من شئونه.

فكما كان معجزاً في بيانه وبلاغته. وفي معانيه وحكمه وتشريع، كان معجزاً في تأثيره وتربيته، ولقد حدثنا التاريخ بعجائب لا تدخل تحت حصر. وأي أثر في التكوين التربوي للمجتمعات البشرية أعظم من أثر القرآن الكريم في تكوين أمة إسلامية في جزيرة العرب في مدى عقدين من الزمان خلصها فيهما من ظاهرتين اجتماعيتين أوشكتا أن تكونا نهباً أصيلاً في طبيعتها: ظاهرة الفرقة والشتات والحياة القبلية، وظاهرة الوثنية وعبادة الأصنام.

ومن هؤلاء البدو الممزقين ومن هؤلاء الوثنيين المشركين، تخرّج في مدرسة القرآن

الكريم أعظم الموحدين، وأكرم الحنفاء المرشدين. يقول الشيخ رشيد رضا. (١) "وقد أدرك هذا أحد الفلاسفة في فرنسا فذكر في كتاب له قول دعاة النصرانية: إن محمداً لم يأت بأية على نبوته كآيات موسى وعيسى. وقال في الرد عليهم - إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواهاً. فتفعل قراءته في جذب الناس للإيمان ما لم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين" (٢).

وهذا التأثير هو العامل الأول في نجاح العمل التربوي والتعليمي. فقد كانت تنزل الآية فتفتح لها القلوب، وتستجيب لها الجوارح بصورة لا تجد لها مثيلاً في التاريخ. روى المحدثون عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصار المدينة مالاً، وكان أحب أمواله "ببرحاء". وكانت مستقبلة المسجد. وكان رسول الله يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب. قال أنس فلما نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران آية ٩٢]. قال أبو طلحة يا رسول الله إن الله يقول ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وأنا أحب أموالي إليّ "ببرحاء" وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى. فضعها يا رسول الله حيث أراك الله... (٣).

القرآن يهدي ويربي:

لقد جاء القرآن الكريم وهدفه الأول الهداية والتزكية والتربية ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة آية ٢]. ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتُكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [سورة يونس آية ٥٧]. بل مهمة الرسول الكريم ﷺ هي الهداية والتزكية. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة الجمعة آية ٢].

فمهمة الرسول الكريم ﷺ هي تلاوة الوحي المنزل عليه وتطهير النفوس وتعليمها وتخليصها من الجهل الذي كان يحجبها عن كل خير وحقيقة. وهكذا كانت تنزل الآيات فتخلص هذه النفوس شيئاً فشيئاً من دنس الجاهلية، وتربيتها على الحق، وتدفعها في طريق الرقي البشري الذي هُيئت له، ولقد سجل التاريخ بهذه الاستجابة التربوية - لما يدعو إليه القرآن - أمثلة رائعة تجعلنا نقول مطمئنين: إن قدرة القرآن الكريم في التغيير التربوي لا تماثلها قدرة أخرى.

(١) يروي عن الشيخ محمد عبده وقد رآه يقرأ كتاباً بالفرنسية فذكر هذه العبارة تلخيصاً لما قرأ. يقول الشيخ رشيد: وقد نسيت اسم الكتاب واسم المؤلف.

(٢) "الوحي المحمدي" لرشيد رضا - ص ١٢٠ الطبعة السادسة - مكتبة القاهرة.

(٣) احمد: ٣ / ٢٨٥ ومسلم: زكاة: ٩٩٨ والبخارى في الوصايا تعليقاً وأبو داود: زكاة: ١٦٨٩ وغيرهم.

نزلت آية الحجاب من سورة النور، فتلاها صحابة رسول الله على نسائهم، فما كان منهن إلا الاستجابة السريعة التي نترك لأُم المؤمنين عائشة أن تتحدث عنها. تقول أم المؤمنين رضی الله عنها: "وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً بكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل. لقد أنزلت سورة النور (وفيها آية الحجاب): ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [آية ٣١]. فانقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم منها. ويتلو الرجل علي امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابة. فما منهن امرأة إلا قامت إلى مُرطها المرحل.^(١) واعتجرت به^(٢) تصديقا وإيماناً بما أنزل الله من كتاب. فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن علي رؤوسهن الغربان"^(٣).

وإذا كان هذا هو أثر القرآن في تربية المرأة المعروفة بشدة التمسك بعاداتها والاهتمام بزينتها، فإن أثره في الرجل كان لا يقل عن ذلك، وبخاصة في الأمور الشديدة الاتصال بذاته، كعادة شرب الخمر. إذ ليس من السهل أن يستجيب مدمن الخمر لأي موعظة أو نصيحة، بل قد لا يستجيب تحت ضغط العقوبة الشديدة، فماذا حدث عندما نادى القرآن الكريم المؤمنين بتحريمها، ودعاهم إلى اجتنابها؟. نترك للتاريخ أن يحدثنا عن هذه الاستجابة التربوية الفريدة.

عن أنس رضي الله عنه قال - كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهل بن بيضاء، ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة. وأنا أسقيهم حتى كان الشراب يأخذ منهم. فأتي أت من المسلمين فقال: "أوما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟ فما قالوا حتى ننظر ونسأل: فقالوا يا أنس: أكف ما بقي من إنائك، فوالله ما عادوا فيها"^(٤).

وفي رواية الصحيحين عن أنس: "فإذا منادٍ ينادى ألا إن الخمر قد حُرِّمَتْ. فجرت في سكك المدينة (أي أراقها الناس في السكك). فقال لي أبو طلحة أخرج فأهرقها. فَهَرَّقْتُهَا"^(٥).

* * *

والقرآن الكريم عندما يدعو إلى الهداية والتربية، إنما يدعو إلى هداية ينفرد بها فلا

(١) نقش فيها تصاوير الرجال.

(٢) الثوب المعجر الذي يشد على الرأس.

(٣) سنن أبو داود - كتاب اللباس: ٤١٠٠-٤١٠١ وتفسير ابن كثير للآية.

(٤) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٨١-١٨٢. شاكر: ١٢٨٠٤ وتفسير ابن كثير للآية.

(٥) جزء من حديث مسلم: أشربة: ١٩٨٠ واللفظ له والبخارى: أشربة: ٥٥٨٢ نحوه.

نجدها عند غيره. فهو:

أولاً: يهدى الإنسان إلى أن هذا الكون له رب يملكه ويربّه، ورسالة الإنسان الأولي في هذا الكون هي عبادة ربه وتوحيده: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الفاتحة الآية ١].
﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأعراف الآية ٥٤]. ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ [سورة السجدة الآية ٥].

ثانياً: إن هذا الكون بإرادة الله خلق، وبفضله ونعمه يعيش، وإليه يرجع ويصير، وعنده ينعم أو يشقى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [سورة الروم الآية ٤٠]. ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَليٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [سورة الشورى الآية ٨].

ثالثاً: أن الإنسان في هذا الكون مستخلف فيه، ويقوم على عمارته، ويعيش على ما أودع الله فيه من كنوز، وبجده وعمله يصلح شأنه. وهو يحتاج إلى هداية ربه وصلاحه في التزامه بما شرع. ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [سورة الأنعام الآية ١٦٥]. ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [سورة الملك الآية ١٥].

رابعاً: ثم إن الإنسان خلق ليعيش في جماعة، عليه أن يقيم مع من حوله روابط الود والألفة والإخاء ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [سورة آل عمران الآية ١٠٣]. ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ ﴾ [سورة الحجرات الآية ١٠].

خامساً: ثم هو صاحب رسالة في هذا الكون عليه أن يقدم له الهداية والرعاية والإرشاد. ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [سورة آل عمران الآية ١٠٤]. ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران الآية ١١٠].

لكن هذه الدعوة لا تتم ولا تنجح حتى تقوم على وعي وثقة وبصيرة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [سورة يوسف الآية ١٠٨]. ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى العلم.

* * *

القرآن يدعو إلى العلم والتعلم:

مما يلفت النظر في هذا الوحي الإلهي، الذي نزل على أمي في أمة أمية، ما نجده من تلك الشعارات والأسماء التي تميز بها أو تضمنتها سوره وآياته، مما يدل دلالة قاطعة على أنه نزل ليصنع أمة راشدة متحضرة عالمة متعلمة. فهذا الوحي قرآن، والقرآن مصدر الفعل قرأ. والقراءة هي الفيصل بين الأمية والتعليم، وهذا الوحي كتاب. والكتاب هو ثمرة القراءة والتعليم. وهذا الوحي ينزل فيكون أول ما يأتي به أمراً بالقراءة ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ [سورة العلق الآية ١].

وفي السورة الثانية نزولاً. بيتدئ بحرف من حروف أبجدية القراءة والكتابة، ولا ينطق الحرف بحسب صوته، كما ينطقه أي إنسان أمياً كان أو متعلماً، وإنما يكتب وينطق باسمه التعليمي ومعه أداة كتابته ﴿ **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ [سورة القلم الآية ١]. وتسمى السورة التي بدأت كذلك باسم القلم تمجيداً للقلم، وتعظيماً له في مجتمع لم يكن يعرف القلم والكتابة به إلا بضعة عشر رجلاً.

ويأتي في ثنايا سوره وآياته التمجيد للعلم والعلماء والدعوة إلى الفقه والفهم والنظر ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [سورة الزمر الآية ٩]. ﴿ **يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [سورة المجادلة الآية ١١]. ﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾ [سورة العنكبوت الآية ٤٩] ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [سورة سبأ الآية ٦] وأي تقدير للعلم والعلماء أروع من قوله تعالى ﴿ **إِنَّمَا يُجِشِّي اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ** ﴾ [سورة فاطر الآية ٢٨]. والله تبارك وتعالى يجعل الذين يدركون أسرار آياته في خلقه هم العلماء. يقول الله عز وجل ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [سورة الروم الآية ٢٢]. بل يجعل الأمثال التي يضرب بها خلقه لا يدرك جمال أثرها إلا العالمون ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴾ [سورة العنكبوت الآية ٤٣]. ويأتي رسول الله ﷺ وهو الشارح للقرآن والموضح له - فيحدثنا عن العلم والتعليم حديثاً لا يصدر إلا عن مشكاة النبوة. يقول ﷺ: "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم".^(١) ويقول ﷺ: "أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً، ثم يعلمه أخاه المسلم".^(٢) ويجعل رسول الله ﷺ الذي يتعلم القرآن الكريم ويعلمه إلى الناس في مكان الصدارة من الأمة. فقد استعرض يوماً أصحابه وهو يعدهم لسرية من

(١) أبو داود: ٣٦٤١ واللفظ له، ومسلم: ٢٦٩٩ نحوه والبخارى: علم باب: ١٠ وغيرهم

(٢) رواه ابن ماجه: مقدمة: ٢٤٣ بإسناد ضعيف.

سراياه، وهم ذوو عدد، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن. فأتي على رجل منهم من أحدثهم سناً. فقال: "ما معك يا فلان؟" قال معي كذا وكذا وسورة البقرة. فقال: أمعك سورة البقرة؟ قال نعم. قال فاذهب فأنت أميرهم.."^(١).

ولعل هذا ما جعل التابعي الجليل أبا عبد الرحمن السلمي، إذا ختم عنده تلميذه القرآن أجلسه وقال له: "يا هذا اتق الله. فما أعرف أحداً خيراً منك، إذا عملت بالذي علمت"^(٢).

العلم يرتبط بالعمل:

وهنا نجد farkاً بين العمل التربوي النابع من القرآن، والاتجاهات التربوية الأخرى. فالعلم ليس مجرد المعرفة، وليس لإشاعة الثقافة فحسب، وليس للمتاع الذهني. إن العلم يرتبط ارتباطاً وثيقاً في المنهج التربوي القرآني بالعمل. فقد تربى المسلمون على أن يأخذوا القرآن للعمل به، ولتطبيق أحكامه. يقول الشهيد سيد قطب: "إنهم لم يكونوا يقرءون القرآن بقصد التذوق والمتاع، وإنما كان أحدهم يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها. وشأن الحياة التي يحياها. يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه. كما يتلقى الجندي في الميدان الأمر اليومي ليعمل به فور تلقيه"^(٣).

وهذا الذي يقوله الشهيد سيد قطب هو ما جاءت به أخبار صحابة رسول الله ﷺ. ففي آخر حديث الصحابي الذي أمّرت به سورة البقرة الذي ذكرناه آنفاً، يقول أحد الصحابة لرسول الله ﷺ "والله ما منعي أن أتعلم سورة البقرة إلا أني خشيت ألا أقوم بها".

وروى أبو عمرو الداني في "كتاب البيان" بإسناده إلى عثمان وابن مسعود وأبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يُقرئهم العشر آيات، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى، حتى يتعلموا ما فيها من العمل. فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً"^(٤) وذكر عبد الرازق مثل ذلك بإسناده إلى أبي عبد الرحمن السلمي. قال: "كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها"^(٥).

إن ارتباط العلم في مصدره بالوحي الإلهي، وارتباطه في غاياته بالعمل والسلوك، هو الضمان الحقيقي ليصبح العلم خادماً للخير والحق والرقى والتقدم، وما تخلفت البشرية إلا

(١) جزء من حديث رواه الترمذي: فضائل القرآن: ٢٨٧٦ والنسائي في الكبرى وابن ماجه في المقدمة.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ج ١ ص ٧.

(٣) معالم في الطريق ١٧.

(٤) القرطبي في تفسيره ج ١ ص ٣٩.

(٥) المصدر السابق.

عندما انفصل العلم عن مصدره وعن غاياته. يقول الغزالي في رسالته التربوية: أيها الولد: " سبحان الله العظيم. ألا يعلم هذا الغر، أن العلم الذي لم يعمل به تكون الحججة عليه أكثر. كما قال رسول الله ﷺ: - "وإن من أشر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة، عالم لا ينتفع بعلمه". (١) ثم يقول ولو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل. كما قال تعالى ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [سورة النجم الآية ٣٩] ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [سورة الكهف الآية ١١٠] ثم يقول: العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون (٢).

إن ارتباط العلم بالوحي الإلهي يجعل العلم يسير بالإنسانية في مساراته الصحيحة بعيداً عن خطأ الاعتقاد، وخطأ الأخلاق، وانحراف العلاقات الإنسانية عن وجهها الصحيح. ولقد كان لارتباط العلم بمصادره الربانية أكبر الأثر في ظهور حضارة الإسلام التي أغدقت على البشر خير إغداق.

القرآن ينشر العلم:

عندما جاء الإسلام وأشرق القرآن الكريم في الكون "كان عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة سبعة عشر رجلاً". (٣) وإذا كان هذا شأن مكة - وهي إحدى المدن الثلاث في الحجاز - فما شأن أهل البادية وشأن بقية أهل الجزيرة؟ ولقد وصفهم الله تبارك وتعالى بالأمية في أكثر من موضع في كتابه العزيز [سورة الجمعة آية ٢]، [سورة آل عمران آية ٥٧]. ورسول الله ﷺ يسجل هذه الحقيقة: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب. الشهر هكذا وأشار بيديه بما يدل على ان الشهر العربي إما ٢٩ أو ٣٠ يوماً" (٤).

ولكن عندما بدأت الدعوة تنشر ضياءها في الآفاق، فإن الدين الجديد والنظام السياسي الذي نشأ في أحضانه، قد شجعا الناس على تعلم القراءة والكتابة، إذ كانتا ضرورتين للذين يريدون أن يسجلوا ما يسمعون من القرآن الكريم، وما بلغهم من أحاديث رسول الله ﷺ بعد زوال الخطر من كتابة القرآن الكريم. ولقد شاهدنا موقفاً نادراً في تاريخ الحضارة الإنسانية، وهو جعل فداء الأسرى تعليم القراءة والكتابة لصبيان المسلمين.

(١) الدرامي: مقدمة: ٢٦٢ وراجع "رسالة أيها الولد" للغزالي ص ١١٦.

(٢) الرسالة السابقة ص ١١٧، ١٢٢.

(٣) البلاذري ص ٤٥٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب الصوم. سبق تخريجه

يقول المقرئزي: وكان في الأسرى من يكتب الكتابة. وكان منهم من لا مال له فيقبل منه أن يُعلم عشرة من الغلمان الكتابة ويُحلى سبيله. فيومئذ تعلم زيد بن ثابت الكتابة في جماعة من غلمان الأنصار. (١)

ولكن رغبة المسلمين في تعلم القرآن الكريم لم تكن لتتظر انتشار تعليم القراءة والكتابة. فامتألت ساحات المسجد النبوي بقراء القرآن وحفظته. فكانوا يتسابقون في تلقي سورة: يستظهرون آياته ويتفقهون بحكمه و أحكامه. روى مالك عن نافع عن ابن عمر رضی الله عنهما قال: تعلم عمر رضي الله عنه البقرة في اثنتي عشرة سنة. فلما ختمها نحر جزوراً (٢) وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها (٣).

كان هذا شأن كبار الصحابة. أما الصبية والغلمان، فقد أخذت تزدهم بهم حلقات الكتاتيب التي بدأت تنتشر، منطلقة من المدينة - حيث مولد الدولة الجديدة - ذاهبة حيث ذهب الإسلام واستقر. فقد رأى المسلمون أن واجبهم الأول أن يتصلوا بكتاب الله. المصدر الأول لهذا الدين الذي آمنوا به. وإذا كانت المساجد هي وسيلة الكبار، فإن الصغار ينبغي أن ينشأوا على صلة وثيقة بكتاب ربهم. ومن هنا كان انتشار مدرسة القرآن الأولى أو "الكتاتيب". وفي النص الذي نورده لابن حزم ما يشير إلى انتشار "الكتّاب". يقول: "مات رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام قد انتشر في جميع جزيرة العرب، من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم (البحر الأحمر اليوم)، ماراً بسواحل اليمن كلها إلى بحر فارس " الخليج العربي " إلى منقطعه ماراً إلى الفرات، ثم على ضفة الفرات، إلى منقطع الشام إلى بحر القلزم. وفي هذه المدن والقرى ما لا يعلم عدده إلا الله. كلها أسلمت وبنيت المساجد. وليس فيها مدينة ولا حلة لأعراب إلا قد قرىء فيها القرآن في الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء". (٤)

وبذلك كان الكُتّاب هو مدرسة الإسلام الأولى، وكان القرآن الكريم هو مادته الدراسية الأساسية. وكان في ذلك تجاوب صادق بين المدرسة وغايات المجتمع الجديد لكي يأخذ مادة عقيدته وسلوكه وارتقاء حياته من القرآن. يقول ابن خلدون: " أعلم أن تعليم الولدان للقرآن الكريم شعار هذا الدين. أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق في القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن الكريم. وصار القرآن أصل

(١) "إمتاع الأسماع". تحقيق محمود شاكر.

(٢) مقدمة تفسير القرطبي ص ٤٠.

(٣) نفس المصدر ص ٣٩.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ١٦٦.

التعليم الذي يبني عليه ما يحصل بعد ذلك من الملكات. وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخاً. وهو أصل لما بعده" (١).

وابن خلدون رحمه الله - كما نرى - يعلل اتجاه التربية الإسلامية إلى جعل القرآن الكريم هو أساس العمل التربوي بهذه الأسباب الثلاثة:

- ١- القرآن وسيلة رسوخ الإيمان.
- ٢- القرآن أصل التعليم الذي تبني عليه كل مراحل التعليم الأخرى.
- ٣- تعليم القرآن في الصغر أشد رسوخاً.

ولكنه بعد ذلك يذكر أسباباً سلوكية تتصل بطبيعة الإنسان وفطرته. فيقول: "ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إيثار التبرك والثواب، والخشية مما يعرض للولد من جنون الصبا ومن الآفات والقواطع عن التعليم، فيفوته القرآن الكريم، فإذا تجاوز البلوغ عصفت به رياح الشيبية فألقته بساحل البطالة" (٢).

ابتكر المسلمون - استجابة لحاجتهم - نظام " الكُتَّاب " ليكون المرحلة الأولى من مراحل الدراسة التي تستقبل أطفالهم. وقد يكون الكُتَّاب معروفاً قبل الإسلام. كما يذكر بعض مؤرخي التربية (٣). ولكن الصورة التي انتشر بها في البيئات الإسلامية، صورة فريدة في مناهجها وطرق أدائها. فمنهجها تجعل القرآن الكريم الهدف الأساسي لتعليم الطفل المسلم، وإعداده للمراحل التعليمية المقبلة.

والغزالي يوصي بان يتعلم الطفل في المكتب القرآن الكريم وأحاديث الأخيار، ثم بعض الأحكام الدينية في الشعر. (٤) وابن مسكويه يضيف مبادئ الحساب وقواعد اللغة العربية (٥). ثم ينتقل بعد ذلك إلى حلقات المساجد التي كانت تمثل مراحل التعليم المتوسط والعالى. يقول أحمد أمين " إن التعليم كان مرحلة تبتدئ بالكتّاب أو بالمعلمين الخاصين. وتنتهي بأن يكون حلقة في المسجد". (٦). وقد أبعده المسلمون صبيانهم في مرحلة التعليم الأولى عن المساجد خوفاً من عبث الصبيان. سئل مالك رضي الله عنه عن تعلم الأطفال في المساجد،

(١) الفصل الحادي والثلاثون ص ٥٤٧ مقدمة ابن خلدون.

(٢) المصدر السابق ص ٥٣٧ وما بعدها بتصرف.

(٣) ذكر الدكتور أحمد شلبي في كتابه " تاريخ التربية الإسلامية " أن هذا النوع من الكتاتيب وجد قبل الإسلام. ولو أنه كان قليل الانتشار. واعتمد في ذلك على عبارات للبلادري وابن خلدون.

(٤) إحياء العلوم ج ٣ ص ٥٧.

(٥) تهذيب الأخلاق ص ٢٠.

(٦) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٦٦.

فقال "لا أرى ذلك يجوز. لأنهم لا يتحفظون من النجاسة".^(١)

"وكان اللوح يستعمل في الكتابة. وكان المعلمون يعلمون الصبيان الخط بالنقل من الكتب الشعرية وغيرها. وبعد معرفة القراءة والكتابة كان التلاميذ يقرءون القرآن الكريم، ويكتبون كل يوم قدرًا في ألواحهم ويحفظون ما يكتبون. وبهذه الطريقة كانوا يدرّبون على القراءة ويتعلمونها ويحفظون القرآن ويحسنون خطهم.^(٢) " وكانوا يربون على تقديس القرآن واحترامه. فلمحو اللوح القرآني ماء طاهر يجدد دائماً. وعند التخلص منه يدفن في الأرض. وإذا الطفل حفظ القرآن و أجاد الخط ومعرفة قواعد اللغة ومبادئ الفقه والحساب، انتقل إلى المراحل الأخرى.

القرآن الكريم ومراحل التعليم التالية:

كان القرآن الكريم النواة التي انبثقت منها العلوم التي شكلت الحضارة الإسلامية في عصورها الزاهرة.

- ١- فعلم التفسير وعلوم القرآن الكريم نشأت للتيسير على المسلمين فهم كتاب الله.
- ٢- وعلوم الحديث وما ترتب عليها من علوم مصطلح الحديث وعلم الرجال، إنما قامت لتحفظ للأمة سنة نبيها.
- ٣- وعلوم النحو والبلاغة واللغة إنما قامت في أول أمرها لتحافظ على القرآن الكريم، وتمنع عنه اللحن، ولتيسر تذوق جماله، وإدراك أسرار.
- ٤- وعلوم الحياة من طب وهندسة وفلك وتاريخ، إنما قامت استجابة لدعوة القرآن إلى النظر في آفاق الكون واستكشاف قوانينه ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعْنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سورة فصلت الآية ٣]. ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف الآية ١٨٥]. ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة يونس الآية ١٠١].

بل إن القرآن الكريم ذكر خصوصية خشية العلماء لله في ختام آية تتحدث عن مظاهر قدرة الله في مختلف الكائنات [سورة فاطر الآية ٢٧-٢٨]. فالعلماء الذين يدركون جلال الله وعظمته من خلال خلقه وإبداع قدرته في مظاهر الكون، هم الذين يحشون الله ويتقونه حق تقاته.

وهذا الفهم لكتاب الله هو الذى جعل العلوم الإنسانية لا تختص بناحية من نواحي

(١) أحكام القرآن لابن العربي.

(٢) التربية الإسلامية وفلاسفتها لعطية الإبراشي.

المعرفة دون الأخرى. كما يحاول بعض الناس اليوم أن يصنف العلوم الإنسانية إلى علوم دينية وعلوم دنيوية سالكين في ذلك منهجاً لم يعرفه علماء الإسلام من قبل. وقد تنوعت فروع المعرفة أيام ازدهار الحضارة الإسلامية. فكلما أشرقت الدنيا بجهود علماء الفقه من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل. أشرقت كذلك بجهود جابر بن حيان في الكيمياء، والحسن بن الهيثم في الفيزياء، والخوارزمي الذي ابتدع الأرقام الأولى (١-٢-٣-٤) والثانية (3-2-1). وما زلنا في المشرق نستعمل الأولى، وما يزال إخواننا في المغرب العربي يستعملون الثانية، وعنهم نقلت إلى أوروبا^(١).

وقد قضت المعرفة الإسلامية على الخرافة والسحر والتنجيم، وأعطت العقل حقه. ولم يكن ذلك إلا أثراً من آثار التربية الإسلامية. فظهر أطباء مسلمون تعلموا في الجامعات الإسلامية. فابن النفيس - الذي نبغ في القرن الثامن - اكتشف الدورة الدموية قبل "هارفي" بعدة قرون. ومن قبله كان ابن سينا، الفيلسوف الطبيب الذي ألف في القرن الرابع الهجري كتابه (القانون) في قواعد الطب بأجزائه الخمسة. فاهتم به علماء أوروبا وطبعوه خمس عشرة مرة، وظلوا يعتبرونه مرجعهم في الطب في جامعات أوروبا حتى منتصف القرن السابع عشر وظل في كلية طب مونبلييه حتى القرن التاسع عشر^(٢).

وأحب أن أؤكد هنا حقيقة ثابتة، وهي أنه ما من عالم من هؤلاء العلماء ولا من غيرهم ممن تركوا بصماتهم علي وجه التاريخ بارزة ظاهرة، إلا تربى أولاً علي مائدة القرآن الكريم.

فابن خلدون علامة عصره (٧٣٢-٨٠٨ هـ) نشأ في بيت علم ورياسة. فتلقى علومه الأولى علي أبيه وقرأ القرآن وحفظه وتفقه في القراءات السبع^(٣).

وابن سينا يقول: "ثم انتقلنا إلى بخارى، وأتيت معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملت العشر من العمر، وقد أتيت علي القرآن كله"^(٤). وابن النفيس طبيب المستشفى المنصوري بالقاهرة، ومكتشف الدورة الدموية - كان عالماً في الفقه والنحو بجوار تبحره في الطب.

وجلال الدين السيوطي، ولد ليلة الأحد مستهل رجب سنة ٨٤٩ هـ. وتوفي والده وله من العمر خمس سنوات. فقام بأمره صديق والده. وختم القرآن وهو دون ثماني سنين، ثم

(١) التربية الإسلامية - محمد منير مرسى ص ٨.

(٢) المصدر السابق ص ٩.

(٣) "ابن خلدون حياته وتراثه الفكري" - عبد الله عثمان ص ١٩.

(٤) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢.

بدأ دراسته علي علماء عصره حتى أجاد جميع فروع علوم عصره (١).

وولي الله احمد بن عبد الرحيم الدهلوى (١١١٤ - ١١٧٦ هـ) حفظ القرآن الكريم وسنه لما يتجاوز السابعة. ثم درس علوم عصره. فدرس اللغة و التفسير والحديث والمنطق والطب. والفلسفة والهيئة والحساب (٢).

إن هؤلاء العلماء استطاعوا أن يعطوا الصورة الحقيقية للتربية الإسلامية التي لا تفرق في المعرفة بين علم وعلم إلا بمقدار ما يحقق مصلحة الأمة الإسلامية في دنياها وأخرها. ف"طلب العلم فريضة على كل مسلم" (٣). "فالعلوم جميعاً هي مظهر الكائنات الإلهية التي أشار إليها القرآن الكريم في المواضع المحددة" (٤). وهذه العلوم منها ما يفيد الإنسان في حياته الدنيوية ومنها ما يفيد الإنسان في حياته الآخرة. يقول ابن تيمية: "وهذان النوعان من العلوم نتاج الشرع والعقل. ولا تعارض بين الشرع والعقل، لأن كليهما يكشفان عن آيات الله في الوحي والخلق".

والخلاصة أن العلم في مدرسة القرآن أخذ حكم الفريضة، والعلوم جميعاً هي من ثمار فقه المسلم لدينه ولكتاب ربه. غير أنه إذ يصنفها يجدها علوماً لا بد منها ليعرف المسلم صلته بربه، وعناصر عقيدته، وصحة عبادته. فتلك العلوم فريضة عينية. أما العلوم التي تتصل بالحياة في صلاحها واستقامة أمرها فهي التي تمثل فروض الكفاية.

ففرض العين حكم شخصي. وفرض الكفاية حكم جماعي. ولذا كان فرض الكفاية من حيث أثره وصلته بالمجتمع وصلاحه، بالغ الأثر عظيم الخطر. فقد بلغ تصور المسلمين أن المجتمع المسلم إذا احتاج لأمر، وفيهم من يقوم به فلم يقوموا، أثموا جميعاً. ومن هذا المنطلق أقبل المسلمون علي كل العلوم التي تفيدهم وتعود بالخير على مجتمعاتهم، وبلغوا فيها شأواً بعيداً.

إلزامية التعليم:

إن من أخطر ثمار العلم الذي ترعرع في حجر القرآن، ظهور مبدأ إلزامية التعليم. فالذين يستطيعون العلم فلم يتعلموا آثمون. وقد أدرك المسلمون أن الإسلام لا يقوم إلا بمعرفة ترسم طريق النجاة في الدنيا والآخرة. ولهذا انتشر التعليم في البيئات الإسلامية بصورة لم تعهد من قبل. ووجد التربويون من المسلمين من أعلن أن تعليم الطفل واجب علي أبيه. فإن كان

(١) السيوطي في حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣.

(٢) مقدمة كتاب "حجة الله البالغة".

(٣) جزء من حديث رواه ابن ماجه: مقدمة: ٢٢٤.

(٤) "علم السلوك" لابن تيمية ج ٩ ص ٢٢٧.

يتيماً كان تعليمه واجباً علي وليه. فإن لم يكن له ولي، وجب على الدولة. يقول القابسي (٣٢٤-٤٠٣ هـ)، وهو يدل على هذا بوجوب معرفة القرآن والعبادات، وأن ما لا يتم الواجب إلا به هو واجب. ولذلك كان التعليم واجباً^(١).

ولقد اعتبر القرآن الكريم حرمان الناس من التعليم ذنباً يقتضيه القائمون علي العلم. قال تعالي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [سورة البقرة الآية ١٥٩]. ويؤكد هذا المعني قول الرسول ﷺ: "من سئل عن علمه ثم كتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار"^(٢).

العلم يرتبط بالسلوك السوي:

أفاض التربويون المسلمون القدامى في بيان ارتباط العلم بالخلق الكريم. فالغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) يقول: "الوظيفة الأولى للمتعلم هي تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق. إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وتربية الباطن. وكما لا تصح الصلاة إلا بتطهير الظاهر من الأحداث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق"^(٣).

وأبو عبد الله بن جماعة (٦٣٩ - ٧٣٣ هـ) يقول " من آداب المتعلم أن يطهر قلبه من كل غش وذنس وغل وحسد وسوء عقيدة وخلق، ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه ، فإن العلم كما قال بعضهم عبادة القلب. وإذا طُيَّب القلب للعلم ظهرت بركته ونما، كالأرض إذا طُيِّبَت للزرع نما زرعها^(٤). وقد رووا أن الشافعي رحمه الله أنشد هذين البيتين مؤكداً هذا المعني في طلب العلم:

شكوت الي وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وعرفني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي

ولقد كان لهذا الهدف من أهداف التربية التي أثمرتها مدرسة القرآن الكريم أكبر الأثر في تميز علماء المسلمين بخلفية نادرة عز أن تجد لها نظيراً.

فظهرت روح التجرد للعلم والإخلاص فيه، وطلبه لما فيه من خير وإصلاح للدين والدنيا. وليس لنفع ذاتي أو كسب مادي. فرأينا من علماء المسلمين من يرفض عطاء

(١) "التربية الإسلامية" - د. محمد منير مرسى ص ٦٢.

(٢) الترمذي ج ٧ - كتاب العلم ص ٣٠٢.

(٣) الإحياء ص ١٨.

(٤) ابن جماعة "تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم" ص ٢٠٥.

السلطان. كالإمام ابن حنبل وجلال الدين السيوطي. ويأبى وظائف الدولة كالإمام أبي حنيفة. كما رأينا منهم من يقوم على العلم وينفق على تلاميذه. يقول ابن جماعة: "على العالم أن ينزه علمه فلا يجعله سلماً يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة". قال الشافعي: "وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على ألا ينسب إلى حرف منه". وقال سفیان بن عيينة: "كنت قد أوتيت فهم القرآن، فلما قبلت الصرة من أبي جعفر المنصور سلب مني، فنسأل الله المسامحة" (١).

قضية أخذ الأجر على العلم:

بل إن هذا التجرد للعلم هو الذي دفع فقهاءنا من قبل أن يثيروا قضية أخذ الأجر على العلم. حتى لقد جعلها ابن حجر الهيثمي (٩٠٩-٩٧٤هـ) قضية هامة يحشد لها كل جهده ليجمع الأدلة على كلا الرأيين ثم يحكم من بعد: فيذكر عشرة أحاديث تؤيد أخذ الأجر على تعليم القرآن الكريم. ثم يذكر عشرة أحاديث أخرى تمنع أخذ الأجر. ثم يعقب بعد ذلك بأنه لم ير من جمع هذه الأحاديث في هذين المقصدين واستوفاهما كما فعل. ثم يقول: "إن العلماء من السلف والخلف اختلفوا في أخذ الأجرة على تعليم القرآن. فقال جمهور العلماء من الصحابة ومن بعدهم أن ذلك جائز لا كراهية فيه. وعليه الشافعي وعتاء وأبو قلابة ومالك وأحمد وأبو ثور وغيرهم. وذهب أبو حنيفة واسحق بن راهويه وغيرهما إلى ظاهر الأحاديث الأخرى، ورأوا أن أخذ الأجرة على تعليم القرآن غير جائز" (٢).

وهكذا بلغت الرغبة في التجرد للعلم أن يتساءلوا في هذه القضية. ذلك لأن منهج القرآن الكريم في التربية أن يكون الله تبارك وتعالى هو الغاية من وراء كل عمل. فمن طلب العلم لجاه ولرغبة في الظهور ساءت عاقبته عند الله. كما جاء في حديث: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ثلاثة". وفيه "ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن. فأتى به فعرفه نعمه فعرفها. قال فما عملت فيها؟ قال تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال كذبت. لكنك تعلمت العلم ليقال: عالم. وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار" (٣).

ربط العلم بالأخلاق الكريمة:

إن هذا الاتجاه الذي أورثه القرآن الكريم جعل العلم يرتبط بالأخلاق الكريمة، وجعل هدفه الأساسي في التكوين التربوي للفرد أن يكون السلوك مستقيماً على هدي الإسلام

(١) ابن جماعة المصدر السابق ص ١٣.

(٢) "تحرير المقال في آداب وأحكام يحتاج إليها مؤدبو الأطفال" ص ٢٩٢ وما بعدها بتصرف.

(٣) أخرجه مسلم: الإمارة: ١٩٠٥ والنسائي: جهاد: ٣١٣٤ وأحمد: ٢ / ٣٢٢.

ونوره. ولذلك لم تكن صلة المتعلم بمعلمه صلة المعرفة والثقافة فحسب، وإنما كانت صلة التلمذة علي يد المشيخة. ولقد كان لهذا الأسلوب أكبر الأثر في تمييز العمل التربوي في الحياة الإسلامية. فأنت لا تقرأ ترجمة لعالم حتى تجد المترجم يهتم بسرد شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم. وقد كان التلميذ مع شيخه أكثر انقياداً وطاعةً من الابن مع أبيه. يقول الشافعي: "كنت أصفح الصفحة بين يدي مالك صفحاً رقيقاً هيبه له، لئلا يسمع وقعها". ويقول سفيان بن عيينة: "كنت إذا سمعت من الرجل الحديث كنت له عبداً ما يحيا"^(١).

ويقول ابن جماعة: "كان بعض سلفنا الصالح إذا ذهب إلى شيخه تصدق بشيء" وقال: "اللهم استر عيب شيخي عنى ولا تذهب بركة علمه عنى"^(٢).

ويقول إن الشافعي عوتب في تواضعه للعلماء. فقال: "أهين لهم نفسى فهم يكرمونها... ولن تُكرم النفس التي لا تمينها"^(٣).

وهكذا ارتبط العلم في رحاب القرآن بالأخلاق الكريمة. كما ارتبط بالعمل به، والسير بمقتضاه. وأصبح العلم يقصد لذاته، ولما يترتب عليه من خير ورشاد. ووجدنا في قافلة الحضارة الإسلامية من يفنى حياته طالباً للعلم نافعاً به. ولعل ما قدمته العقول المسلمة من ثمار العلم أيام ازدهار الحضارة الإسلامية لا تجد له نظيراً، بل لا نستطيع أن نجد له تفسيراً إلا إذا وضعنا في حسابنا تجردهم للعلم، وابتغاء وجه الله فيه، والتزامهم بمنهج القرآن في العمل والسلوك. وإلا فكيف نفسر ما خلفه الطبرى من مجلدات ضخمة في التفسير والتاريخ وغيرهما؟ وأى حياة عادية تطيق ذلك؟^(٤).

* * *

وبعد فلم يعد هناك مفر أمام كل معتنى بمصير العالم الإسلامي، سوى البحث عن طريق الخلاص بعد أن استبانَت النتائج المدمرة للمدرسة العلمانية في أنحاء العالم الإسلامي، سواء في التربية والتعليم، أو في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وقد أخذ كثير من رواد الفكر الإسلامى ينادون بالعودة إلى نظام تربوي تعليمى ينبثق من مصادر حياتنا الإسلامية. يقول الأستاذ ابو الحسن الندوى: "وحل هذه المشكلة - مهما تعقد وطال واحتاج إلى الصبر - ليس إلا أن يصاغ هذا النظام التعليمى صوغاً جديداً، يلائم عقائد

(١) ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم ص ٢١٦.

(٢) نفس المصدر ص ٢١٦.

(٣) نفس المصدر السابق ص ٢١٤.

(٤) المصدر السابق

الأمة الإسلامية، ومقومات حياتها وأهدافها وحاجاتها، ويخرج من جميع موادها روح المادية والتمرد على الله، والثورة على القيم الخلقية، وينفخ فيها روح التقوى، والإنابة إلى الله^(١).

* * *

(١) التربية الإسلامية الحرة لأبي الحسن الندوي ص ٣٧.

المبحث الرابع: المدرسة القرآنية

المدرسة القرآنية والمدرسة الحديثة:

أوشك الناس اليوم أن يألفوا المدرسة الحديثة بصفوفها المختلفة، ومراحلها الدراسية، وإجازاتها العلمية. وأوشك أسلوبها العلمي أن يكون المسلك الوحيد الذي يرتضونه لسير العمل التربوي والتعليمي. وهم في ذلك ينسون أو يتناسون أن هذه المدرسة قامت علي أنقاض مدرسة عايشت الحياة الإسلامية أربعة عشر قرناً، وهي المصدر الأساسي لكل مراحل التعليم بعدها، بل هي الطريق الوحيد الذي كان يسلكه كل من أراد أن يفتح أبواب العلم والمعرفة.

ماذا نعني بالمدرسة القرآنية؟

نقصد بالمدرسة القرآنية كل مدرسة يكون القرآن الكريم هو المادة الرئيسية في دراستها. سواء أضافت إلي ذلك علوماً دراسية أخرى، أم اكتفت بالقرآن الكريم وحده.

وقد عُرفت هذه المدرسة في البيئات الإسلامية بأسماء متعددة. فأحياناً تسمى مدرسة تحفيظ القرآن الكريم، وأحياناً تسمى (الكتّاب) ويجمع علي (كتاتيب)، وتارة تسمى (المكتب) أو (مكتب تحفيظ القرآن)، وتارة تسمى (الخلوة) وتجمع علي (الخلاوي). وفي غرب إفريقيا يسمونها (الدارة) وجمعها (الدارات)، وفي شرق إفريقيا يطلقون عليها (الدوكسي). إلي غير ذلك من الأسماء التي تعني شيئاً واحداً ألا وهي تلك المدرسة التي قامت من أجل القرآن الكريم، ومن أجل ربط الناشئ المسلم بكتاب ربه.

نشأتها:

عُرفت المدرسة القرآنية منذ الحياة الأولى في الإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ يتلقى الوحي عن ربه ويقوم بتلقينه إلي صحابته فرادي وجماعات، وكان هؤلاء الصحب الكرام يُقبلون في حماسة وشغف علي تلقي كتاب ربهم إعجاباً به، وإيماناً منهم بأن تلاوته ومدارسته والعمل به عبادة من أجلّ العبادات، وقربي من أكرم القربات، ألم يخبرهم نبيهم الكريم: "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف"^(١)

ولقد امتاز هذا الكتاب المعجز - فيما يمتاز به - ببسر تلقينه وتلاوته. لذلك ميزه مُنزله، بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [سورة القمر آية

(١) رواه ابن مسعود. رواه الترمذی: فضائل القرآن: ٢٩١٠ وقال حديث حسن صحيح. الدارمی ٣٣٠٨

[٢٢]. بل جعل الله من ميزاتهِ أن يحفظ في الصدور، كما يسجل في الكتاب ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سورة العنكبوت آية ٤٩].

وبذلك تحول مسجد المدينة إلى مدرسة قرآنية أولى، كما تحولت دور المهاجرين والأنصار إلى مدراس قرآنية، فكانت حلقات القرآن. روي المحدثون عن عبادة بن الصامت: كان الرجل إذا هاجر دفعه رسول الله ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتخالطوا^(١)، بل إن بيوت أصحاب رسول الله ليصبح لها ذلك الدوي حين يرجع إليها أصحابها فيتدارسون القرآن مع زوجاتهم وأولادهم.

ومع انتشار الإسلام وذيوعه، انتشرت المدرسة القرآنية وذاعت، وبعد أن كانت في المساجد يملأ حلقاتها الكبار، أصبحت غرفاً ملحقة بالمساجد تستقبل الناشئة من أطفال المسلمين، ليكون القرآن الكريم أول ما يقرع آذانهم، وتفتح عليه قلوبهم من أنواع الدراسات المختلفة. قبل أن ينتقلوا إلى مراحل العلوم بعد ذلك.

وقد انتشرت تلك المدارس، فأينما وجدت الجماعة الإسلامية وجدت المدرسة القرآنية، لا فرق بين بلاد تنطق بالعربية، وبلاد لا تنطق بها.

يقول ابن حزم: "مات رسول الله ﷺ، والإسلام قد انتشر في جميع جزيرة العرب. وفي هذه الجزيرة من القرى والمدن ما لا يعرف عدده إلا الله، كلهم قد أسلموا وابتنوا المساجد. ليس فيها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب إلا قرئ فيها القرآن في الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء". ثم يقول بعد ذلك: "ثم مات أبو بكر ووُلي عمر ففتحت بلاد الفرس، وفتحت الشام ومصر ولم يبق بلد إلا وقد بنيت فيه المساجد، ونسخت المصاحف وقرأ الأئمة القرآن، وعلمه الصبيان شرقاً وغرباً"^(٢).

مناهجها:

القرآن هو المادة الرئيسية في منهج هذه المدرسة. وقد تضاف إليه مواد أخرى مثل القراءة والكتابة، ومثل بعض قواعد الحساب، وقواعد النحو ومسائل الفقه. غير أن ذلك لم يكن في العالم الإسلامي من الالتزام به، بعد اتساع رقعة البلاد الإسلامية، واختلاف العادات والتقاليد التعليمية فيها.

فأبو بكر بن العربي يحدثنا عن هذه المدرسة عند المشاركة- كما يروي ذلك عنه بن

(١) مناهل العرفان ج ١ ص ٢٣٤.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ص ١٦.

فرحون في "الديباج المذهب" - فيقول: "وللقوم في التعليم سيرة بديعة. وهي أن الصغير منهم إذا عقل أخذوه إلي المكتب. فإذا عبر المكتب أخذوه يتعلم الخط والحساب والعربية. فإذا حذقه كله أو حذق بعضه، خرج إلي المقرئ ليلقنه كتاب الله، فحفظ منه كل يوم ربع حزب أو نصفه أو حزباً، حتى إذا حفظ القرآن خرج إلي ما شاء الله من تعليم أو تركه"^(١).

فأنت تري أن أبا بكر بن العربي يروي أن أهل المشرق من العالم الإسلامي يجعلون العمل في المدرسة القرآنية يقوم أولاً علي تعلم القراءة والكتابة وبعض العلوم العربية والحساب. فإذا أتقنوا ذلك انتقلوا إلي حفظ القرآن وإجادة تلاوته. وابن خلدون يزيد ذلك وضوحاً فيتحدث عن أسلوب التعليم في هذه المدرسة في غرب العالم الإسلامي وشرقه. فيقول: "أما أهل المغرب فمذهبهم الاقتصار علي تعليم القرآن فقط. وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتابة، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم. وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب. وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك فيضيفون إلي القرآن بعض العلوم. ونخلص من ذلك إلى أن جميع الأقطار تبدأ بتعليم القرآن، وإن كان أهل المغرب يقتصرون عليه، وأهل إفريقية يضيفون إليه الحديث والخط، وأهل الأندلس يهتمون بالعربية مع القرآن"^(٢).

نظام العمل فيها:

لهذه المدرسة نظام تنفرد به، وهو نظام أثبت نجاحه علي مدي التاريخ التعليمي في الحياة الإسلامية. فالمدرسة "عبارة عن مكان مستقل أو غرفة في منزل أو حجرة مجاورة للمسجد أو خيمة من جملة خيام الحي تسمي "خيمة المؤدى". كما كان في تونس، أو شجرة مظلة يجلس تحتها التلاميذ- كما رأيناها في غرب إفريقية- ويختلف حجمها من حجرة صغيرة إلي مكان يتسع لأعداد كبيرة من التلاميذ. فقد روي ابن خلدون في مقدمته أن كُتّاب أبي قاسم البلخي كان به ثلاثة آلاف تلميذ. وكان فسيحاً جداً لدرجة أن البلخي كان يركب حماراً ليمر علي تلاميذه"^(٣).

وقد انتشرت هذه المدرسة في البلاد الإسلامية فلم تكن تخلو منها قرية أو حي أو شارع كبير. وكان الصبيان يبدءون يومهم المدرسي بحفظ القرآن. عندما يكونون مكتملي النشاط، ويستمر ذلك إلي الضحى. ثم ينتقلون بعد ذلك إلى تعلم القراءة والكتابة وغيرها

(١) "الديباج المذهب" - ابن فرحون ص ١٢١.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٧-٣٩٨.

(٣) التربية الإسلامية للدكتور محمد منير موسى ص ٩٥.

حتى الظهر. ثم ينصرف التلاميذ إلى بيوتهم. وبعض الكتاتيب كان له بعد ذلك فترة مسائية حتى العصر^(١). وقد رأيت في غرب إفريقية "دارات قرآنية" لها فترة ليلية يقوم نشاطها علي أضواء نار موقدة. ومثل ذلك يحدث في "خلاوي السودان". والعمل في هذه المدرسة يقوم علي النشاط الفردي. فكل تلميذ له خط سير مستقل في دراسة القرآن وحفظه، يعتمد هذا الخط علي قدرة التلميذ ونشاطه. وقد يتجاوز التلاميذ في مجالس، ولكن لكل منهم "لوحة" الخاص به. يقرؤه أو يحفظه بنفسه بعد مراجعته علي شيخه.

والكتاب يشرف عليه شيخ واحد، ويعاونه مجموعة من "العرفاء". وهم غالباً من التلاميذ الكبار الذين يساعدون شيخهم في إقراء التلاميذ الصغار، أو إجازة حفظ "الواهم". والدراسة مستمرة طوال أيام الأسبوع ماعدا الجمعة والنصف الأخير من يوم الخميس. والدراسة مستمرة كذلك طوال السنة، لا تنقطع إلا في الأعياد والمواسم.

وتنتهي دراسة الطفل في أي وقت من السنة، وذلك عندما يحقق الهدف الأساسي من دخول المدرسة وهو حفظ القرآن. وعندما يتم هذه الدراسة يقام له احتفال خاص، فرحاً بما أنجزه من عمل جليل. ثم يستأنف دراسته بعد ذلك في أنواع العلوم المختلفة. وقد يتوقف عند هذا الحد مكتفياً بزوال أميته بتعلم القراءة والكتابة. ويعمق صلته بدينه بحفظ كتاب ربه.

مكانتها:

كانت المدرسة القرآنية تمثل القاعدة الأساسية في البناء التعليمي في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وعن طريقها تحقق للأمة الإسلامية ما لم يتحقق لأمة أخرى من انتشار التعليم ومحو الأمية. ففي الوقت الذي كانت أمم الأرض جميعاً تعيش في ظلال الجهل، وتغرق في لجج الخرافة والأساطير، كانت المدرسة القرآنية تعمر المدن والقرى ومضارب البادية، تدفع عن أعين الناس غشاوة الجهل، وتزيل من عقولهم سجع الخرافة. ولقد سجل التاريخ أن الأمة الإسلامية استطاعت بفضل من الله ثم بهذه المدرسة أن تكون أول أمم العالم التي نشرت التعليم بين الصغار والكبار والنساء والفقير. فكانت بذلك أول من حقق محو الأمية في كثير من جوانبها. وإلى قرب العصر الحديث، كانت البيئات الإسلامية تتميز بهذا الطابع الذي يجعل التعليم مشاعاً في كل طبقات الأمة، لما في هذه المدرسة من سهولة المسالك، "وديموقراطية" التعليم.

ولقد سجل أحد القادة الفرنسيين هذه الحقيقة عندما تحدث عن حال الجزائريين

(١) نفس المرجع ص ٩٦.

وقت مجيء الحملة الفرنسية (١٨٣٠م). فقد^(١) قال الجنرال (ولسن استر هازي): "إن الجزائريين الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة، كانوا في وقت أن بدأ الاحتلال "أكثر عدداً من الفرنسيين الذين كانوا يقرءون ويكتبون، فقد كان ٤٥ بالمائة من الفرنسيين أميين آنذاك، إن الجزائر احتلتها جنود من طبقة جاهلة تمام الجهل، بل يجب علينا أن نعترف احتراماً للحقيقة، أن المسلمين في شمال إفريقيا كانوا يولون مسائل التربية والتعليم عناية لها قيمتها".

وهذه العناية التي اعترف بها (ولسن استر هازي) لم تكن لتتحقق إلا عن طريق المدرسة القرآنية التي كان ينتظم فيها أطفال المسلمين في مطلع حياتهم التعليمية، وقد يكتفون بها، وقد يواصلون تعليمهم في مراحل أخرى.

وهذا الذي رآه (استر هازي) في شمال إفريقيا كان طابع الحياة الإسلامية في كل مكان. وقد حرص المستعمرون علي إخفاء هذه الحقيقة. فلا يشيرون في إحصاءاتهم التعليمية إلي المتخرجين في هذه المدارس، بل لا يسلكون في نظام التعليم إلا الذين تخرجوا في مدارسهم. أما أبناء المدرسة القرآنية فهم أميون في نظر المستعمرين وعملائهم.

إن المدرسة القرآنية حققت مبدأ شمول التعليم ورواجه. وكانت المظهر التطبيقي للحديث النبوي "طلب العلم فريضة علي كل مسلم" بل لقد ناقش القابسي - وهو من رجال التربية الإسلامية في القرن الرابع- هذه الحقيقة. وجعل أمر التعليم من الأعمال التكليفية التي يُسأل عنها المسلم أخذاً بحديث "كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته".^(٢)

ومن خلال هذه النظرة الفقهية الفاحصة نري القابسي يتوصل إلي الحكم بوجوب التعليم في المرحلة التي تمثلها المدرسة القرآنية فيقول: "معرفة العبادة واجبة. ومعرفة القرآن واجبة لضرورتها في الصلاة، والوالد مكلف بتعليم ابنه القرآن والصلاة، فإذا لم يتيسر له ذلك فعليه أن يرسله إلي "الكُتّاب" بالأجر. فإذا عجز عن ذلك تولى عنه المحسنون أو بيت المال"^(٣) وكما كانت المدرسة القرآنية الطريق إلي انتشار التعليم في البيعة الإسلامية، كانت كذلك الطريق إلي الترقّي في مراحل التعليم المختلفة التي يسير فيها المسلم حتى يدرك حاجته من العلم، وحتى يدرج في سلك "العلماء".

ولم تكن المدرسة القرآنية طريقاً إلي ما يعرف عند بعض الناس بالعلوم الدينية

(١) أورد هذه العبارة الأستاذ عباس فرحات في كتابه "ليل الاستعمار". ونقلتها مجلة كلية الآداب الجزائرية سنة ١٩٦٤ من مقال للأستاذ سعد الدين أبو الشنب ص ٣٩.

(٢) البخارى: جمعة: ٨٩٣ ومسلم: إمارة: ١٨٢٩ وغيرهما.

(٣) يراجع " التربية في الإسلام للدكتور أحمد فؤاد الأهواني-فصل "الإلزام عند القابسي".

فحسب. بل كانت طريقاً إلى كل العلوم بمفهومها الشامل، من فقه ونحو وبلاغة وطب وهندسة وغيرها. وهي بهذا الأسلوب عامل أساسي في إعطاء الثقافة الإسلامية خصائصها المميزة التي تُبعدها عما عُرف عن الثقافات الأخرى من اتجاهات مادية، وتجعلها ثقافة ترضي كل آفاق الإنسان وطموحاته.

وهي كذلك عامل أساسي في إعطاء الشخصية المسلمة سماتها الخاصة التي تميزها عن غيرها. فالشخصية المسلمة التي تربت في أحضان هذا الكتاب الكريم شخصية تربط دنيها بأخرها، وتجعل حياتها عبودية لربها، وعمارة لكونها، بشريعة الله التي تضمنها هذا الكتاب الذي تتلمذت عليه.

والمدرسة القرآنية هي التي أسهمت في إيجاد هذا التقارب الفكري بين المجتمعات الإسلامية في شرق العالم الإسلامي وغربه. فانتشارها حيث ينتشر الإسلام أوجد وسطاً ثقافياً يأخذ مادته الفكرية من القرآن الكريم. ومن خلاله تقاربت الميول والأفهام. فقبل هذه الهجمة العدوانية التي تعرض لها العالم الإسلامي في العصر الحديث لم يكن السائر في البلاد الإسلامية يجد فرقاً واضحاً بين شعوبه المختلفة، مهما تباعدت البلاد والأوطان. وذلك أثر واضح من آثار وحدة المنهج التربوي الذي كانت المدرسة القرآنية عنصراً أساسياً فيه.

المدرسة القرآنية واللغة العربية:

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين. بل إن عروبوته هي المظهر الأول من مظاهر إعجازه وتحديه. فبغير لفظه العربي لن يكون قرآناً. ولن يكون كلام الله المنزل هداية لعباده ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَلْعَجَمِيُّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [سورة فصلت آية ٤٤].

وقد أصبح مقررراً أن اللغة العربية لا يمكن فصلها عن القرآن. ولو ترجم القرآن إلى أية لغة أخرى فلن تكون الترجمة قرآناً. وعلي هذا أجمعت الأمة الإسلامية، سواء منها من نطق بالعربية، ومن نطق بغيرها. وبذلك حلقت اللغة العربية خارج جزيرتها علي جناحين خفاقين من دين وقرآن. وكان لزاماً على المسلم الذي يريد أن يكون مسلماً صحيح الدين، العمل علي أن يستقي الإسلام من ينابيعه العربية الأصيلة.

وقد حرص الإسلام علي ألا تُقدّم اللغة العربية للعالم علي أنها لغة جنس من الأجناس. بل علي أنها لغة هذا الكتاب الكريم الذي جاء رحمة للعالمين. ورسول الله ﷺ واضح في تقديم اللغة بهذا المفهوم الجديد. أنها لغة كل من نطق بها وتعلمها. سواء كان عربي النسب أو لم يكن، ويروي أبو سلمة بن عبد الرحمن رضي الله عنه: "جاء قيس بن مطاطيا إلي حلقة فيها سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا

بنصرة هذا الرجل. فما بال هذا؟ [أي أن الأوس والخزرج عرب ينصرون رسول الله وهو عربي. فما بال سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي، ما بالهم ينصرون رسول الله العربي وهم ليسوا عرباً؟]. فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلايبه (١)، ثم أتى إلى النبي ﷺ فأخبره بمقاتلته، فقام رسول الله ﷺ مُعْضَباً يجر رداءه حتى دخل المسجد. ثم نودي: الصلاة جامعة (٢) وقال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس: إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، وإن الدين دين واحد. ألا وإن العربية ليس لكم بأب ولا أم، وإنما هي لسان. فمن تكلم بالعربية فهو عربي". (٣)

أسقط الإسلام بهذا المفهوم الجديد للعربية التعصب العرقي باسم اللغة، وجعل من اللغة العربية لغة الإسلام وليست لغة الأجناس والأقوام. فأقبل المسلمون علي كتاب ربهم، يدرسونه في لغته التي نزل بها، وانتشرت مدارس القرآن، يتلمذ فيها الصغار والكبار. ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبحت العربية علي لسان البيئات الإسلامية في شرق العالم الإسلامي وغربه. وشهد الناس معجزة من معجزات هذا الكتاب الكريم. فقد تتابع الناس جماعات ووحداً يحفظون آيه، ويرتلون سوره، بلغتها العربية التي نزل بها، وبقواعد التلاوة التي عُرف بها، برغم أن كثيراً منهم لم يكن عربياً. ولم ينشأ في بيئة عربية. وما زال هذا يحدث إلي عصرنا الذي نعيش فيه، وإن أخذت صورته تضعف تحت ضغط الاتجاهات المضادة، التي سنتحدث عنها بعد ذلك.

غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد. بل إن الذين أتاحت لهم مراحل دراسية بعد ذلك، أصبحوا عرباً بلسانهم، وعلماء يتقنون الإسلام وعلومه بلغته العربية. بل إنهم - أحياناً - بفضل هذه المعايضة القرآنية - تفوقوا علي هؤلاء الذين ينتسبون إلي العروبة انتساب عروق ودماء.

ومنذ القرن الأول الهجري والتاريخ يحدثنا عن علماء وأدباء وشعراء ليسوا عرباً بحكم أنسابهم، وإنما عربهم هذا الكتاب الكريم. بل إن معظم الذين قادوا الحركة العلمية الإسلامية منذ القرن الأول لم يكونوا عرباً بحكم العروق والدماء. بل تتلمذوا في المدرسة القرآنية. وعاشوا في ظلال القرآن.

لقد كانت مدرسة القرآن هي الفاتحة لآفاق العلوم الإسلامية المختلفة. إذ كان

(١) اللب : موضع النحر، أي قبض علي ثيابه التي فوق نحره.

(٢) هذه الجملة ينادى بها عند كل اجتماع عام في المسجد.

(٣) رواه الحافظ ابن عساكر عن مالك عن الزهري عن أبي سلمة: ٧ / ٤٦ وانظر حياة الصحابة: ٢ /

القرآن الكريم هو النواة لكل علم نما بعد ذلك وازدهر وأثمر. فمدرسة القرآن هي التي أثمرت مدارس القراءات المختلفة. وهي التي أسرعت بظهور علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة. وهي التي أبرزت قادة الفكر الفقهي بمدارسه المختلفة. ومدرسة القرآن من بعد هي التي ساعدت علي انتشار العربية حتى أصبحت اللغة العالمية بعد قرن من ظهور الإسلام. تتكلم بها شعوب كلغة أم. وتتكلم بها شعوب كلغة تعارف دولي. كما كان يحدث في إفريقية حتى داهمها الاستعمار.. وتتكلم بها شعوب كلغة ثقافة وعلوم. كما كان يحدث في البلاد الإسلامية الأسيوية غير العربية، وجميع هذه الشعوب كتبت لغتها الأم بالحرف العربي الذي تلقته في المدرسة القرآنية، كاللغات الفارسية والتركية والأردية والملاوية والأندونيسية والسواحلية والهوسا والمندانك وغيرها.

وجاء الاستعمار:

فتعرض العالم الإسلامي لحرب صليبية جديدة، ليس من أسلحتها الحديد والنار. وإنما كان من أفنك أسلحتها التآمر الماكر الخفي الذي استهدف أن يحقق ما عجزت عنه الحروب الصليبية خلال مائتي سنة. وكان من أهم أهداف هذا التخطيط الماكر القضاء علي المدرسة القرآنية كخطوة أولى للقضاء علي الإسلام نفسه وعلي لغته العربية. وقد اعتمدت هذه الخطة الماكرة علي أن تعمل في اتجاهين متوازيين.

الأول: يحشد جهده في التضييق علي هذه المدارس بطريقة سافرة حتى تغلق أبوابها، فيستولي علي أوقافها، ويحرمها من معوناتها، ويحرم المتخرجين فيها من أي رعاية أو عناية أو مساعدة. بل إن كثيرا من تلك الحكومات التي صنعها الاستعمار تعتبر المتخرجين من تلك المدارس أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، ما داموا لا يكتبون لغة المستعمر، ولا ينطقون بها. بل إن بعض هذه الدول التي رأيتها في أفريقية تقدم المعونات السخية، للمدارس التبشيرية، بل إنها أحيانا تقدم كل ميزانيتها من ميزانية الدولة المأخوذة من أموال المسلمين، ولا تقدم أية معونة للمدارس القرآنية والإسلامية.

واهتمت الخطة بنظام التعليم العلماني الجديد الذي فرضته علي الأمة الإسلامية بعد أن أنكرت التعليم الإسلامي القائم علي المدرسة القرآنية، وقصرت الوظائف والإدارات علي المتخرجين في هذه المدارس الجديدة، أو المدارس التي أقامتها الإرساليات التبشيرية. بل جعلت كل من تعلم في هذه المدارس الجديدة هو المتعلم الذي تخلص من الأمية، أما المتخرجون في المدارس القرآنية والإسلامية فهم أميون لا يصلحون لوظائف الدولة. وكان أكثرية المتعلمين في مدارس الإرساليات والمدارس الجديدة، إما مسلمون صبغوا بصبغة المستعمر، أو تخرجوا في مدارس التبشير بعد أن غيرت دينهم حتى أصبحوا هم المخطوظون

برعاية المستعمر.

وقد يكون الأمر مستساغاً ومقبولاً لو أن نظام المدارس القرآنية أو الإسلامية تطور بما يناسب الحياة الجديدة دون إلغاء هذه المدارس أو العمل علي إغلاقها كما جاء بعد ذلك.

وقد باشر الاحتلال الفرنسي منذ وطئت قدمه شمال إفريقيا، مطاردة المدارس القرآنية والتضييق عليها. ففي السنة الأولى من الاحتلال سنة ١٨٣٠م. وفي شهر ديسمبر أصدر (الجنرال دي بور مون) قراراً ينص علي التصرف في الأملاك الدينية بالبيع والشراء. ولم يكن الاستيلاء علي هذه الأوقاف الإسلامية مجرد إجراء اقتصادي، وإنما كان يستهدف زعزعة أركان المجتمع الثقافية والحضارية والإسلامية. لذلك باشروا منذ اللحظات الأولى للاحتلال، هدم المساجد والكتاتيب بحجة أنها غير صحية أحياناً، أو أنها توشك على السقوط أحياناً أخرى. وهذا الذي كان يحدث في شمال إفريقيا كان يحدث مثله أو أشد منه في كل البقاع الإسلامية التي رزئت بالاستعمار.

وقام الاتجاه الثاني - وهو أقسى وأشد من الأول - على أساس علمانية المدرسة الحديثة التي قصد بها أن تقوم على أنقاض المدرسة القرآنية.

فقد تُركت المدارس القرآنية - التي صممت على الصمود - لتقضى عليها سياسة التعليم الجديدة التي رسمت خططها على أن تستقبل المدرسة الحديثة الطفل في نفس السن الذي تعود فيه الأطفال أن يذهبوا إلى المدرسة القرآنية. وبذلك لم يعد هناك خيار أمام الآباء. إذ كان عليهم - إذا أرادوا أن يحتاطوا لمستقبل أطفالهم - أن يذهبوا بهم إلى المدرسة الحديثة التي كانت علمانية في كل مراحلها. وإن دُرس فيها شئ من القرآن والدين، فذلك من باب "استغفال" الجماهير المسلمة وإسكاتهما، وذلك في معظم البلاد الإسلامية.

ولكى تنجح الخطة التدميرية للمدرسة القرآنية، فُتحت مناصب الدولة الهامة ووظائفها أمام المتخرجين في النظام التعليمي الجديد. وحُرم منه المتخرجون في المدرسة القرآنية أو ضيق عليهم. مهما نالوا بعد ذلك من مؤهلات مادامت تلك المؤهلات لم تأت عن طريق المدرسة الحديثة.

وكان من نتائج ذلك:

- ١ - ظهور مشكلة مازال من أخطر المشكلات التعليمية وهي ازدواجية التعليم. فهذا تعليم ديني، وهذا تعليم مدني، أو هذا تعليم تقليدي قديم. وهذا تعليم عصري حديث، وكل ينظر إلى الآخر نظرة الريبة وعدم الاطمئنان.
- ٢ - وقد سُخِّرت أجهزة الإعلام - التي يملكها العلمانيون في كثير من البلاد

الإسلامية – للسخرية من كل تعليم يتصل بالدين وبالنظام الإسلامى الموروث. فعاش المتخرجون فى المدارس الإسلامية أشبه بالمنبوذين فى بلادهم. كثير منهم لا يجد قوته إلا فى كتابة الأحجية والتمايم والتعاويد.

٣ – وتخرجت فى المدرسة الحديثة أجيال ليس معها ما يربطها بدينها، ولاصلة لها بكتاب ربها، فسهل على أصحاب الأفكار المنحرفة أن يجدوا فيهم صيداً ثميناً. فكان من وراء ذلك الأيدولوجيات الهدامة، والأفكار المنحرفة فى البلاد الإسلامية، التى كانت من قبل أبعد ماتكون عن التأثير بتلك النظريات المخربة.

٤ – ومن خلال هذه الأجيال الفارغة من كل فكر إسلامى سليم – التى تخرجت فى المدرسة الحديثة عند غيبة مدرسة القرآن – استطاع بعض الانتهازيين أن يتصدروا الشعوب الإسلامية، بل أن يتولوا قيادها، بل أن يتحكموا فى مصائرها. فكان مانشاهده اليوم فى شرق العالم الإسلامى وغربه.

٥ – وكان من آثار انتشار المدرسة الحديثة أن انزوت أو انقرضت المدرسة القرآنية. فلم تعد تجد المعاهد الإسلامية المتخصصة ماكانت تجده من قبل من المتخرجين فى هذه المدارس ممن يحفظون القرآن الكريم. وكان حفظهم هذا يؤهلهم لمتابعة دراساتهم ليصبحوا علماء الغد وفقهاء الإسلام. فاضطرت تلك المعاهد أن تقبل أى طالب وإن لم تتحقق فيه شروط الانتساب التى كانت تلتزم بها فى الماضى.

٦ – وكان من نتاج ذلك أن ظهر على صعيد الحياة الإسلامية علماء جهلة، ليس لهم من الحياة العلمية إلا تلك المؤهلات التى يحملونها فى غيبة من التقويم الصحيح. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول فيما يرويه عبد الله بن عمرو بن العاص: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد. ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤساء جهلاً. فسئلوا فأفتوا بغير علم. فضلوا وأضلوا"^(١) وهؤلاء هم الذين ساروا فى ركاب الحكومات العلمانية فى شرق العالم الإسلامى وغربه، فوجدناهم يجرمون الحلال ويحلون الحرام ليرضى الملوك والحكام.

* * *

ونحن لانقول بعودة المدرسة القرآنية كما ألفتها الحياة الإسلامية منذ القدم، فذلك مالا سبيل إليه. ولكننا ندعو ونهيب بكل القائمين على نظم التربية والتعليم فى البلاد الإسلامية، أن يراجعوا هذه النظم، التى تم إعدادها تحت تأثير اللفهة الشديدة فى ملاحقة ركب الحضارة والتقدم، أو تحت تأثير القوى الخارجية التى تضمم العداء للمسلمين. وفى جو

(١) رواه البخارى: علم: ١٠٠. سبق تخريجه.

هذه اللهفة لم تتبين خطورة ما أقدمنا عليه عندما تجاوزنا في إعداد نظمنا التعليمية المدرسة القرآنية ودورها، متأثرين بما نقتبسه من غيرنا، أو بما يخططه لنا أعداء أمتنا.

إن الوقت قد حان كي نراجع مخلفات قرن الانهزام النفسى أمام القوى الخارجية، وماتركه من ركام كثيف قادر على تعطيل مسيرتنا المؤمنة، ما لم تتجمع جهود صادقة لإزالة هذا الركام المتخلف من آثار التبعية الفكرية والتربوية بغيرنا.

إن أول واجب اليوم لتصحيح المسار التعليمى لهذه الأمة أن نعمل على عودة دور المدرسة القرآنية لتسهم في بناء الشخصية المسلمة المتميزة.

فإن من أهم عوامل التصحيح للمسار التربوى أن تنزول- إلى غير رجعة- تلك الازدواجية التي فرضها علينا أتباع نظام تعليم جديد، دون العمل على تطوير وتنظيم ماعدنا من نظم تعليمية، وعلى رأسها المدرسة القرآنية التي عاشت الأمة في ظلها أربع عشر قرناً. وبها أدركت نضجها وحضارتها التي انفردت بها حيناً من الدهر. وأتى إليها الراغبون في العلوم والثقافة والتجديد من كل مكان.

فهل نشهد في كفاحنا التعليمى والتربوى جهود التصحيح لكل مسارات حياتنا؟ بحيث ينتهى أسلوب التغريب والتقليد والنقل غير الواعى، فتظفر المدرسة القرآنية بنظرة منصفة، تعيد لها دورها في بناء الشخصية المسلمة، وتعيد للشخصية المسلمة سماتها التي وسمها بها القرآن الكريم؟.

اقترح بعودة المدرسة القرآنية:

وقد قمت بجهد متواضع في هذا المجال، إذ رفعت إلى من بيدهم الأمر في كل من مصر والمملكة العربية السعودية اقتراحاً بعودة المدرسة القرآنية في ثوبها الجديد. هذا نصه:
"درج المسلمون منذ الصدر الأول على العناية بالقرآن الكريم منهجاً وحفظاً ومدارسةً وتطبيقاً. وقد بذلوا جهدهم كى يجعلوا صدورهم واعية له، كما جعلوا حياتهم تطبيقاً لأحكامه. وقد سجل القرآن هذه الظاهرة المشرفة فقال تعالى ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سورة العنكبوت آية ٤٩]. بل جعلها الحديث القدسى ظاهرة تتميز بها هذه الأمة. وقد روى أبو نعيم^(١) في "دلائل النبوة" عن أنس رضي الله عنه: "وجعلتُ صدور أمتك أناجيل، يقرؤون القرآن ظاهراً، ولم أعطها لأمة". وصدق الله العظيم، فإن التاريخ لم يعرف سجلاً لأمة ما مثل ما سُجِّل لهذه الأمة من عناية بكتابها ومن حرص عليه منذ نزوله.

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره عند شرح قوله تعالى: "ورفعنا لك ذكرك" طبعة الشعب.

ولقد شاء الله تعالى لهذه الأمة أن يكون هذا الكتاب هو النواة لكل ثقافتها وعلومها وحضارتها، به بدأت مدارج حياتها، ومنه أخذت أصول علومها، ومن خلاله شكلت نظامها التعليمي لأبنائها، وإليه اتجهت هم العلماء لتستخرج منه شريعة حياتها.

وبدافع من حرص المسلمين على كتابهم وشريعتهم، انتشرت في البلاد الإسلامية جميعاً تلك المدارس الصغيرة التي عنيت بالقرآن. وتميزت بأسلوبها التربوي عن كل ما عرف من أنواع المدارس، أثبتت على مدى أربعة عشر قرناً جدارتها وقدرتها على تخريج هذه الأجيال التي حفظت القرآن الكريم ووعته. وكان من بينها من حفظ علوم هذا الدين وثقافته. يستوى في ذلك الناطقون بالعربية وغيرهم. ولن تستطيع أن تظفر بمجاهد أو بداعية في البقاع الإسلامية إذا لم تكن له صلة بهذه المدارس في مطلع حياته.

هذه المدارس التي سُميت أحياناً بالكتاتيب، وأحياناً بالخلأوى، وأحياناً بالدوكسيات، وأحياناً بالمجالس القرآنية إلى غير ذلك.. تعنى شيئاً واحداً هو حرص المسلمين على أن ينشأ أبنائهم متعلمين على كتاب ربهم.

وقد أدرك أعداء هذه الأمة - وهم يخططون للقضاء عليها - أنهم لن يستطيعوا ذلك مادام هذا الكتاب باقياً بين أبنائها، ويعيش في صدورهم وحياتهم وألسنتهم، آيات موجّهة ناصحة، ولغة سليمة منضبطة. فكان من أخطر مآثرهم لتصرف الأمة عن كتابها أن خططت سياسة تعليمية ينتهي بها الأمر للقضاء على تلك المدارس القرآنية، لتخرج للأمة شباباً لا صلة لهم بقرآنهم، بل عاجزين أن يجدوا القدرة على مجرد تلاوته، وبهذا يسهل الطريق لظهور تلك الأجيال التي تجهل دينها، ومن اليسير أن تنقاد إلى حيث يريد أعداؤها.

وأمتنا اليوم تجد نفسها تواجه قضية مصيرية تتكون عناصرها من الأمور الآتية:

١ - نأت التربية والتعليم عن الروح الإسلامية والثقافية الأصيلة، مستعيضة عنها بأساليب التربية الأجنبية ومفاهيمها الحضارية والثقافية.

٢ - إعداد المعلم وفقاً للمفهوم الجديد وتقاصر دور المعلمين ذوى الثقافة الإسلامية الوثيقة بالقرآن.

٣ - تبني مفهوم أوروبا الجديد للعلوم التي كان قد وضع أصولها المسلمون، والسير في هذا الاتجاه مبتعدين عن النظرية الإسلامية الشاملة للكون والحياة، يستبدلونها بشتى النظريات المبنية على واقع أوروبا وتجاربها الذاتية التي مرت بها، من صراع بين الأحياء في الكون وبين الإنسان وسائر الكائنات والمخلوقات، وبين الإنسان ونفسه، أمماً وشعوباً، طبقاتٍ وأفراداً.

٤ - وحصاداً لهذا النهج ظهرت أجيال بعيدة تماماً عن القرآن الكريم، تلاوةً وحفظاً، فهماً ومدارسةً.. وأخيراً معاشةً وسلوكاً.

أصبحت قيادة الأمة بعيدة عن تاريخها ووجدانها. وفقدت ذاتيتها. فصارت تبعاً لغيرها. وقد أصبح لزاماً على كل مسلم غيور على دينه، مدرك لخطورة النتائج المترتبة على اختفاء المدرسة القرآنية من حياة المسلمين، أن يفكر في خطة نستعيد بها حياتنا التعليمية في هذه المدرسة، وترتبط بها مناهجنا التربوية، حتى يرتبط حاضر هذه الأمة بماضيها، وحتى نتدارك هذه الأجيال الجديدة قبل أن تسير في طريق الهاوية الذى سلكه غيرنا من الشعوب.

وقد يقول قائل: وما الذى يمنع من أن تأخذ المدرسة الحديثة طريقها، وتقوم بجوارها مدارس قرآنية تأخذ طريقها كذلك؟، ويعارض هذا الرأى:

١ - إن إقبال الناشئين لن يكون على المدرسة القرآنية بقدر ما يكون على المدرسة الحديثة، لما تضمنت المدرسة الحديثة من مستقبل مبشر عريض.

٢ - وحتى لو كان هناك إقبال كبير على المدرسة القرآنية، فنحن نحذر من ازدواجية التعليم، وما يترتب عليها من عواقب وخيمة في تركيب المجتمع.

٣ - هذا القدر المشترك في مراحل التعليم الأولى هو الحد الأدنى الذى به يعرض على كل مسلم دينه، ويكون المجتمع آثماً إذا حرمه من هذا الحق، تماماً كالخدمات الصحية والوقائية في المراحل الأولى من العمر، وأنها حق كل طفل على أهله، وواجب الدولة تأمين هذا ورعايته.

٤ - ليس معنى هذا هو القضاء على المدارس المتخصصة التى يتخرج فيها العلماء والقضاة، سواء بسواء مع المهندسين والأطباء. بشرط أن تكون خلفياتهم في الطفولة وفي المدارس العامة واحدة، مع نظرة تطبيقية لما يحتاجه كل تخصص في الراغبين للعمل فيه، ومساعدتهم في ذلك وفتح الطريق أمامهم مبكراً.

لذلك رأيت أن أتقدم بهذا التصور لعودة المدرسة القرآنية في صورة جديدة، تجعلها ترافق كل مدرسة حديثة، وتكون جزءاً من خطتها الزمنية. إما متقدمة عليها في اليوم الدراسى، وإما متوسطة ذلك اليوم، وإما لاحقة له حسب ما يراه المديرين لسياستها، وحسبما يوفر لتلك المدرسة النجاح في الأداء. المهم أن تقوم هذه المدرسة. وأن يلتحق بها التلاميذ، وأن تتاح عن طريقها الفرصة لأجيالنا الجديدة كى يعايشوا كتاب الله.

إن الدراسة في هذه المدرسة لا تخضع لنظام الدرس المعهود، ولاخطة المنهج المعروفة. وإنما تستلهم أهدافها ونظامها من المدرسة القرآنية التى عايشت الحياة الإسلامية أربعة عشر قرناً. تعطى عطاءها، وتفيض بخيراتها لتعطى الأمة الإسلامية شخصيتها المتميزة. هذا الأسلوب الذى أجمعت عليه جميع مدارس التربية الحديثة، ونتمنى أن يطبقه أستاذ كل مادة فى عمله.

وأبرز ملامح هذه المدرسة هو رعاية الفروق الفردية، وإتاحة الفرصة أمام كل تلميذ ليبرز ذاته، ويستثير طاقاته كما يشاء. أدعو الله أن يتيح لهذه المدرسة أن يرجع لها مجدها، وأن يلهم القائمين على أمور التربية والتعليم وعياً كاملاً بما.

* * *

وقد درس الموضوع الأخ الكريم المحقق الأستاذ عبد الرحمن الباني - الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود - فعلق بما يلي:
"وقد كان اقتراح عودة المدرسة القرآنية خطوة رائدة، ومنهجاً تلقاه المهتمون بتربية النشء على نهج الإسلام بقبول وارتياح واغتباط. ولاشك أن متابعة خدمة هذا المنهج واجب على من اتبع سنته الحميدة التي لها أجر العامل بها وأجر من اقتفى أثره على الدوام بإذن الله."

* * *

ومن هنا رؤى بعد النظر في أمر المدرسة القرآنية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وضع نظام شامل لها في بنود محددة واضحة مرتبة، ومتابعتها لا في مصر والسعودية فقط، ولكن في جميع أنحاء العالم.

فأى شيء أعظم من هذا القرآن؟ تلك المعجزة الكبرى الخالدة الباقية على مر العصور، يخاطب كل ذى عقل من بني آدم ويقيم الحجة الغالبة على كل مُعرض عنه.

فالمدرسة القرآنية، قرآنية في مضمونها، قرآنية في طريقتها ومنهجها. وكان هذا الكتاب الكريم أساس التعليم وعمود التربية فأعطى أفضل الثمرات. فكان النظام الذي قام لها، ورتب قواعدها يعطى أفضل النتائج في كل شؤون الحياة والحضارة عندما تم العمل به خلال القرون الماضية، فظلت المدرسة القرآنية كقاعدة للمنهج التعليمي والتربوي. فتخرج فيها العلماء في كل فن وعلم، وخلال هذه القرون منذ نشأت المدرسة القرآنية لم تجد عالماً من المسلمين إلا وقد بدأ حياته فيها وتخرج في مناهجها. ولكن لا تجد مذهباً أو اتجاهاً من الاتجاهات العلمية والفكرية إلا وكان أساس نجاحه وشيوع آثاره عن طريق هذه المدرسة. إلى أن ضعف المسلمون، وغلبوا على أمرهم، وفُرض عليهم نظام تربوي غير نظامهم، إما بقوة المستعمر، وإما بما أشربوا في قلوبهم. وراح المسلمون يغلِقون بأيديهم الكتاب، أو يقوضون نظامها، ويطعنون عليها أو على أنقاضها "المدرسة الحديثة"، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساؤها

* * *

فى مجال التطبيق:

وقد تأثر بهذا الاقتراح كثير ممن شغلوا بالقرآن الكرىم، كما شغلوا بحال المسلمين بعد أن قام النظام التعليمى على غير المنهج الإسلامى الذى أثمر حضارتهم ويمكن لهم فى الأرض. وممن عنى بذلك المفكر الإسلامى الدكتور توفيق الشاوى، الذى أشرف على عدد من المدارس الإسلامية فى البلاد العربية وغير العربية، واستطاع أن يجعل القرآن الكرىم أساساً فى مناهجها التعليمية. فآنت التجربة أعظم الثمار. ولقد حاول ولا يزال، أن يقنع الأزهر الشريف بافتتاح مدارس متخصصة بالنهج القرآنى وما يستتبع ذلك من مناهج عصرية.

وها نحن أولاء ننادى أمتنا - قبل فوات الأوان - أن تعود إلى كتاب ربها حتى يستقيم حالها كما قال عنها ربها: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس..﴾ [سورة آل عمران - آية ١١٠]

* * *

المبحث الخامس: سرعة انتشار الإسلام في العالم

انتشار الإسلام والقرآن وذيوعهما

انفراد الإسلام بسرعة انتشاره:

انفرد الإسلام عن سائر الأديان بسرعة انتشاره من اللحظات الأولى. فعندما نزل الوحي علي رسول الله ﷺ في غار حراء، وكان ما كان من الوحي، رجع إلى أهله يرجف فؤاده، وأخبر أهله وأصدقائه بما حدث له. فكان من سابق معرفتهم به، أن بادروا إلى تصديقه، وأعلنوا إسلامهم. وكانوا الدفعة الأولى في انتشار الإسلام، إذ أسلمت زوجته خديجة، وأسلم على بن أبي طالب، وورقة بن نوفل. كما أسلم أبو بكر الصديق، وقام بالدعوة مع النبي، فاستجاب له عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف. كما أسلم زيد بن حارثة - حب رسول الله. وكانت هذه الطائفة هي السابقة إلى الإسلام والقاعدة لانتشار الإسلام من بعد. وهذا ما يجعلنا نميز بين نبوة محمد ورسالته ﷺ وغيره من الأنبياء والرسول.

جهود الأنبياء في نشر دعواتهم ونتائجها:

فنوح عليه السلام وهو جد الأنبياء والرسول، قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة العنكبوت آية ١٤-١٥]، ثم قال عنه في سورة هود: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [آية ٤٠].

وأبو الأنبياء إبراهيم قال الله عنه مثنيًا عليه ومكرماً له: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النحل آية ١٢٠-١٢١]. أرسله الله بعقيدة التوحيد محطماً كل ما خالفها، يكسر أصنامها ويقاوم عبادتها. فهو ينادي قومه ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ. قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ. قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الأنبياء آية ٥٢-٥٨]. وبذلك أثار ثائرتهم وأشعل غضبهم فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء آية ٦٨].

وبهذا الجهاد القاسي الذي جعله يتصدى حتى لأبيه إذ قال ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿ [سورة مريم آية ٤٢-٤٣]. فما كان جواب أبيه إلا أن قال ﴿ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [سورة مريم آية ٤٦].

وبعد هذا النضال العنيف الذي أبرز فيه عقيدة التوحيد وخاصة في مظاهر الكون من نجم وقمر وشمس، ختمه بقوله ﴿ أَتَحْجُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [سورة الأنعام الآية ٨٠]. فماذا أثمر هذا الكفاح القاسي؟ لقد خرج إبراهيم من بلده. ولم يهاجر معه من قومه أحد إلا لوط الذي أصبح من بعد نبياً لسدوم^(١). أما إبراهيم فقال ربه عنه ﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [سورة العنكبوت آية ٢٦].

فهاجر إبراهيم واتجه شمالاً حتى بلغ ما وراء أرمينيا الآن. ثم عاد غرباً فاتجه إلى مصر، وكانت تحت حكم الهكسوس. والتقى بحاكمها فأهدى له جاريته. ورجع إلى فلسطين مع زوجه سارة وجاريته هاجر. ولم يتحدث التاريخ الديني عن أثر له في نشر دعوته إلا أنه أنجب إسماعيل، فغضبت زوجته سارة، فغادر فلسطين وذهب إلى أرض الحجاز حيث أمره الله أن يُسْكِنَ ذُرِّيَّتَهُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي لَا زَرْعَ فِيهَا وَلَا نَبْتَ. فأسكن ابنه إسماعيل مع أمه هاجر. وكان أعظم ثمرة منه محمد رسول الله ﷺ.

أما موسي فحدثنا التاريخ الديني أنه ذهب إلى فرعون. وكان قد أوحى إليه أنه رسول إلى بني إسرائيل. ولكن لم يحدثنا التاريخ أنه كان له أتباع مؤمنون به، بل إن بني إسرائيل الذين أرسل إليهم لم يؤمن به منهم إلا القليل. كما ذكر لنا القرآن ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ [سورة يونس آية ٨٣].

بل لما أنجاهم الله من فرعون وقومه، وأخرجهم من مصر، وذهب موسي إلى مواعدة ربه، انقلبوا على دعوته واتخذوا العجل إلهاً من دون الله. ومات موسي وهو يحرضهم على أن يدخلوا الأرض المقدسة ولكنهم قالوا ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذِرُكَ لَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ [سورة المائدة آية ٢٢]. وهكذا غادر موسي الحياة الدنيا بعد أن عاش بين قومه مغضباً عليهم. فمرة يقولون له اجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة. ومرة يتخذون من العجل الذهبي إلهاً.

وأما عيسى فلم يأت بدعوة جديدة، بل جاء يدعو من خلال دعوة موسي، ومن

(١) سدوم : بلد على البحر الميت شرق الأردن.

خلال قوم موسى "بني إسرائيل". فهو من أنبياء بني إسرائيل، وهو يدعو مصداقاً لما بين يديه من التوراة، وكما قال: "ما جئت لانقض الناموس ولكن جئت لأتممه". وبالرغم من أنه نبي بني إسرائيل فإنهم لم يؤمنوا به وناصبوه العداة. وأيدهم في ذلك الرومان حتى دبروا له مؤامرة ليصلب، ولكن الله نجاه. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ﴾ [سورة النساء آية ١٥٧]. وقد انتهت حياته علي الأرض بمؤامرة من اليهود قومه، ومن يهوذا الأسخريوطي - وكان أحد الحواريين المقربين لعيسى. وهكذا كانت نهاية دعوة عيسى النبي الكريم. لم يجد من الأتباع من ينصره أو يدفع عنه. وتعرض أتباعه من بعده لأقصى أنواع التعذيب. فمنهم من جعلوا مشاعل بشرية للاعبى الرياضة في روما أمام القيصر السفاح نيرون. وقد حدث مثل ذلك لأقباط مصر في القرن الثالث الميلادي الذي يسمونه عام الشهداء.

* * *

هذا ما حدث للرسل الكبار أولى العزم، ولأتباعهم من بعدهم. فلا نجد انتشاراً لدعوتهم في حياتهم بل معارضة من تابعيهم، دع عنك أعداءهم. ولكن محمداً المثل الكامل للدعوة والدعاة. كانت أنوار دعوته تنتشر من حوله، في كل اتجاه، كما رأينا.

تصدى قريش لمبادئ الإسلام، وصمود المسلمين:

إلا أن إيذاء المشركين لرسول الله وصحابته كان قاسياً شديداً. وكان يدور حول مبادئ قررها الإسلام وكرهتها قريش. ومن أهمها ثلاثة:

- ١- وحدة الإله.
 - ٢- البعث واليوم الآخر.
 - ٣- أن يكون النبي بشراً.
- وكان أشد هذه الثلاثة إنكاراً للبعث وبشرية النبي.

مفهوم الألوهية:

لم يكن مفهوم الألوهية غريباً عنهم. فلم ينكروا الله، وإنما جعلوا له شركاء من أصنامهم وأوثانهم. ولم يكن تمسك المشركين العقلاء بهذه الأوثان شديداً ولا قوياً، إذ كان لهم من تعقلهم وتفهمهم ما يجعلهم يتمسكون بها لمصالحهم الخاصة حتى ظهر منهم حنفاء ينكرون هذه الأوثان. ويقول قائلهم:

رب واحد أم ألف رب
ترك اللات والعزى جميعاً
أدين إذا تشعبت الأمور
كذلك يفعل الرجل البصير

وكان الكفار في مناسبات مختلفة يجيبون بالإيمان بالله، قال تعالى في سورة الزخرف ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [آية ٨٧]. وفي سورة الزمر ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴿ [آية ٣٨]. وفي الآيات الأولى من سورة الزخرف ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [آية ٩]. وإن سألت المشركين إذا كنتم تؤمنون بالله فلم هذه الأصنام، أجابوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [سورة الزمر آية ٣]. والحقيقة أنهم كانوا يخافون من ضياع سدانهم للبيت ومكانتهم وانهميار اقتصادهم، لو لم يكن للبيت الحرام منزلة إذا أسلموا.

قضية البعث واليوم الآخر:

وإنما الصراع الأكبر كان حول البعث واليوم الآخر. فقد أنكروا من أول الأمر أن يقوموا يوم القيامة، ويعاد بعثهم من جديد. قال تعالى عنهم ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل آية ٣٨] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سورة سبأ آية ٧-٨].

وأكد ذلك في سورة الكهف ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنَّا ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [آية ٢٨]. فرفض رسول الله طلب قريش وأجابهم بقول الله تعالى ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [سورة الكهف آية ٢٩]. وبذلك نصل في الأمر بانتصار الإسلام وانتصار مبادئه ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء آية ٨١]. وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [سورة يس آيات ٧٧-٧٨].

قضية بشرية الرسول:

أما إنكارهم لبشرية الرسول ﷺ فقد رد على ذلك القرآن الكريم في سورة الأنعام ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا جَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [آية ٨-٩].

الأسباب الحقيقية لتكذيب قريش ومعارضتها:

والحق أن أساس التكذيب والمعارضة لم يكن لهذه الأمور، فهذه المبادئ أنكروها الكفار من قبلهم وكان ذلك واضحاً في عقول قريش وإنما أساس ذلك كله أمران:

أ - الأول زعامة قريش وتعصبها لمجدها وخوفها أن تضيع مكائنها بين العرب. ولذلك كرر القرآن الكريم طمأننتهم بأن القرآن سيرفع شأنهم، ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [سورة الزخرف آية ٤٤]. ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء آية ١٠].

ب - والأمر الثاني دعوة الإسلام إلى التساوي بين الخلق وأنهم جميعاً متساوون أمام الله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [سورة الحجرات آية ١٣]. وقول النبي ﷺ "إن الرب واحد والدين واحد كلكم لآدم وآدم من تراب. فالناس سواسية كأسنان المشط والأبيض كالأسود سواء. العربي والعجمي سواء." (١) وقد كان هذا المبدأ مفرعاً لقريش وصولحائها. فجاءوا إلى رسول الله يطلبون منه أن يجعل للخاصة يوماً وللفقراء والأرقاء يوماً آخر. ولكن الرسول لم يسارع بالرد. فأنزل الله رده ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام آية ٥٢].

ومن نتائج هذا أن:

١ - اشتد أذى المشركين لرسول الله. فرأى حمزة ﷺ عم رسول الله أبا جهل، وقد تمادى في أذاه لرسول الله فهاله الأمر، ودافع عن رسول الله بإعلان إسلامه. ورأى بعض أهل مكة ذلك فتنادوا بإسلامهم. وكان لذلك شأن عظيم ولاسيما عندما أسلم في ذلك الوقت عمر بن الخطاب ﷺ.

٢ - وكان لذلك أثره في انتشار الدعوة. إذ كان المسلمون لا يجروون على أن يقرءوا القرآن أو أن يصلوا في المسجد الحرام. فأصر عمر ومعه حمزة أن يصلي المسلمون جهرة مجتمعين معاً في المسجد الحرام. وكانت هذه المبادرة بالغة الذبوع والانتشار للدعوة والقرآن الكريم. بعد الانتشار الذي حدث عند نزول الوحي والذي حدث بإسلام حمزة ﷺ.

٣ - ثم واصل المشركون أذاهم للمسلمين. وبخاصة للضعفاء منهم مثل بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، ووالده ياسر وأمه سمية. وتولى أثرياء المسلمين الدفاع عنهم يعينون ويساعدون. ولكن الكفار كانوا لا يهدءون. فأذن الله ورسوله أن يُفتح باب جديد لنشر الإسلام بالهجرة إلى الحبشة. وهناك عرض المسلمون إسلامهم وأعلنوا الدعوة الصادقة إلى

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية، وخطبة النبي ﷺ في حجة الوداع. والترمذي: ٣٢٧٠ نحوه.

دينهم. وخطب جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي قارئاً في خطبته أول سورة مريم التي تتحدث عن زكريا ويحيى والسيدة مريم. وعن سيدنا عيسى. وكلامه في المهدي، فأعجب النجاشي وسر بما سمع. وقال قولته المشهورة "هذا الكلام وما جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة".

وأسلم النجاشي وأسلم من أسلم من الحبشة. وكان هذا أول اتصال للقارة الأفريقية التي كانت من خير بقاع الأرض استقبالاً للإسلام منذ ظهوره إلى اليوم. والتي أوشكت بانتشار الإسلام أن تصبح قارة إسلامية خالصة لولا بعض العوائق الجديدة التي زرعتها الاستعمار.

٤- ونحن ما زلنا نتحدث عن انتشار الإسلام في مكة مع المعوقات التي اصطنعها الكفر وأعدائه التي اشتدت حتى تحولت إلى حصار واعتقال واضطهاد التقت عليه بطون قريش كلها بحصار آل الرسول في شعب من شعاب مكة.

بداية الاتصال بالأوس والخزرج:

وفي هذا الجو الخانق والظلام الدامس، جاء إلى مكة وفد من يثرب من بني عبد الأشهل يريدون حلفاً مع قريش على أعدائهم الخزرج، فأتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام.

فكان منهم إياس بن معاذ. فقال لقومه: يا قوم هذا والله خير مما جئنا له. فلم يطعه قومه. ولكن رسول الله لقي عند العقبة عند منى ستة كلهم من الخزرج، دعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن الكريم. فقال بعضهم إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه فاستجابوا لله ورسوله وآمنوا وصدقوا^(١). فكانوا أصحاب العقبة الأولى.

وبهذا فتح الله باباً لانتشار القرآن والإسلام خارج مكة. فقد توالى لقاءات رسول الله مع أهل المدينة في العقبة الثانية. إذ جاء إلى مكة اثنا عشر من المدينة منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فأسلموا جميعاً. ثم أسلم كثير من أهل المدينة ولاسيما بعد أن هاجر إلى المدينة الصحابي الجليل مصعب بن عمير ومعه عبد الله بن أم مكتوم، يعلمان من أسلم القرآن والإسلام.^(٢)

قال علماء السير ولم يزل مصعب بن عمير يدعو إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها عدد من المسلمين. وكان من أظهر مواقف نجاحه ﷺ أنه دعا سعد

(١) راجع "إمتاع الاستماع للمقريزي" ص ٣٢ وما بعدها، تحقيق محمود محمد شاكر.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤.

بن معاذ وكذلك أسيد بن خضير، وهما زعيما بني عبد الأشهل.^(١) دعاهما إلى الإسلام فهداهما الله فأسلما. ودعوا قومهما إلى الله فما أمسى في دور بني الأشهل رجل ولا امرأة إلا وقد أسلموا.

٥- والمدينة التي انتشر فيها الإسلام حتي دخل كل بيت، أصبحت مستعدة لأن تكون مكاناً آمناً ومهجراً صالحاً لرسول الله، يجد فيها الجند المجاهد والصحب المستعد لحمل راية الجهاد والكفاح. كما غدت مأوى للمسلمين المهاجرين التاركين لديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله. وكان ذلك إعداداً إلهياً لنصرة دينه، وعباده المؤمنين.

الهجرة إلى المدينة المنورة:

فأذن للصحابة بالهجرة. كما أذن لنبيه. فتبّت رسول الله قواعد الدين. وجمع المسلمين لأول مرة تحت راية الوجدانية للخالق. والناس عند ذلك سواسية كأسنان المشط:

الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء

٦- وكانت المدينة بموقعها البعيد عن سلطان مكة مكاناً صالحاً لانتشار الإسلام، وذيوع مبادئه مما هيأ الفرصة لقدم الناس أفواجاً إيماناً بالدين الجديد. كما هيأ الفرصة لاتصال الدولة الجديدة بالدول البعيدة والقبائل العربية النائية.

٧- ثم بُعث رسولٌ من عند رسول الله إلى قيصر الروم هرقل فردّه ردأً طيباً. فقد أخذ الكتاب واهتم به واعترف بالنبوة. ولكنه خاف من قومه فأمسك^(٢). وأرسل النبي إلى كسرى رسولاً يحمل إليه الدعوة إلى الإسلام. ولكنه ردأً قبيحاً ومزق كتاب رسول الله. فدعا عليهم أن يمزقوا كل ممزق. فصدّق الله ذلك الدعاء فتمزق ملكه. وأرسل النبي إلى النجاشي كذلك كتاباً مع عمرو بن أمية الضمري.

وأرسل إلى المقوقس - والى مصر من قبل الروم - فأحسن لقاء الكتاب وقبّله وأرسل إلى رسول الله أربع جوارى، منهن مارية. وقد كان رسول الله إليه هو حاطب بن أبي بلتعة.

كما أرسل كثيراً من الرسائل إلى القبائل البعيدة يدعوهم إلى الإسلام جاء بعضهم إلى رسول الله وعرض إسلامه.

(١) المصدر السابق.

(٢) يرجع في ذلك إلي ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان في حوارهِ مع هرقل ملك الروم - في البخاري الجزء الأول طبعة الشعب.

وأرسل إلى عوذة بن علي. فرد عوذة إلى رسول الله يطلب منه أن يرسل إليه أفراداً بعدد أفراد الوفد الذي أرسله لرسول الله. وإلا حاربه وصدّه. فقال رسول الله: "اللهم أكفينه". فمات بعد قليل.

نتائج صلح الحديبية:

وحدثت غزوة الحديبية وانعقد صلحها. الذي أضحى مثلاً طيباً في الحكمة السياسية التي اتصف بها رسول الله ﷺ. فقد كان من شأنها أن مشركي مكة وأعوانهم في الجزيرة العربية، قد أوقفوا القتال مع المسلمين، واعترفوا بهم كوجود سياسي مستقل له احترامه. وذاع أمر الصلح وأخذت الوفود تتوالى إما مؤمنة ومصدقة، وإما طالبة العون والنصر. وأقبلت من بواقي الجزيرة ومدنها ومعهم شعراؤهم وخطباؤهم. مثل وفد بني تميم وخطيبهم يتحدث عن أمجادهم، وهو عطار بن قيس. فرد عليه الصحابي الجليل ثابت بن قيس. فطلبوا أن يخطب أميرهم الزبير بن قيس. فألقى قصيدة، فرد عليه حسان بن ثابت بقصيدته الرائعة، يذكر فيها دينه ودعوته ويمدح رسول الله وآله ومنها:

إن الذوائب من فھر وشيعتهم قد بينوا سنناً للناس تتبع
يرضي بها كل من كانت سريرته تقوى الإله والأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا^(١)

فقال بنو تميم: خطيبهم أبلغ من خطيبنا، وشاعرهم أفصح من شاعرنا، فأسلموا ورجعوا إلي قبائلهم. فكانت بنو تميم من أكثر القبائل عدداً وعدة. وأسلموا جميعاً.

وتتابعت الوفود من الجنوب كوفود اليمن، ومن شرقها كوفود عبد القيس والبحرين الذين من بركتهم أن رسول الله ﷺ رآته أم سلمة أم المؤمنين يصلى بعد العصر. فقالت يارسول الله أراك تصلى صلاة ما رأيتك تصليها من قبل؟ فقال ﷺ: "يا بنت أبي أمية.. إنه أتاني ناس من عبد قيس.. فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر فهما هاتان"^(٢) ومن هذا أخذ الشافعي بجواز الصلاة بعد صلاة العصر إذا كان لها سبب.

وتتابعت كذلك السرايا يقودها كبار الصحابة حتى أصبح يُؤذن بأذان الإسلام في معظم الجزيرة.

ومن أجمل آثار ذلك، انتشار القرآن عن طريق الركبان التي كانت تسير وهي تتلو

(١) يرجع في ذلك الي كتاب "إمتاع الأسماع" للمقريزي.

(٢) الحديث روى بألفاظ مختلفة، وهذا لفظ حديث مسلم: مسافرين: ٨٣٤ ورواه البخاري وداود نحوه، وأم سلمة اسمها هند وهي بنت أبي أمية من مخزوم.

القرآن مشرقة أو مغربة. وهو أمر كان جديداً في حياتهم إذ أنهم كانوا في جاهليتهم يسمعون من الركبان حذاء الإبل فيطربون له حتى أن إبلهم كانت تستجيب له في سيرها. ولكن ما كانوا يسمعون من الركبان قرآناً، وانتشر هذا اللون من الفن، فيتلقاه الأطفال والصبية بتقليده وحفظه. كما يتعلم الصبية في أيامنا هذه الأغاني من الإذاعات فيتغنون بها. حدث هذا عندما انتشر القرآن في المساحات الواسعة.

انتشار الإسلام في الجزيرة العربية:

ومن انتشار الإسلام جنوباً بعد مجيء وفود بنى حمير، وذهاب الصحابين الجليلين علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل إلى اليمن، أصبح الجنوب الغربي للجزيرة العربية، من اليمن إلى حضرموت بلاداً إسلامية. وبوصول عمرو بن العاص إلى عُمان بعد مجيء وفدها إلى رسول الله ﷺ سنة ٨ هـ، وأخذ ذكوات هذه البلاد، أصبح الجنوب الشرقي من الجزيرة ينتشر فيه الإسلام في كل أصقاعه. وما حدث بعد غزوة تبوك، ومصالحة القبائل التي حولها، ومجىء وفد أيلة ودومة الجندل، واستسلام "أكيدر" أمير دومة الجندل، أصبح الشمال الغربي من الجزيرة حتى حدود الشام بلاداً إسلامية ينتشر فيها الإسلام طواعية.

وبعد مجيء وفود بنى تميم وعبد القيس والبحرين أصبح شرق الجزيرة حتى الخليج الفارسي أرضاً إسلامية يمكن أن ينتشر منها الإسلام إلى أرض فارس وبلاد الهند.

انتشار الإسلام خارج الجزيرة:

وبعد انتصار العرب في معركة ذي قار، وظهور المجاهد المثنى بن حارثة الشيباني، وكفاحه ضد المجوس والفرس المرتدين في البحرين وجنوب العراق الفارسي، وبخاصة عندما أغار علي إحدى مدن الفرس القديمة، واستطاع أن يدخل هذه المدينة بعد أن انتصر، ومهد بذلك لمجىء خالد بن الوليد الذي فتح العراق قبل أن يذهب إلى الشام.

وبهذا النصر المبين من المثنى بن حارثة الشيباني وخالد بن الوليد، أصبح شمال الجزيرة الشرقي مسلماً. بل تم انتشار الإسلام في الجزيرة كلها وأخذ سيره - الذي لا يتوقف على غزو وحرب - وإنما هو إسلام ممتد ومنتشر بطبيعته، وقد أصبح الإسلام ينتشر معتمداً على أصول دعوته وعلى قرآنه. فالقبائل التي تسكن سواحل الخليج الفارسي لها اتصال تجارى بغرب آسيا وشمالها. ومن جهاد هذه القبائل - ولا سيما تجارها - بدأ الإسلام ينتشر في بلاد الهند عن طريق التجارة، وبدأ الاتصال بأهل ساحل الملابار. وقد ثبت تاريخياً أن بعض العرب المسلمين التجار نشروا الإسلام في ساحل الملابار في عهد النبي ﷺ. وقبل وفاته.

نقل الأستاذ محمد حبيب أحمد - أستاذ التاريخ بالجامعة الأزهرية- في كتابه عن الهند وباكستان، نقلاً عن "صاحب تحفة المجاهدين"، يحدثنا أن راجا مالابار أمير ساحل المالابار^(١) لما بلغه خبر الإسلام، أرسل وفداً إلى بلاد العرب، للتعرف على الدعوة الجديدة والتقرير عنها، ولما وصل الوفد إلى المدينة كان الرسول ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى، وشرف بلقاء الخليفة أبي بكر الصديق، وتبادل معه الحديث والرأى، حتى اقتنع الوفد بالإسلام، فاعتنقه وعاد إلى مالابار داعياً له فاتسع انتشار المسلمين المؤمنين في بلاد الهند حتى شملت كثيراً من بلادها. وأصبح المسلمون أصحاب قوة ومنعة حتى قبل أن يجيء الفتح الإسلامي علي يد محمد بن القاسم الثقفي عام ٩٠ هـ.

وبانتشار الإسلام في شمال الجزيرة وفي العراق وفارس، كانت هناك فتوحات وغزوات لم تكن هي السبيل إلى نشر الإسلام. فالإسلام بطبيعته - كما يقول بعض علماء المسلمين - أنه دين ممتد بذاته، ومنتشر بطبيعته القائمة على قوة العقيدة واستقامة المنهج حتى قال الأستاذ الدكتور حسين مؤنس في كتابه "الإسلام الفاتح": "إن الإسلام دين طيار وسيلته للانتشار طبيعته الذاتية، فقد تضمنت عقيدته وشريعته من الفضائل ما يجعل الناس يحرصون أشد الحرص على أن يدخلوا فيه".

"وبفتح الطريق في شمال العراق، وصل انتشار الإسلام إلى جنوب أوروبا في القوقاز و ما حولها. ووصل المسلمون إلى أرمينيا وأذربيجان في خلافة عثمان بن عفان عام ٢٨ هـ. ثم تتابع الانتشار حتى عبر بحر قزوين إلى بلاد آسيا الوسطى من بلاد التركمان وأزبكستان وطاجاكستان والقرغيز و بلاد تركستان الشرقية. و دخل بلاد الصين بلا قتال حتى أصبح بها أكثر من ٦٠ مليون مسلم"^(٢).

أما الهند-وقد قلنا إن الإسلام دخلها منذ عهد النبي- ومازال ينتشر فيها حتى بعد فتوحات ابن القاسم وغيره. فانتشاره في الهند لم يكن بسبب الفتوحات العسكرية بل لعل الأستاذ مسعود الندوى- من أساتذة دار ندوة العلماء بلكنو بالهند- كان علي حق فيما قاله من أن الإسلام في الهند لم يكن محتاجاً إلى قوات عسكرية، ولا إلى حكومات ظالمة - بل لعل هذه الغزوات عطلت سيره لاختلافها عن طبيعته السمحة والبعيدة عن العنف.

وسار الإسلام من الهند حيث واصل زحفه السلمى إلى بورما وتايلاند وقطاني (بين تايلاند وماليزيا). ثم اتجه إلى ماليزيا، ومنها عبر إلى جزر أندونيسيا مسالماً حتى انتشر في كل

(١) ساحل المالابار هو الساحل الغربي للهند والمواجه للمحيط الهندي وبحر العرب.

(٢) كتاب "الإسلام الفاتح" ص ١٧. د. مؤنس سلسلة دعوة الحق الشهرية. مارس ١٩٨٠.

جزر الهند الأندونيسية، ومنها إلى جزر الفلبين ومنها إلى جزر المحيط الهادى. ومن الصين ذهب إلى جزر الهند الصينية (ما يعرف اليوم بلاوس) وفيتنام وكمبوديا. حتى لم يبق بلد من بلاد الله إلا وبها إسلام ومسلمون وحتى غدت الأرض كلها مسجداً يُذكر فيه اسم الله وتعلو من مآذنه دعوة الله. وذلك كما قال النبي ﷺ "وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأينما أدركتك الصلاة فصل" (١). وفي الحديث القدسي "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغارها وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لي منها" (٢). [أي طوي] ومن هنا ندرك أن الأرض بانتشار الإسلام فيها - أصبحت مسجداً يُعبد فيه الله. وصوت النداء يتردد طوال الأربع والعشرين ساعة لا ينقضى في مكان إلا ويعلو في مكان آخر حسب قواعد خطوط الطول في الأرض.

ولله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم فسبحان الله رب العالمين.

انتشار الإسلام في أفريقيا

قلنا إنه على عهد الصحابة والتابعين لم يفتح المسلمون من أفريقيا إلا مصر وشمال السودان والشريط الساحلي الشمالي. ومنه ذهبوا إلى الأندلس وجنوب فرنسا. لكن الإسلام اليوم يعم غرب إفريقيا ووسطها وشرقها. وهو لم يتوقف عن الانتشار في إفريقيا إلا عندما سيطر الاستعمار وتلامذة التبشير بعد عام ١٩٦٠ بسطة بابوية، والمجلس العالمي لاتحاد الكنائس. وكان الجهاد قد توقف في وسط العالم الإسلامي شرقه وغربه. بينما كان مسلمو إفريقية يمثلون دولة واسعة الأطراف في وسط إفريقية وغربها، قاعدتها شمال نيجيريا اليوم، ويقودها المجاهد عثمان دان فديو أمير المؤمنين وأبناءؤه. وهو زعيم قبائل الهوسا. واتسع الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ووسطها بزعامة مجاهدين عرفوا بسلامة المنهج وقوة الإيمان. مثل الشيخ عمر الفولاني، والشيخ ساموري في غينيا والبلاد التي حولها. وقاتلا الفرنسيين والإنجليز حتى هُزما. وظهر في الكاميرون "مؤدب"، فاتفق على الجهاد مع الإمام عثمان دان فديو، وظهر في جماعات الفولاني حمادي الشيخ أو حمادي باري.

لم يكن ذلك قديماً، وإنما كان الجهاد في غرب إفريقيا ووسطها في القرن الثامن عشر. ولا سيما في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وظل كذلك حتى القرن التاسع عشر. وحتى جاءت قوى الاستعمار الإنجليزي والفرنسي، ومعهما من ساعدوهم من المبشرين.

(١) صحيح مسلم. سبق تحريجه.

(٢) صحيح مسلم: الفتن: ٢٨٨٩، والترمذى: ٢١٧٦، وأحمد: ٢٢٢٩٤ صحيح.

ففضوا على الدولة الفولانية الواسعة الانتشار في نيجيريا والكاميرون ومملكة تشاد وإفريقيا الوسطى.

وقضى الفرنسيون على دول إسلامية أخرى كثيرة، كان يشملها هذا الجهاد المؤمن بدعوة الإسلام تحت ظلال القرآن، وما جاء به من عالمية الدعوة، وأن الإسلام دين ليس لقوم معينين.^(١)

فما كان لهؤلاء المجاهدين إلا أن يتحملوا عنت هذا الجهاد إيماناً منهم بصدق دعوتهم وما تطالب به من شمول الإسلام وعالميته. ولقد ظل الإسلام يمتد من شمال إفريقيا إلى وسطها وغربها، حتى شمل كل دول المغرب الإفريقي والوسط والساحل الشرقي منها.

* * *

دور الاستعمار لوقف زحف الإسلام:

وعندما أراد الاستعمار أن يرحل عن إفريقية - شكلاً، وكان الإسلام لا يزال يمتد، أعطى المستعمر قيادة دول إفريقية إلى تلامذة المبشرين من أبناء هذه الدول، أمثال ليوبولد سنجور - رئيس دولة السنغال. وكانت السنغال الساحلية قد أقامت وحدة مع جمهورية مالي تحت حكم ليوبولد سنجور. وبسرعة انفصلت الوحدة بين السنغال ومالي. ومثل ذلك حدث في مناطق كثيرة مثل تنجانيقا، وأكثر من نصف سكانها مسلمون. فتولى رئاستها تلميذ المبشرين يوليوس نيريري. فكان أهم ما فعل أن عدا على جزيرة زنجبار المسلمة في المحيط الهندي. فتحوّلت تنجانيقا إلى دولة تنزانيا الآن، ومثلها أوغندا، وكان نصف سكانها مسلمين. فولى الاستعمار الإنجليزي عليها أحد تلاميذه المبشرين هو ملتون أوبوتي فكان أهم أعماله أن ساعد الجنوبيين في السودان على الشقاق والقتال مع شمال السودان.

وأبرز ما حدث في نيجيريا - وهي أكبر بلد في إفريقيا - وقد كانت موطن الجهاد الإسلامي على أيام المجاهد الكبير أمير المؤمنين عثمان دان فيديو، وأصحابه من مجاهدي قبائل الفولاني الهوسا، الذين كان لهم أكبر الأثر في انتشار الإسلام في غرب إفريقيا حتى شمل كل دول إفريقيا الوسطى غير الساحلية، والدول التي تقع على خليج غانا. وامتد الإسلام إليها حتى اقترب المسلمون من خليج غانا، فبقى شمال هذه الدول مسلماً وجنوباً وثنياً أو مسيحياً بسبب نشاط التبشير.

وعندما أراد الإنجليز أن ينسحبوا كان أكثر من ٧٥ بالمائة من نيجيريا مسلماً

(١) يراجع كتاب "الإسلام الفاتح". د. مؤنس. ص ١٣٧-١٤٩.

فاختار الشعب النيجيرى قيادة مسلمة، وهى قيادة الحاج أبو بكر تفاوى بليوة والزعيم الحاج أحمد بالو. ولكن لم تلبث عوامل الاستعمار والتبشير أن قامت بهجمة على الحاج تفاوى وأحمد بالو. وتولى أمر الحكم فى نيجريا صنائع الاستعمار والتبشير. ولا يزال الجهاد الإسلامى فى نيجيريا مستمراً حيث جاهد الشماليون من قبائل الفولانى الهاوسا لتطبيق الشريعة الإسلامية.

ومما لا شك فيه أن سيطرة أعوان الاستعمار و تلامذة التبشير، قد عطل انتشار الدين الإسلامى، بل ساعد التبشير على العمل على إثارة النزعات الدينية و العرقية. كما نشاهد اليوم فى جنوب السودان وأوغندا وليبيا والكنغو وكنشاسا وأورندى وبورندى وغيرها. مما شغل المسلمين بالدفاع عن حقوقهم و دينهم. فتوقف زحفهم وحدث الكثير من النزاع وانتشر الفقر والجهل. وتفاقم العمل التبشيرى.

وهذا الانتشار الهائل للدين الإسلامى منذ وقت فتوحات الصحابة والتابعين التى لم تشمل - كما قلنا - إلا الشريط الشمالى من أفريقيا. اتسع حتى أصبح اليوم يوشك أن يجعل أفريقيا فى شمالها ووسطها وغربها وشرقها أفريقية المسلمة، لولا ما يقوم به التبشير من جهود ضخمة بمعونة الاستعمار. وستحدث عن ذلك فيما بعد.

* * *

انتشار الإسلام فى آسيا

كذلك لم يصل الفتح على عهد رسول الله ﷺ و أصحابه والتابعين إلى كل آسيا كما حدث فيما بعد. فقد حدث الانتشار السلمى فى أواخر حياة رسول الله وفى حياة الخلفاء الراشدين على يد التجار العرب الذين كانت لهم علاقات تجارية قوية بالهند قبل الإسلام. وخصوصاً مع سكان الساحل الغربى للهند المواجه لبحر العرب. كالملابار فى هذه البلاد. ولكن الإسلام لم يتوغل فى داخل الهند. ومما يدل على دخول الإسلام الهند قبل الفتوحات التى بدأت حوالى سنة ٩٠ هـ أن الحجاج - وكان والياً على العراق زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك - كان قد بلغه أن سفينة بها نساء مسلمات اختطفها قراصنة هنود. فأرسل الحجاج إلى ملك السند يطلب منه إنقاذ النساء المسلمات فاعتذر ملك السند و أكد أن الذين اختطفوا النسوة لصوص ولا قدرة له على إرجاعهن^(١). فأمر الحجاج ابن أخيه

(١) وقد بلغ الحجاج أن إحدى المسلمات صاحت "وا يا حجاج" فأجابها "لييك يا أختاه"، "كتاب بين الهند وباكستان" ص ٣٠ المصدر السابق نقلاً عن كتاب الفتوحات للبلاذرى.

محمد بن القاسم الثقفى أن يفتح السند. وهى مقاطعة فى غرب الهند و ما يعرف اليوم بباكستان الغربية.

وأعيدت إليه السفينة التى اختطفت بمعونة رجال مسلمين من الديبل، مما يدل على أن الإسلام دخل الهند قبل عصر الفتوحات، ويدل كذلك على أن انتشار الإسلام لم يكن غزواً و حرباً. وإنما كان انتشاراً سلمياً، كما رأينا فى انتشاره فى إفريقيا. وكما نراه فى انتشاره فى آسيا بسبب سمو دعوته و عالمية مبادئه التى تخاطب الإنسان فى فطرته وفى علاقته بربه وفى قلبه و حركته فى الحياة.

بدأت الفتوحات الإسلامية فى آسيا من أواخر حياة رسول الله ﷺ فى لقاء الروم فى مؤتة. ثم فى غزوة تبوك بقيادة رسول الله ﷺ الذى جهز جيشاً كبيراً ليلتقى بالروم بعد أن ردوا جيش مؤتة و استشهد قواده الثلاثة. فسار فى جهاد سلمى حتى بلغ المدينة التى تسمى اليوم أيله و غيرها. وفى جنوب العراق التى كانت تحت الفرس، التقى المجاهد المسلم "المثنى بن حارثة الشيبانى". و كان العرب فى هذه المنطقة قد انتصروا على الفرس فى موقعه "ذى قار"، فاستبشر المسلمون واعتبروا ذلك بشرى ربانية لهم بسبب بعثة رسول الله. فقد كانت هذه المعركة أول معركة انتصر فيها العرب على الفرس.

وجاء عصر الخلافة الراشدة ففتح المسلمون العراق و فارس فى عهد عمر بن الخطاب ؓ. كما تم فتح مصر فى عهده.

وتوالى الفتوحات فى أيام عثمان بن عفان ؓ. فسارت فتوحات المسلمين لا يكره الناس أن يدخلوا فى الإسلام. وإنما لكى يزيحوا الطواغيت عن قلوب الناس و عقولهم بكلمة الله فى قرآنه، وكلمة نبيه فى سنته. و ليروا هداية الله لخلقهم، وعدل الله فى حكمه، وعلمية الدعوة فى قرآنه.

واصلت الفتوحات مسيرتها فى آسيا، فدخل المسلمون هداة مرشدين فى آسيا الوسطى من بلاد ما حول النهرين (سيحون و جيحون) مما يسمى اليوم بلاد القرغيز و أوزبكستان و التركمان و طاجكستان و تركستان و خراسان و أفغانستان. ومن هذه البلاد ظهر علماء عباقرة شاركوا فى صنع حضارة الإسلام فى العلوم المختلفة، مثل شيوخ الحديث الكبار كالبخارى و مسلم و الحاكم النيسبورى. و أساتذة الطب و العلوم المختلفة مثل ابن سينا و البيرونى و الكثير غيرهم.

وواصل المسلمون سيرهم، ووصلوا إلى حدود الصين، واقتربوا من سواحل المحيط الهادى. وهم فى كل ذلك دعاة خير، ورسل هدى. ويدل على ذلك حادثة القائد المعروف قتيبة بن مسلم عندما أراد فتح مدينة قرب سمرقند فغزاهم على غرة دون أن يعلمهم. فشكوه

إلى الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز. فأرسل إليه يأمره أن يخرج من المدينة إلى الموقع الذى كان ينبغى أن يرسل الإنذار إليهم منه، فخرج قتيبة من المدينة، وأندرهم فجاءوا جميعاً راضين مسلمين. إذ لم يجدوا مثلاً لهذا فى ما عرفوا من الحروب عند الناس.

هذا ما كان من فتوح الصحابة و التابعين خلال القرن الأول فى آسيا. فكيف ذهب الإسلام بعالميته إلى بقية الهند. وقد رأينا أن فتح الهند لم يكن إلا جزءاً من أقاليم غرب الهند الشمالية. أو هو جزء من باكستان نفسها. وكيف وصل الإسلام إلى بورما وتاييلاند وماليزيا؟ وكيف قفز إلى سومطرة ثم إلى آلاف الجزر الأندونيسية. وكيف وصل إلى الفلبين وكان سكانها مسلمين، يعيشون فى الجزر الهندية الشرقية مثل أهل أندونيسيا. فجاء الاستعمار والصليبية فاحتلها وهى بعيدة عن موطن التجمع الإسلامى. وسميت باسم الملك الصليبي فيليب الثانى الذى كان ملكاً لأسبانيا. وهو حفيد فرديناند وإيزابيلا (الذين أخرجوا المسلمين من الأندلس سنة ١٤٩٢م. واجتهدا فى القضاء على من بقى من المسلمين فى الأندلس الذين كانوا يسمون بالمحمديين عندما كانوا بالأندلس. وعندما خرجوا سُموا بالمورسك ثم أطلق عليهم اسم المورو، ومازال يطاردهم ومن جاء بعده). ومنذ فتح الأسبان الفلبين لم تتوقف جهود المسلمين فى الجهاد. بعد طردهم من شمال الفلبين حيث تجمعوا فى الجزر الجنوبية، وبخاصة فى جزيرة مندناو وسولو وغيرها وسموا باسم المورو. - وهو الاسم الذى أطلقه الأسبان على العرب الذين أُخرجوا من الأندلس، - ولايزالون يسمون به، ولا تزال حركة المورو مجاهدة حتى اليوم. فكيف تم ذلك و لم تكن هناك من المسلمين فتوحات ولا غزوات؟

لا نستطيع أن ننكر أن انتشار الإسلام السريع فى هذه المناطق الواسعة لم يكن إلا بالدعوة الناصحة الراشدة النابعة من إيمانهم.

وحسبما تكرر ذكره فى القرآن الكريم من أن هذا الكتاب يدعو إلى عالمية البشر وأن هذا الدين ليس دين جنس واحد ولا منطقة واحدة ولا دين اختص الله تعالى به شعباً واحداً. كما يزعم أصحاب "شعب الله المختار". وهذه الأسماء التى يتسمى بها الناس ما أنزل الله بها من سلطان. كما فعل أتباع الأديان السابقة. إذ يسمى الصينيون دينهم بدين "كونفوشيوس". والبوذيون سمو دينهم بدين "بوذا". واليهود سمو دينهم بدين "يهودا" أو "إسرائيل". وإسرائيل ليس إلا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. والمسيحيون سمو دينهم باسم المسيحية نسبة إلى المسيح. أو النصرى. والنصارى تحريف لبلد عيسى عليه السلام وهى الناصرة فى شمال فلسطين.

أما المسلمون فقد سمو دينهم بالاسم الذى سمى الله تعالى به كل الأديان. ﴿ إِنَّ

الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿ [سورة آل عمران آية ١٩] . وبهذا قضى الله تبارك وتعالى بأنه ليس له دين في الأرض غير الإسلام، ونحن إذا قلنا إن دين الأنبياء جميعاً هو الإسلام. لم نكن مجافين للحقيقة. فالأديان جميعاً متفقة في أصولها العقديّة بصورة عامّة. ولكنها مختلفة في فروعها و أهدافها الاجتماعيّة والتربويّة. إننا نؤمن بأن الأديان التي أنزلها الله لعباده هي الإسلام بالمعنى اللغوي لكلمة (إسلام).

أما عن وحدة الأديان و كونها جميعاً "إسلاماً" مع اختلاف فروعها. فيقول رسول الله ﷺ "الأنبياء إخوة من علات، وأمها تم شتى ودينهم واحد".^(١) ومعنى قوله: أننا مع وحدة الدين، شرائعنا مختلفة. فأبناء العلات أمهاتهم متعددة والأب واحد. وكذلك الأنبياء، الدين واحد والشرائع والأزمان مختلفة.

وفي الحديث الذي رواه كتب السنة عن رسول الله ﷺ "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيتاً ولا مدرّاً ولا براً إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل".^(٢)

انتشار الإسلام في أوروبا

عرف المسلمون أوروبا الشرقية عن طريق دولة الروم الشرقية منذ العهد النبوي. وكانت غزوة مؤتة - كما قال علماء السيرة - بأن الروم كان جيشهم عدته مائتا ألف. انتصروا على الفرس في المعركة التي أخبر الله المسلمين بأن الروم سينتصرون في بضعة سنين. وكان هذا الجيش الرومي عائداً من المعركة، فخشى المسلمون أمره، فبادر رسول الله ﷺ بإرسال جيش زيد بن حارثة وصاحبيه إلى مؤتة. واستطاع خالد بن الوليد بعد استشهاد القواد الثلاثة أن يرجع الجيش سالمًا. كانت هذه الموقعة هي بداية الصراع بين دولة الروم الشرقية في القسطنطينية والمسلمين.

وقد كان للمسلمين علاقات تجارية بدولة الروم الشرقية منذ الجاهلية في الرحلة التي سماها القرآن رحلة الصيف [سورة قريش آية ١-٢].

وكان رسول الله ﷺ قد أرسل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام. وكان من هؤلاء قيصر الروم الشرقية، هرقل. فاهتم بالكتاب. وطلب أن يأتيه برجل يخبره بخبر الرسول.

(١) مسلم: الفضائل: ١٤٥/٢٣٦٥. وللحديث رواية أخرى "نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد" ومعنى العلات: الأولاد من أب واحد وأمّهات مختلفة.
(٢) مسند أحمد: ٤ / ١٠٣ : ١٦٨٩٤ صحيح ورواه غيره.

فجاءوا بأبي سفيان بن حرب أحد زعماء قريش، فدار حوار بينهما^(١).

وتوفي رسول الله ﷺ. وبدأت غزوات الفتح التي تابعت إزاحة طواغيت الحكم وإسقاطهم، حتى يحسن الناس التفكير في علاقتهم برهم. فانتشر الإسلام طواعية. ومن البراهين الناصعة الدلالة على أن فتوحات الإسلام كانت سلمية لدفع الطواغيت عن قلوب وعقول الناس ورقابهم. أن جميع البلاد التي فتحها المسلمون لم يجبروا فيها أحداً على دخول الإسلام. وبقي منهم - ولا يزال - على دينه منذ الفتح في الشام والعراق من المسيحيين والصابئة والكلدانيين التابعين لبابوية الكنيسة الغربية. بل لا يزال في لبنان من أتباع الكنيسة المارونية أتباع سان مارون الذين يقولون عنه أنه من حوارى المسيح ﷺ.

وقد تابع المسلمون نشر إسلامهم حتى أنهم حكم الروم البيزنطيين في آسيا. وحتى جاء الفاتح محمد الفاتح ﷺ فأسقط دولة الكنيسة الشرقية اليونانية الأرثوذكسية بدخوله القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م. وأصبحت القسطنطينية عاصمة العالم الإسلامي اسمها "إستنبول" أو "الآستانة". بعد سقوط بيزنطة ودخول الإسلام شبه جزيرة البلقان. ولا تزال بصمات الإسلام واضحة في كل دولها. فدولة الألبان دولة مسلمة. ومقدونيا ثلثها مسلمون. والبلغار ثلثهم مسلمون برغم قسوة الدولة عليهم. وكذلك في رومانيا والمجر وكرواتيا، وخصوصاً البوسنة وعاصمتها سراييفو (سراي الحكم).

أما دخول الإسلام في شرق أوروبا، فقد تولاه فرع من فروع المغول بعد أن أثرت فيهم دعوة الإسلام. فأسلم قادتهم وجنودهم، وأقاموا في شرق روسيا دولة مغولية في شرق نهر الفولجا. وما زال من آثارها مقاطعات (التتار) في روسيا والباشكير في شرق روسيا وغرب جبال الأورال.

أما بلاد القوقاز الأوربية، فقد دخلها الإسلام منذ الفتوحات الأولى.

وأما الدولة الرومانية الغربية، ففي أثناء فتح الشام صار عمرو بن العاص إلى مصر. وكانت تتبع الدولة الرومانية. ثم تابع سيره بعد مصر. وانتشر الإسلام في ساحل البحر المتوسط حيث دخل برقة وتونس وبلاد المغرب الأقصى. ثم عبر من هناك إلى شبه جزيرة أيبيريا، حيث قاد المجاهد طارق بن زياد المسلمين، ففتح بلاد الأندلس وشمال غرب الأندلس. حيث قطلونيا وبرشلونة وأرجون. ولم يتوقف انتشار الإسلام عند جبال البرانس بل عبرها واتجه شمالاً حتى نهر اللوار، عند مدينتي تور - بواتيه.

(١) حوار أبي سفيان مع هرقل وهو عند البخاري في الجزء الأول - باب بدء الوحي.

ووقعت معركة بلاط الشهداء سنة ١٠٧ هـ بقيادة عبد الرحمن الغافقي، فكانت أول هزيمة حاسمة للمسلمين، لأنها كانت إثر خلاف عرقي بين العرب والبربر. حتى قال المؤرخ الإنجليزي "الين": "لو أن المسلمين انتصروا في معركة تور - بواتيه لأصبحت أوروبا كلها مسلمين".

وفي سير الحركة الإسلامية على شاطئ البحر المتوسط الجنوبي، توقف الإسلام عند تونس وسار إلى صقلية، ومنها إلى جنوب إيطاليا في كابري، وأنشئت دولة مسلمة استمرت أكثر من مائتي عام. ومثل ذلك حدث لبقية جزر البحر المتوسط مثل كريت وقبرص وموريسكا عند سواحل الأندلس.

وفي العصر الحديث انتشر الإسلام في كل دول أوروبا التي لم يفتحها المسلمون. فالدين الثاني في فرنسا هو الإسلام ويضم خمسة ملايين مسلم أو أكثر. وفي بقية دول أوروبا مراكز تضم الملايين. وقد بدأ الإسلام يظهر في جنوب أسبانيا، وأكثر من مائتي رجل بنوا مسجداً في غرناطة، أصبح من المعالم الجديدة في أسبانيا. والله الموفق لتعود أسبانيا دولة مسلمة من جديد.

* * *

وقال د. مراد هوفمان في كتابه "الإسلام عام ٢٠٠٠" - (الشروق - ١٩٩٥):

ومنذ الثلاثينات، من القرن العشرين وُضعت حركات إحياء الإسلام من القاعدة في معظم البلاد الإسلامية في الأجندة السياسية لكل بلد. وإحياء الإسلام لم يجيء من القاعدة فقط، فالحركة الوهابية والحركة السنوسية، وإلى حد ما حركة محمد عبده، جاءت من أعلى، وانتشرت بفضل الامكانيات المادية. وأصبح ضمن المسلمين من يعدّون من أغنياء العالم اليوم، مما يعطى الدعوة الإسلامية ثراءً فعالاً. وعلى سبيل المثال ملايين نسخ القرآن الكريم وترجمته إلى لغات العالم التي توزع مجاناً حيث يتم طبعها وتوزيعها وتوزيع الكتب الإسلامية في مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة.

والخلاصة أن هذا التطور، أخذ في نظر الغرب صورة التهديد الأصولي له، مما جعل الإسلام يحتل القمة في ما يشغل الإعلام العالمي في الربع الأخير من القرن العشرين.

وكل التوقعات اليوم لا أن يختفى الإسلام وإنما أن يمتد وينتشر بل وينفجر.. فضلاً عن أن جنرالات الناتو [حلف شمال الأطلسي] يضعون في حسابهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً في المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب، ولكن بين الشمال والجنوب. فالإسلام هو العدو المتنامي المرتقب في نظر الغرب.

وتنتشر المساجد اليوم في العالم كله بين لوس أنجلوس، وروما، وزغرب وألمانيا (٧٠٠ مسجد) حتى موسكو وبكين. وفي قرطبة الحاضرة القديمة للخلافة الأموية في الأندلس أسس المسلمون الأسبان عام ١٩٩٤ الجامعة الإسلامية الدولية "أفيس"، ليس بعيداً عن الجامع الرائع القديم في قرطبة، حيث يرفع الأذان من جديد. يا لها من معجزة أن يحدث هذا بعد خمسمائة سنة فقط من طرد آخر مسلم من الأندلس.

ولقد كانت توقعات محمد أسد (ليوبولد فايس) في كتابه العظيم "الإسلام على مفترق الطرق" الذي كتبه في دلهي عام ١٩٣٤، هو صعود الإسلام في مقابل انحطاط الحضارة الغربية المادية، حيث ينتهي المطاف بالغرب إلى التطلع مرة ثانية إلى الحقيقة الروحية التي افتقدها في ظل حضارته المادية، وتصبح الدعوة للإسلام متاحة بنجاح من جديد.

ولقد ظلت توقعات محمد أسد غير موثوق بها وغير مصدق بها طوال ستين عاماً.

واليوم بعد انقسام الغرب إلى معسكرين، وبعد إفلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ ١٩٩٠ فإن علامات الخطر تنذر بأزمة أخلاقية عاصفة في الغرب، تؤدي إلى تغيير المسيحية لمشروعها، وأصبح ما يسمى "بمشروع التحديث" يتساقط أمام الأنظار اليوم.

* * *

وأدلى الأمير تشارلز بدلوه:

ومن معالم التغيير أيضاً وبشائر المستقبل إن شاء الله ما نراه ونسمعه من قلق علماء ومفكرى وفلاسفة وعظماء الغرب وإحساسهم بالمخاطر القادمة.. ولقد عبر عن ذلك أحسن تعبير الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا في مرات متكررة؛ ففي كلمة ألقاها يوم ١٣/١١/١٩٩٦ (كما نقلتها لنا جريدة الشعب العدد ١١٣٢ بتاريخ ٢٨/١/١٩٩٧) عبر فيها عن إيمانه بالدعوة العالمية للإسلام، إلى درجة أنه لا يمكن لأى يهودى أو مسيحي أن يفهم دينه أو أن يكون صحيح الإيمان إلا إذا تعرف على الإسلام. ومن حديثه: "إن الثقافة الإسلامية في شكلها الأصلي قد سعت إلى المحافظة على الرؤية الروحية الجامعة للعالم كله بطريقة لم نحاول إتباعها فبالأجيال الأخيرة في الغرب. هناك الكثير الذى يمكننا أن نقتبسه من العالم الإسلامى في رؤيته للكون. فرؤية الإسلام للعالم يمكنها أن تساعدنا على فهم الروحانيات الأساسية في ديانتنا (أى: المسيحية).

وأشار إلى أن الإسلام يحمل رسالة حضارية إلى الغرب عليه أن يتعلمها منه فهو

يقول:

"إن الحضارة الإسلامية في حقيقتها لها رسالة مهمة تقدمها للغرب. وذلك بنظرها

المتكاملة والمتحدة لقدسسية العالم الذى يحيط بنا. وإنى أشعر أننا هنا فى الغرب يمكن أن نساعد فى إعادة اكتشاف جذور تفهمنا للحياة. وذلك بتقدير ذلك الاحترام العميق فى التعاليم الإسلامية لنظام الكون الذى أبدعه الخالق".

وفى تحليل رائع انتقد الأمير تشارلز الحضارة الغربية. فذكر أن الجوانب الروحية فيها لا تحظى بالاحترام. وهو ما جعل الأفراد يخافون حتى من ذكر اسم الله لكى لا يكونوا مثاراً للاستخفاف وللسخرة.

ووجه انتقاده إلى المذهب المادى الذى يمثل الأساس الفلسفى والفكرى والمعرفى للحضارة الغربية القائمة اليوم. وأشار إلى نتائجه المدمرة على الحضارة الغربية خاصة، وعلى الإنسانية عامة. فقد دعا المذهب إلى اعتبار الروحانيات والمقدسات والغيبيات خارج موضوع العلم. ففصل العلم عن الدين. وجعل من الإنسان مادة فقط وأهمل الجانب الروحى بداخله. ونظر إلى الكون باعتباره مالكاً له. ومن ثم فإنه يستطيع أن يستغله كما يحلو له دون نظر إلى القوانين التى وضعها الخالق لتحقيق التوازن الداخلى له.

وتجلت وحشية الأنماط الغربية للتنمية والتطبيق التكنولوجى للعلوم. لأنها انفصلت عن الجانب الأخلاقى، وتدنرت بنزعة استعلائية متأهة أدت إلى نتائج وخيمة ومدمرة تعكس فقدان الإحساس بالمسئولية تجاه الكون والبشر الذين يشتركون مع الغرب فى العيش فى هذا الكون.

ويتبنى الأمير تشارلز رؤية انتقادية حادة فى مواجهة الكنيسة وكبار المسئولين فيها، ويشكك فى قدرة الكنيسة البريطانية على توفير القيادة الروحية للمجتمع خلال القرن المقبل (الواحد والعشرون). وهو يريد أن يجعل من نفسه ملكاً لكل مواطنى بريطانيا وليس فقط للمسيحيين، وهو يضع فى اعتباره وجود ثلاثة ملايين مسلم بريطانى لم يتم الاعتراف بهم كأقلية. برغم أنهم أكثر من عدد اليهود.

أثارت كلمته هذه عواصف مدوية فى المجتمع البريطانى وفى الصحف.. وبرغم ردود الفعل الغاضبة ضد الأمير تشارلز التى اتخذت طابعاً هجوماً ضد الإسلام وتوجيه اللوم للأمير، واتهامه بأنه يمارس نوعاً من الإرهاب المعنوى المبطن، وبأنه باستناده إلى الإسلام وتركه تراث الاستنارة الغربى قد صار أصولياً (أى متطرفاً بتعبير دعاة الاستنارة الغربية).. إلا أن أحداً لم يقم بالدفاع عن الثغرات الخطيرة التى تواجه الحضارة الغربية.. وهو ما يعنى أن

الحضارة الغربية تواجه أزمة حقيقية، وأنها تعاني افلاساً^(١).

* * *

(١) "إسلام رواد الفكر في أوروبا وعلماء الدين المسيحي الأجلاء" ص ٩/٦ - دار المنارة - المنصورة. [معد الكتاب].

كلمة أخيرة

١ - لم أقصد بكتابة هذا الكتاب عن القرآن أن استبق مع من كتبوا أو تحدثوا عن القرآن الكريم فيما سبق من الأيام والأعوام، فقد كتبوا كثيراً وما أحسن ما كتبوا أو تحدثوا حتى قدموا للعالم صورة واضحة للقرآن الكريم. فجزاهم الله خيراً ونفعهم الله بما كتبوا ونفع عباده بما قاموا به خدمة للقرآن الكريم وعلومه.

٢ - ومع أني وعيت الكثير من جمال ما قدموا في هذا المجال وانتفعت به - غير أني لم أشأ أن أذكر ما كتبوا أو أنقل عنه إلا عند الضرورة في مجال الإثبات التاريخي في بعض المواقف. فقد تركت جهدي لإثبات الحقائق القرآنية والنبوية إثباتاً تاريخياً بحكم الثبوت الواقعي، بعد أن ثبت ربانياً ودينياً بقول الله تعالى وحديث رسوله الكريم.

٣ - وقد يكون ذلك كافياً عند العقول المؤمنة. ولكنها في عصر العولمة والعلمانية لا تكفي. لأن أساس قبولها هو الإيمان بما وراء الطبيعة. بينما هؤلاء ومن تابعهم أو تأثر بهم يقولون: "الإنسان سيد نفسه في هذا الكون، وليس بحاجة إلى من يصلحه من خارج أرضه". بل إن بعضهم يقول: "لا إله والكون مادة". والحضارة الغربية تقوم على أساس التفكير المادي في هذا الكون.

٤ - والكتب المقدسة تحدثت عن الأنبياء وأثبتت وجودهم الحقيقي في الحياة. لكن التاريخ المادي البشري لا تجد فيه شيئاً عن الأنبياء حتى عيسى عليه السلام وهو أحدث الأنبياء تاريخاً بشرياً، ونحن نؤمن به من خلال ما جاء من عند الله عن طريق الوحي، وكذلك بقية الأنبياء والرسل.

أما التأريخات البشرية فلم تشر إلى أحد من الرسل والأنبياء. والعبارة التي ذكرها المؤرخ يوسفيوس عن عيسى عليه السلام أنكرها المؤرخون، وتقول العبارة: "وفي هذا العهد: القرن الأول عاش عيسى ذلك القديس".^(١) والمؤرخون يقولون إن يوسفيوس يهودي، واليهود ينكرون عيسى ويسبونونه. فكيف يعترف به يوسفيوس ويقول عنه إنه القديس الذي ظهر في هذا القرن.

(١) نقل هذه العبارة الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه "عبقريّة المسيح" طبعة كتاب اليوم ص ٨١.

بل إن موسى عليه السلام الذى جاء بالشرعية التى تتابع الأنبياء بعده - حتى عيسى عليه السلام - فى العمل بها والدعوة إليها، قال عنه علماء التاريخ البشرى إنه "رجل مصرى". وقالوا عن معجزة عبور البحر ونجاة قومه "إنها أمر من أمور الطبيعة. فالحساب الفلكى أثبت أنه فى هذا العام اقترب من الأرض مذنب هائل، فأحدث جزراً فى مياه بحر القلزم "الأحمر الآن" وخلصه".

وكان من إنكارهم للنبوات أن قالوا عن أحداث نجاة لوط وقومه إنها أمر طبيعى نتج من تساقط أجرام سماوية وتفاعلات فلكية نزلت على مدينتهم فجعلت عاليها سافلها، ومحت المدينة من الأرض. وليست هناك رسالة ولانبوة ولاقوم نجوا بفضل دعاء لوط عليه السلام.

ذكرتُ هذا وذكرتُ أن أدعياء المعرفة والتنوير ومن أطلقوا على أنفسهم العلمانيين ممن حكم عليهم القرآن بأنهم "لا يعلمون"، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة. فقصارى معرفتهم أنهم يعلمون قواعد العلم المادى للحياة الطبيعية ولا يعرفون أو يعلمون شيئاً عن أصولها الطبيعية الربانية. قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [سورة الروم آية ٦-٧].

فراح بعضهم يدعى أن الكتب المقدسة لاتصلح مصدراً للتاريخ الإنسانى. كما قال أحد كتابنا الكبار فى كتابه "الشعر الجاهلى": "للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل. وللإنجيل أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل. وللقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل. ولكن ذلك لا يصلح أن يكون مصدراً للتاريخ الإنسانى". .. وبعضهم لا يعترف بالإسلام ويسمى المسلمين بالمحمديين، يقصد بها أن ينكر هذا الدين ويزعم أن محمداً عليه السلام اقتبس ماسماه ديناً من الكتب المنزلة قبله، ومن الحياة الجاهلية، بل من المجوس أحياناً. ويؤكد ذلك بذكر أرقام الآيات القرآنية التى تحدثت فى موضوعات تحدثت عنها الكتب السابقة، ويذكر أرقام الآيات القرآنية هذه بإفاضة حتى إن نقلها استغرق أربع صفحات. (١) وكان زعماً لمن قال إن القرآن ملفق من كتب اليهود والنصارى، ومن عادات وتقاليد الجاهلية.

ومن هؤلاء أيضاً الذين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة. وهم يعلمون أو لا يعلمون أن فصل الدين عن الدولة يلغى القرآن الكريم والسنة النبوية. فأيات الأحكام والأخلاق تكاد تستغرق معظم آيات القرآن الكريم.

٥ - ذكرتُ هذا، كما ذكرتُ التطور التاريخى للحياة. فبعد أن كانت الرسائل

(١) تاريخ العرب للمستشرق المستغرب فيليب جيتى اللبناى، ترجمة محمد مبروك نافع، طبعة دار العلم العربى سنة ١٩٤٩ ص ١٥٤ وما بعدها.

الإلهية تتوجه إلى أقوام محددين يأتيهم رسول منهم برسالة خاصة، جاءت الرسالة الخاتمة علمية الدعوة شاملة الكون كله ولزم أن تكون مسلمة تاريخياً. مؤكدة دينياً. ومشاهدة في كل عناصرها أمام الأعين والعقول.

ومن أجل ذلك جاء القرآن الكريم يُبَصِّرُ الجاهلين ويرد على المعارضين الغافلين. ويتجاوب مع علمية الدعوة، وخلود الرسالة. إذ لا يتحقق ذلك من القرآن والسنة فحسب - وكثير لا يؤمن بذلك - بل يتحقق من ذلك ومن التاريخ الذي أثبت عن طريق الواقع والمشاهدة البشرية كل حقائق هذا.

ومن أجل ذلك بذلتُ جهدي بعون الله في إثبات بعثة رسول الله ﷺ عن طريق المشاهدة والواقع الإنساني. فحادثة غار حراء ولقاء رسول الله ﷺ بجبريل ﷺ حادثة انفراد بها ظهور الإسلام ولم تحدث لأي نبي. فرسول الله التقى بجبريل وحدث ما حدث فرجع إلى أهله بصورة غير معتادة، وأخبرهم بما حدث. وذكر التاريخ ما روته كتب السنة الصحيحة وبخاصة أن كل من التقى بهم صدقه وآمن به حتى ورقة بن نوفل، وأقر أن ملاقاته مع جبريل هي ملاقاتة بالناموس "الوحي" الذي نزل على الأنبياء قبله. كل ذلك في وضوح المشاهدة والتاريخ.

بل كان هذا في كل عناصر ومواقف القرآن الكريم:

أ - فنزوله وبعثه النبي ﷺ أمر انفراد به القرآن الكريم وهو ثابت تاريخاً ووحياً.

ب - تلقى الصحابة للقرآن وتمسكهم به وكتابتهم له وحفظهم له والعمل به وهم أمة أمية قليل منها من كان يعرف أقل درجات الكتابة. وهذا إعجاز انفراد به القرآن وانفراد به الرسول ﷺ.

ج - جمع القرآن وكتابته والعمل به منذ نزوله في حياة النبي الموحى إليه، قد تم في ظل الدولة التي قامت به وله، أمر لم يحدث لأي كتاب سماوى قبله.

د - تأثير القرآن في أمة أمية كان يقتل بعضها بعضاً، ويستجيبون للشر زرافات ووحداناً، ويعيشون قبائل متنافرة ومتصارعة، ثم يأتي القرآن فيجمعهم في أمة واحدة تدعو إلى الخير وتعمل به. كل ذلك حدث للعرب في خلال عشر سنوات في حياة الرسول في المدينة. أليس ذلك إعجازاً انفراد به القرآن الكريم حقيقة واقعة وتاريخاً إنسانياً لا يمكن أن ينكر؟.

هـ - وهذه القبائل والشعوب التي كانت مشركة وثنية، تجعل الوثنية أصلاً في نظام حياتها. تغيرت حياتها فمحت أصنامها استجابة للقرآن الكريم الذي يناديهم بقوة ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [سورة النساء آية ٣٦]. ففي خلال عشر سنوات أصبحت عقيدة

التوحيد ترفرف راياتها فوق الجزيرة وأصبح الأمر لله وحده. وهذا أمر لم يحدث من قبل وانفرد به القرآن الكريم في تأثيره كما انفردت به بعثة محمد ﷺ.

٦ - التاريخ الإنساني العالمي لا يمكن أن يكون سليم التطور دون أن يتوقف عند سنة ٦١٠ م ليرصد سيرة هذا النبي وبعثته منذ حادثة حراء إلى اليوم. بعد أن كان التاريخ يُشترق فيرصد حياة الفرس والهند والصين، ويغزب ليرصد للرومان والمصريين وغيرهم. فهل يستطيع التاريخ الإنساني العالمي الآن أن يغمض عينيه عن جزيرة العرب التي ظهر فيها محمد ﷺ مبعوثاً من لدن الله تبارك وتعالى. وبعد نزول القرآن الكريم عليه وتتابع ثلاث وعشرين سنة، فكيف يغمض التاريخ عينيه عن ذلك؟ وبعثة محمد تغيرت الحياة في الأرض إلى غير رجعة مثل:

أ - سقطت الدولة الفارسية في الشرق.

ب - وسقطت دولة الرومان في مصر والشام.

ج - ثم دولة الرومان الشرقية.. وكان الصحابة يتساءلون أتسقط القسطنطينية أولاً أم روما؟ فيجيب النبي ﷺ القسطنطينية أولاً. وسقطت عام ١٤٥٣م.

٧ - وقد ذكر القرآن أن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء. فقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [سورة الأحزاب آية ٤٠]، وقال رسول الله ﷺ "أترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي".

وقد صدق القرآن والسنة. فهذه أربعة عشر قرناً منذ بعثة النبي إلى اليوم، ولم نر نبياً صادقاً له دعوة يجتمع عليها الناس كما أخبر رسول الله ﷺ بقوله: "ولن تنال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرها من خالفها أو أخذها حتى يأتي أمر الله" (متفق عليه).

* * *

المراجع

- القرآن الكريم
- صحيح البخارى - طبعة الشعب
- صحيح مسلم
- مسند الإمام أحمد بن حنبل
- سنن أبي داود
- رياض الصالحين
- الإتحافات السنّية فى الأحاديث القدسية - منير الدمشقى
- تفسير الطبرى
- مقدمة تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن - طبعة دار الكتب المصرية
- تفسير ابن كثير ومقدمته
- تفسير الزمخشري
- الترغيب والترهيب - الحافظ المنذرى - دار الأوقاف
- زاد المعاد - طبعة ثالثة
- المعجم الكبير - الطبراني
- الفصل فى الملل والأهواء والنحل - ابن حزم
- كتاب البيان للدانى فى القراءات نقلاً عن مقدمة تفسير القرطبي
- كتاب مباحث علوم القرآن - للشيخ مناع القطان
- إعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعى - مطبعة الاستقامة ١٩٤٥ طبعة ٤
- رسالة القرآن - الشيخ محمد الغزالي - مطبعة وزارة الأوقاف
- أحكام القرآن - ابن العربى
- التربية الإسلامية - دكتور أحمد فؤاد الأهوانى
- التربية الإسلامية وفلاسفتها - عطية الأبراشى
- التربية الإسلامية - محمد منير مرسى
- تاريخ التربية الإسلامية - د. أحمد شلبى
- التربية الإسلامية الحرة - أبو الحسن الندوى
- تحرير المقال فى آداب وأحكام يحتاج إليها مؤدبو الأطفال - ابن جماعة
- ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوى
- سنن الله الكونية - دكتور محمد أحمد الغمراوى
- مقدمة ابن خلدون
- ابن خلدون - حياته وتراثه الفكرى - عبد الله عثمان
- محمد والإسلام - جولدسيهر
- العقيدة والشريعة فى الإسلام - جولدسيهر طبعة اولى ١٩٤١

- الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة-د. موريس بوكاي-الفتح الإعلامى
- العربى-الطبعة الجديدة بعنوان "القرآن والتوراة والإنجيل والعلم"-دار المعارف
- عبقرية المسيح - عباس محمود العقاد
- العهد القديم: سفر التكوين، سفر التثنية. العهد الجديد: إنجيل يوحنا
- قصة الإيمان بين العلم والدين والفلسفة - للعلامة نديم الجسر
- علم السلوك - ابن تيمية
- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم - ابن جماعة
- الديباج - أبو بكر بن العربى
- الديباج المذهب - ابن فرحون
- مناهل العرفان
- طبقات الأطباء
- مقدمة كتاب حجة الله البالغة - لولى الله الدهلوى
- إمتاع الأسماع - للمقرئى - تحقيق محمود محمد شاكر
- الوحى المحمدى - رشيد رضا - مكتبة القاهرة - طبعة سادسة
- رسالة أيها الولد للغزالي
- أخبار علوم الدين - للغزالي
- تهذيب الأخلاق لابن مسكويه
- كتاب الإسلام الفاتح-د. مؤنس-سلسلة دعوة الحق - مارس ١٩٨٠
- كتاب بين الهند وباكستان- أحمد محمد حبيب.
- معالم في الطريق - سيد قطب
- مجلة كلية الآداب الجزائرية عن مقال أ. سعد الدين أبو الشنب عن كتاب "ليل الاستعمار" للأستاذ عباس فرحات

* * *

الفهرست

صفحة	الموضوع
٣	شكر وتقدير
٥	إهداء
٧	مقدمة الطبعة الثانية
١٣	مقدمة الطبعة الأولى
١٥	ما بين الطبعتين
١٩	تمهيد
	الباب الأول
٢٥	القرآن والسنة وتوثيقهما
	الفصل الأول
٢٦	التعريف بالقرآن
٢٨	المبحث الأول: التعريف بالقرآن من القرآن
٢٨	المبحث الثاني: التعريف بالقرآن من السنة
٣٠	المبحث الثالث: التعريف بالقرآن من الجن
٣٠	المبحث الرابع: التعريف بالقرآن من البشر
٣٤	المبحث الخامس: القرآن المكي والقرآن المدني
٣٨	المبحث السادس: دراسة القرآن الكريم من خلال أمور أربعة
	الفصل الثاني
٤١	توثيق القرآن الكريم
٤١	المبحث الأول: توثيق نزول القرآن من الله العزيز العليم
٤٧	جمع القرآن
٥٥	أنواع الجمع
٥٨	جمع القرآن في عهد أبي بكر
٦٤	المبحث الثاني: توثيق نزول القرآن بطريق الوحي
٦٩	المبحث الثالث: توثيق نزول القرآن على محمد ﷺ
٧٧	المبحث الرابع: توثيق نزول القرآن باللغة العربية

صفحة	الموضوع
٨١	الفصل الثالث
	السنة النبوية وتوثيقها
٨١	المبحث الأول: التعريف بالسنة
٨٥	المبحث الثاني: السنة من حيث درجات الثبوت
٩١	المبحث الثالث: ثبوت السنة بالإسناد
٩٤	المبحث الرابع: منزل السنة من القرآن
٩٩	المبحث الخامس: حجية السنة
١٠٣	الباب الثاني
	أثر القرآن في الناس والحياة
١٠٤	الفصل الأول
	معجزات القرآن ومدار تأثيرها في حياة الناس
١٠٤	المبحث الأول: الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم
١٠٨	المبحث الثاني: اللغة لغة العرب، والعلم لغة العالم
١١٣	الفصل الثاني
	القرآن يدعو إلى أسس ثابتة في منهج الإسلام
١١٣	المبحث الأول: الدعوة لوحدة الإله
١٢٠	المبحث الثاني: الدعوة لوحدة العبودية
١٣٣	المبحث الثالث: الدعوة لوحدة النبوة
١٤٦	المبحث الرابع: الدعوة لوحدة الإنسانية
١٥٢	المبحث الخامس: الدعوة لوحدة الأمة
١٦١	الفصل الثالث
	أثر القرآن الكريم في حياة الناس
١٧٠	المبحث الأول: معجزة القرآن وأثرها في أمة أمية
١٧٣	المبحث الثاني: القرآن يدعو إلى العلم والعمل
١٨٩	المبحث الثالث: القرآن وأثره في الحياة التعليمية والتربوية
٢٠٤	المبحث الرابع: المدرسة القرآنية

صفحة	الموضوع
٢٠٤	المبحث الخامس: سرعة انتشار الإسلام في العالم
٢١٤	انتشار الإسلام في أفريقيا
٢١٦	انتشار الإسلام في آسيا
٢١٩	انتشار الإسلام في أوروبا
٢٢٥	كلمة أخيرة
٢٢٩	المراجع
٢٣١	الفهرست

* * *

www.islamic-invitation.com

تعريف بالمؤلف



- ولد في أكتوبر ١٩٢٤ ونشأ في إحدى قرى سوهاج.
- حفظ القرآن الكريم، والتحق بمعاهد الأزهر الشريف وتدرج حتى تخرج في كلية أصول الدين عام ١٩٥١ وكان أول المتخرجين فيها. ونال جائزة التفوق التي رصدها الملك لأوائل المتخرجين في كليات الأزهر. وتم ذلك في حفل إذاعي أقيم في ٢٨ أبريل ١٩٥٢.
- باشر التدريس في مدارس الدولة الابتدائية والثانوية ومعاهد المعلمين.
- في ١٩٦٠، ١٩٦١ درس في كلية دار العلوم الدراسات الأدبية والتربوية واللغوية
- أعير للمملكة العربية السعودية إعارة خاصة للعمل مديراً لمدارس المنارات ومشرفاً تربوياً عليها.
- عمل مدرساً للتفسير وعلوم القرآن في كليات أصول الدين وكلية اللغة العربية وكلية العلوم الاجتماعية.
- قام بتدريس التفسير والحديث الشرف في كليات البنات.
- في أثناء ذلك شارك في دورات التدريس التي أعدت لمدارس التربية الإسلامية واللغة العربية في البلاد غير الناطقة بالعربية، في دول غرب أفريقيا مثل جامبيا والسنغال وسيراليون.
- وزار في آسيا باكستان وعقد دورة لمدرسي مهاجري الأفغان، وأعد الكتب والمواد الدراسية ومناهج لدورات التدريب في هذه البلاد (الفلبين وبنجلاديش..).
- أمضى عمله بالإشراف على مدارس المنارات الإسلامية في مصر.
- اشتغل في مراحل حياته بالدعوة الإسلامية في مصر والبلاد العربية والإسلامية بإلقاء المحاضرات والخطب الدينية. وسافر إلى عدة دول غربية منها ألمانيا، لإلقاء المحاضرات وخطب الجمعة، بالمركز الإسلامي في ميونخ، وفي مدن عديدة بألمانيا.